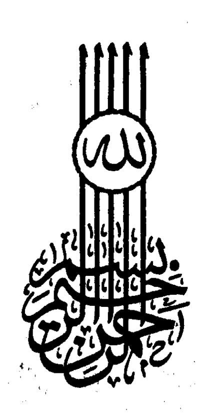
# مع المسلمين الأوائل
## في نظرتهم
# للحياة والقيم

دكتور
مصطفى حلمي
دار العلوم - جامعة القاهرة





بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده

ص ٢٥ أشياء من سورة (القارعة)

١٤

٧٢

١٢٩

٩٢٩

١٧٦ الإيمان بالله تعالى

# مع المسلمين الأوائل
في نظرتهم
# للحياة والقيم

الطبعة الثانية

( معدلة ومنقحة )

١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

دار الدعوة

للطبع والنشر والتوزيع

٢ شارع منشا - محرم بك ( الاسكندرية )

ت : ٤٩٠١٩١٤

بسم الله الرحمن الرحيم

## مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وبعد ،

فإن من دواعى إعادة طبع كتاب « الزهاد الأوائل » بعنوان آخر هو اكتشافنا بعد زيادة الدراسة والتدبر أن « الزهد » عندهم يمثل جانبا واحدا من الجوانب الأخرى الخصبة فى حياتهم ، ونعنى بها مواقفهم من الحياة والقيم ، فقد كانوا بحق روادا فى مجالات الحياة الإنسانية بشعبها : الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فى صورها النقية فاستحقوا بذلك أن يوضعوا فى مكان الصدارة والريادة للأمة الإسلامية عن جدارة .

كذلك اتضح لنا أن الفرق بيننا وبينهم ، ليس فارقا زمنيا — أى أنهم عاشوا فى زمن ماض ونحن نعيش فى القرن الخامس عشر الهجرى ، لا ، ولكن لأن منهجهم فى الحياة كان أوثق صلة بكتاب الله تعالى وسنّة رسوله ﷺ منا نحن مسلمى العصر .

إنهم كانوا حريصين على توثيق صلاتهم بالله عز وجل فى عباداتهم ومعاملاتهم وأخلاقهم ، فحققوا حياة أكثر استقرارا ، وأوفر طمأنينة ، وأطيب عيشاً .

وإذا كنا نعيش فى ظل صحوة إسلامية كبرى مرتقبة[1] فما أحوجنا إلى الاسترشاد بآرائهم ، والتأسى بمواقفهم إزاء الأحداث الدنيوية التى تتكرر ولا تتغير ، حيث سلكوا الطريق الأمثل فى فهم الحياة والموت ، وتقويم النعم الدنيوية من مال وجاه وأهل، وولد عند الحصول عليها وعند فقدها أيضا .

نحن فى حاجة إلى الاسترشاد بمسالكهم فى الحياة بشعبها المختلفة فندرس :

---

(٢) وربما يرجع الاختلاف فى وجهات النظر واتخاذ المواقف بين الإسلاميين ومعارضيهم إلى آثار الغزو الثقافى الاستعمارى الذى شوّه المفاهيم وغير القيم .

— كيف كانوا يتعاملون مع بعضهم البعض ، وإذا اختلفوا فى الاجتهادات حافظوا على التعاون وصلات الود والإخاء ؟

— كيف أوضحوا طرق التعامل فى مجال المال — أو الاقتصاد — والحكم والسياسة ؟

— كيف حافظوا على عقيدة التوحيد الإسلامية النقية ووقفوا بإصرار لإبعاد كل ما طرأ من البدع فى العقيدة والعبادة والمعاملات ؟

— كيف حافظوا فى قلوبهم على القرآن الحكيم وحرصوا على الامتثال لأوامره ونواهيه ، وكيف تأسوا برسول الله ﷺ ؟

فما أحوجنا إذن إلى معرفة ذلك كله توطئة لسلوك الطريق العملى للتأسى بهم[1] .

## صلة ذلك بموضوع التراث والعصرية :

هذا وقد كثر الحديث فى الآونة الأخيرة حول صلة التراث بالعصر ، وهو فى حقيقته لا يخرج عن الموازنة بين طريقة حياتنا والقيم الإسلامية — لا فى ثباتها ووضوحها — فهى واضحة فى الأذهان وثابتة بالنصوص — ولكن فى صورتها العملية حيث نفذتها الأجيال الأولى وجسدتها فى الأعمال والسلوك .

ومضمون هذا الكتاب لون من ألوان الإسهام المتواضع فى إحياء التراث فإن آراء المسلمين الذين ترجمنا لهم لا تتعدى لونا من ألوان التفسير العملى للكتاب والسنة ، وقد حققوا بحياتهم العملية الكثير من أوامر الإسلام وامتنعوا عن نواهيه فضلا عن فهمهم للعقيدة الصحيحة والدفاع عنها لمواجهة البدع والانحرافات الطارئة كما قلنا .

وبهذا المفهوم مازالت آراؤهم صالحة لحل مشكلات معاصرة ناجمة عن قصور

---

(١) وجدير بالذكر أن المتدبر لمصطلح ( الزهد ) الشائع المستخدم بالمصادر المختلفة ينطبق على هؤلاء من حيث مواقفهم وسلوكياتهم الإسلامية الصحيحة ، لا بمعنى الزهد ( السلبى ) الذي نتصوره كنوع من الانسحاب من الحياة والواقع حيث مضى الزمن وتغيرت المفاهيم وانحرفت عن المدلول الصحيح ، لذلك نجد كتب الزهد تضم بين دفتيها العدد الوفير من الصحابة والتابعين والعلماء والأمراء والفقهاء والصوفية .

فى فهم القيم الإسلامية ، ونحن فى حاجة إليها لتصويب نظرتنا إلى الحياة والقيم التى أصيبت بطعنات كثيرة على أيدى غزاة الغرب الاستعمارى ، وفتنة التسميم الماركسى معاً .

وإن من أغراض إحياء التراث — كما يرى الدكتور حامد ربيع — ( السعى إلى الإجابة على ما يفرضه الضمير المعاصر من تساؤلات إذ أن كل ضمير إنسانى فى كل مرحلة من مراحل وجوده لابد وأن يصادف مجموعة من التمزقات . والإحياء للتراث يجب أن ينبع من فكرة أن تلك العملية هى بمثابة الدواء للداء ، أو على الأقل أداة التخفيف من حدة تلك الأزمات )[١] .

ولاشك أن العلاج من الأزمات التى يعانى منها البعض تتحقق بالارتقاء مرة أخرى إلى القيم التى طبقها المسلمون الأوائل فى جوانب الحياة الإنسانية المختلفة .

ولعلنا بتقديم تراجم هؤلاء الأعلام الكبار نذكّر أنفسنا بضرورة إحياء هذه القيم بيننا من جديد فى ظل الصحوة الإسلامية المعاصرة ، بعد أن ساقتنا الثقافة الغربية إلى قيمها المخالفة لنا تماما ، فهناك قيم المنفعة للفلسفة الأمريكية العملية ( البراجماتية ) التى لا تقر أى قيمة من القيم إلا فيما تعود به من نفع — وهناك القيم ( أو اللاقيم ) الماركسية التى تجعل من الإنسان مجرد معدة وغرائز !

لذلك فإننا مطالبون بتعديل وتصحيح سلوكنا لترتفع إلى مستوى القيم الإسلامية التى طبقها الأوائل — وهذا ما نقصده دائما من اقتفاء آثار سلفنا الصالح — أى أننا لا ندعو إلى الرجوع لطرق المعيشة آنذاك — وهو أمر لا يتصوره مسلم — ولكننا نلح فى الدعوة إلى الارتقاء إلى المستوى الذى بلغوه فى نظرتهم للحياة واعتناقهم للقيم الإسلامية الرفيعة ، فبها عاشوا وسادوا ، ومن أجلها عملوا وضحوا بحثا عن السعادة فى الدنيا والآخرة ولم يفصلوا بين العمل لأجلهما معا ، وفى الوقت نفسه نعيش فى عصرنا ونستفيد من خبرات التجارب الإنسانية فى العلوم والمعارف المتراكمة نتيجة خبرات الأجيال .

ونحن عندما نمضى قدما بالأمل نحو المستقبل ، فإن القيم الإسلامية التى طبقها

---

(١) د / حامد ربيع : سلوك المالك فى تدبير الممالك ص ٢٣ ط الشعب ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م .

المسلمون الأوائل هى ذخيرتنا الحية نحو الهدف ، وهى همزات الوصل بيننا وبينهم ، فإن مياه النهر كما يصفها جارودى — تظل مع جريانها وفيّة لمنبعه . وهذا صحيح .

**وبعـد ،**

فإننا نذكر أنفسنا والمسلمين بالعقائد والقيم ومبادىء الأخلاق التى عاش من أجلها أهل القرون المفضلة والذين اتبعوهم بإحسان ، وغرضنا الإسهام المتواضع فى معالجة آثار الغزو الثقافى على قيمنا وأخلاقنا حيث حوّل الكثير منا عن وجهتنا الأصلية وغيّر من معالم شخصيتنا ، فقد أنتجت المدارس والجامعات والإرساليات التبشيرية والصحف والمجلات وأجهزة الإعلام . أنتجت شخصيات تحمل أسماء المسلمين ولكنهم تحولوا بقلوبهم ونفوسهم إلى وجهة الحضارة الغربية النصرانية بقيمها وطرق معيشتها وأهدافها .

وقد آن الأوان للتحرر من آثارها والانطلاق من نقطة البدء الصحيحة — الأصيلة — من جديد ، نحو مستقبل مشرق بإذن الله تعالى وعونه .

ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح بها أولها .

وأسأل الله تعالى أن ينفع به المسلمين ويجعل عملنا خالصا لوجهه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله عز وجل .

مصطفى بن محمد حلمى

الإسكندرية فى ١٩ ذى الحجة سنة ١٤٠٨ هـ
٢ أغسطس سنة ١٩٨٨ م

## مقدمة الطبعة الأولى

## « مع المسلمين الأوائل »

الحمد لله الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له إقراراً به وتوحيداً ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، اللهم صل عليه وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه ودعا بدعوته وسلم تسليما كثيراً .

**أما بعـد ،**

فليس الحديث عن الثنائية فى خلق الإنسان بين الجسد والروح والمقارنة بينهما حديث عصرنا وحده ، فإن فتن الدنيا وحب الشهوات من النساء والبنين والأموال والجاه والسلطان هى فتن الإنسان فى كل الأعصار ، قال الله تعالى : ﴿ **زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب** ﴾ [ سورة آل عمران : ١٤ ] .

فالبشر هم البشر ، والنزاع سيظل دائرا بين الإنسان وهذه الشهوات مادام فيه عرق ينبض ، ولكن من رحمة الله عز وجل بعباده ــ وهو أرحم الراحمين ــ أن أرسل إليهم الرسل والأنبياء لهدايتهم إلى الطريق الصحيح ، ولو ظلت الأمم على طريقتهم لما حدثت المآسى والأهوال التى عانت منها بسبب الكفر والعناد .

ثم أرسل سبحانه وتعالى سيد الخلق وإمام الكل محمدا ﷺ ليختم دائرة النبوة والرسالة ، كما خص أمته بصفوة من خير خلقه ــ جيلا بعد جيل ــ مستمسكة بالميثاق منذ وفاة نبيها عليه الصلاة والسلام إلى انتهاء أجل الدنيا .

ونود تصدير هذه المقدمة ببضعة أسطر فى وصفه صلوات الله عليه وهى من

أفضل ما وقعت عليه أعيننا فيما سطره من علمائنا فى وصف سجاياه ﷺ .

**قال ابن القيم : —**

« ومما ينبغى أن يعلم أن كل خصلة من خصال الفضل قد أحل الله رسوله ﷺ فى أعلاها وخصه بذروة سنامها ، فإذا احتجت بحاله فرقة من فرق الأمة التى تعرفت تلك الخصال وتقاسمها على فضلها عن غيرها ، أمكن الفرقة الأخرى أن تحتج به عن فضلها أيضا . فإذا احتج به الغزاة والمجاهدون على أنهم أفضل الطوائف احتج به العلماء والفقهاء على مثل ما احتج به أولئك ، وإذا احتج به الزهاد والمتخلفون عن الدنيا على فصلهم ، احتج به الداخلون فى الدنيا والولاية وسياسة الرعية لإقامة دين الله وتنفيذ أمره ، وإذا احتج به الفقير الصابر احتج به الغنى الشاكر ، وإذا احتج به أهل العبادة على فضل نوافل العبادة وترجيحها احتج به العارفون على فضل المعرفة ، وإذا احتج به أرباب التواضع والحلم احتج به أرباب العز والقهر للمبطلين والغلظة عليهم والبطش بهم ، وإذا احتج به أرباب الوقار والهيبة والرزانة ، احتج به أرباب الخلق الحسن والمزاح المباح الذى لا يخرج عن الحق وحسن العشرة للأهل والأصحاب ، وإذا احتج به أصحاب الصدع بالحق والقول به فى المشهد والمغيب ، احتج به أصحاب المداراة والحياء والكرم أن يبادروا الرجل بما يكرهه فى وجهه ، وإذا احتج به المتورعون عن الورع المحمود ، احتج به الميسرون المسهلون الذين لا يخرجون عن سعة شريعته ويسرها وسهولتها ، وإذا احتج به من صرف عنايته إلى إصلاح دينه وقلبه . احتج به من راعى إصلاح بدنه ومعيشته ودنياه ، فإنه ﷺ بعث لصلاح الدنيا والدين ، وإذا احتج به من لم يعلق قلبه بالأسباب ولا ركن إليها ، احتج به من قام بالأسباب ووضعها مواضعها وأعطاها حقها ، وإذا احتج به من جاع وصبر على الجوع احتج به من شبع وشكر ربه على الشبع ، وإذا احتج به من أخذ بالعفو والصفح والاحتمال احتج به من انتقم فى مواضع الانتقام ، وإذا احتج به من أعطى لله ووالى لله ، احتج به من منع لله وعادى لله ، وإذا احتج به من لم يدخر شيئاً لغد احتج به من يدخر لأهله قوت سنة ، وإذا احتج به من يأكل الخشن من القوت والأدم كخبز الشعير والخل ، احتج به من يأكل اللذيذ الطيب كالشوى والحلوى والفاكهة والبطيخ ونحوه ، وإذا احتج به من سرد الصوم احتج به من سرد الفطر ، فكان يصوم حتى يقال لا يفطر ويفطر حتى يقال لا يصوم ، وإذا احتج به من

رغب عن الطيبات والمشتهيات ، احتج به من أحب أطيب ماق الدنيا وهو النساء والطيب ، وإذا احتج به من ألان جانبه وخفض جناحه لنسائه احتج به من أدبهن وآلمهن وطلق وهجر وخيرهن ، وإذا احتج به من ترك مباشرة أسباب المعيشة بنفسه ، احتج به من باشرها بنفسه فآجر واستأجر وباع واشترى واستسلف وأدان ورهن ، وإذا احتج به من يجتنب النساء بالكلية فى الحيض والصيام ، احتج به من يباشر امرأته وهى حائض بغير الوطء ، ومن يقبل امرأته وهو صائم ، وإذا احتج به من رحم أهل المعاصى بالقدر ، احتج به من أقام عليهم حدود الله فقطع السارق ورجم الزانى وجلد الشارب ، وإذا احتج به أرباب الحكم بالظاهر ، احتج به أرباب السياسة العادلة المبنية على القرائن الظاهرة فإنه حبس فى تهمة وعاقب فى تهمة )[1].

هذا هو هدى المعصوم ﷺ فى حياته العملية بما سنه للمسلمين من طرق ومسالك للحياة ، فأغناهم عن اتباع غيره . كذلك يصبح المقياس الذى تقاس به أنواع السلوك والأعمال .

فإذا أردنا تطبيق هذا المنهج على دراستنا فى الحياة الروحية لدى المسلمين الأوائل سنجد أنهم كانوا أقرب إلى الهدى النبوى ممن جاء بعدهم حتى من صوفية أهل السنة المعتدلين ، **فما هو الزهد ؟**

إن الأصل فى معنى الزهد هو « الإعراض عن الشيء لاستقلاله واحتقاره وارتفاع الهمة عنه »[2]ولكن لم يقتصر معناه عند الزهاد على هذا التعريف ولندلل عن صحة ذلك ، نستشهد ببعض العبارات التى وردت على ألسنة الزهاد :

إنهم يستندون إلى الحديث « الزهادة فى الدنيا ليست بتحريم الحلال ولا إضاعة المال ، ولكن الزهادة فى الدنيا أن لا تكون بما فى يديك أوثق مما فى يد الله وأن تكون فى ثواب المصيبة إذا أنت أصبت بها أرغب فيها لو أنها بقيت لك »[3] .

---

(١) ابن القيم : عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص ٢٢٨ .

(٢) ابن رجب : جامع العلوم والحكم ص ٢١٠ .

(٣) أما الحديث الثانى فنصه « ازهد فى الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس » حديث حسن ، رواه ابن ماجه وغيره بأسانيد حسنة ، وذكره النووى فى « رياض الصالحين » وفى « شرح الأربعين النووية » .

فالزهد عند المسلمين الأوائل لم يكن بسيطا ساذجاً كما توهم ابن سينا فى تقسيمه للتصوف إلى الزهد ثم مرحلة التصوف ثم المعرفة ، ولكنه كان مؤسسا على الأصول القرآنية وهدى المصطفى ﷺ ، فهو حياة تامة تتناول الإخلاص والتقوى ومتابعة الأمر والنهى[1] .

والسؤال المطروح أيضاً هنا : أيكون الرجل زاهدا وله مال ؟ أجابنا كل من سفيان بن عيينه وسفيان الثورى على هذا السؤال بالإيجاب بناء على تصورهم لحياة الزهاد ، فاشترطا أن يصبر إذا ابتلى ويشكر إذا أنعم عليه .

من هذا يتضح خطأ قصر مفهوم الزهد على الزهد فى المال أو المتاع الدنيوى بعامة ، وربما يرجع ذلك الخطأ عند البعض من الكتاب والباحثين إلى خضوعهم لمفاهيم المستشرقين ، وهؤلاء تنطبع أذهانهم على صور الرهبان النصارى المنقطعة صلتهم بأمور الحياة الدنيا .

أما الزهد لدى المسلمين فإنه يختلف عن ذلك تماما ، فسنرى فى هذا الكتاب زهد المجاهدين وزهد الأمراء وزهد الفقهاء . فمن الزهاد من كان من كبار المجاهدين ، ومنهم عمر بن عبد العزيز الخليفة الخامس ، ومنهم أمثال الحسن البصرى وسعيد بن المسيب والأوزاعى وغيرهم . هؤلاء الذين ملأوا العالم الإسلامى بنتاجهم العلمى فى الفقه والتفسير والحديث ، وذاع صيتهم بما سلكوه من طرق فى معاملاتهم وأخلاقهم ، فكانوا روادا وطلائع ، وسيظلون كذلك لأنهم تركوا تراثا ، وخلفوا آثارا يحتاج إليها المسلمون . .

والذى نلحظه خطأ تصور المستشرقين للزهد الإسلامى ، بسبب معاصرتهم لمقاييس حضارية مادية ، طغت فيها شهوات البحث عن المتع والشهوات ، وأصبحت معايير التقدم فيها قائمة على أرق الإنتاج وقوائم الميزانيات والتصاعد المذهل فى الإقبال على السلع الاستهلاكية ، والتفاخر بين الأمم بعدد الجيوش ومقادير الأسلحة المدمرة والقدرة على إفناء بعض أو كل سكان الكرة الأرضية ، وكل هذه المظاهر التى تصور الحضارة الحاضرة تختلف بلا شك عن مقاييس العصر الحضارى الإسلامى .

---

(١) ابن تيمية : توحيد الألوهية ص٩٤ .

وإلى القارىء صورة دقيقة للحضارة الغربية كما يكتب عنها العالم النمسوى المسلم محمد أسد ( ليوبولد فايس قبل إسلامه ) إذ يرى أن الدين الذى يعرفه الأوروبى هو التعبد للرقى المادى ، فيقول ( إن هياكل هذه الديانة إنما هى المصانع العظيمة ، ودور السينما ، والمختبرات الكيماوية ، وباحات الرقص ، وأماكن توليد الكهرباء . وأما كهنة هذه الديانة ، فهم الصيارفة والمهندسون وكواكب السينما وقادة الصناعات وأبطال الطيران )[1] ، ولذلك فلا يوجد هدف آخر فى الحياة سوى جعل هذه الدنيا مرتعا خصباً لتحقيق المطامع أياً كانت .

أما نظرة المسلمين فإن مقاييس التقدم والنجاح عندهم فى أوج حضارتهم — وهكذا ينبغى أن تكون دائماً — هى ضرورة اتفاقها مع معايير ما يسميه بالحياة الإسلامية ، أى هل تحوز رضى الله عز وجل أم تخالف شريعته ؟[2]

## علة اختيارنا لموضع الكتاب :

من أجل ذلك كله رأينا فائدة الإلمام ببعض هؤلاء الصفوة من الزهاد فى عصر نحتاج فيه إلى طريقة الاتباع — لا الابتداع — فقد جابهوا — كما نجابه اليوم الكثير من المشكلات إذ تعرض عالم الإسلام حينذاك لغزوات ضارية عسكرية وثقافية وتيارات معادية على مستوى العقيدة ، وتآلبت على دولة الإسلام خلفاء وحكام منهم المقسطون ومنهم دون ذلك ، وعاشوا فى أيام اختلفت عن عصر النبى ﷺ ولكل عصر سماته ومظاهره وطرق حياته ومشكلاته ، فآثروا المقاومة الصلبة لإبقاء الذاتية الإسلامية لمواجهة الرياح العاصفة من حولهم ، وبقوا متماسكين ، عاضين عن تعاليم الإسلام ، فسارت حياتهم طيبة هنيئة ، فقام بعضهم يعارض الانحرافات التى ظهرت بظهور علم الكلام والفلسفة الإغريقية فقاوموا الزيغ فى المعتقدات وجابهوا الآراء الطارئة الغريبة ، كما قاوموا البدع المستحدثة فى العبادات والسلوك باسم التصوف ، وكانت مفاهيمهم عن الحياة بالمعنى الشامل ، باعتبار أن الإنسان يشمل العقل والعلم مع السلوك والأخلاق .

وفى أحاديثهم عن الزهد بخاصة ، لم يتقيدوا بترتيب المقامات والأحوال التى سنها المتأخرون ، وإنما تكلموا عن أعمال القلوب وعن الأحوال كلاما مفصلا جامعاً

---

(١ ، ٢) محمد أسد : الإسلام على مفترق الطرق ص ٤١ .

مبينا مطلقا من غير ترتيب ولا حصر للمقامات بعدد معلوم ، فإنهم كانوا أجل من هذا كما يصفهم الذهبى .

وإذا خصصنا الجزء الأكبر بدراسة حياة الزهد ، فإنه لم يدر بخلدنا إنكار الجوانب الخصبة الأخرى الممتدة إليها مواهب هذه الشخصيات الفذة ، فلا يسعنا تجاهل أدوار الخلفاء الراشدين — رضى الله عنهم فى أمور الحكم العادل والسياسة الشرعية ، أو الجهاد فى سبيل الله ( كسفيان الثورى ) أو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ( كسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير ) أو الدفاع عن العقيدة الإسلامية إزاء محاولات الزيغ والانحراف ( كالإمامين الحسن البصرى وأحمد بن حنبل ) وهكذا .

ولسنا بدعا بين الأمم حينما نحاول صقل ذاكرتنا التاريخية ، فإن قدرة الأمم على اكتشاف نفسها والاهتداء إلى ماهيتها الأصلية ، تعد من أهم العوامل التى تساعد على النهوض فى مستقبلها ، وهاكم الغرب النصرانى أمامنا مازال يعيش على تراث سلفه على عكس النظرة السائدة الخاطئة التى تحاول عن عمد الايهام بلفظه لعقيدته ونبذه لتراثه والمفاصلة بينه وبين سلفه ، وليس أدل على ذلك من النظرة التحليلية لأحد كبار مؤرخيه ، إذ يقول أرنولد توينبى ( مازلت أنشك فى جدية الجهود التى بذلها كل من ديكارت وفولتير وماركس وماكيافيلى وهوبز وموسيلينى وهتلر لانتزاع الصبغة المسيحية عن الحياة الغربية )[1] .

ومن أغراضنا : الدعوة إلى تصحيح العقيدة والسلوك باتباع طريقة الإقتداء ، ثم معرفة أقدارنا بالمقارنة بأهل القرون المفضلة والمتبعين لهم بإحسان ، ولا يفوتنا أيضا شحذ همم مسلمى اليوم فنقول لهم :

لاتهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون بمشيئة الله تعالى ، فعقيدتكم تعلو ولا يعلى عليها ، وأمتكم مازالت حية لم تجف الدماء فى عروقها ، ولم يكف قلبها عن الخفقان بالرغم من الدماء التى سالت منها ، فدماؤها تتجدد بالمجددين من علمائها ومجاهديها بحيث لم يخل جيل منهم قط ، وأقرأوا السير الإسلامية للعبرة والتدبر والدرس ورسم طريق المستقبل ، فمن لا تاريخ له لا مستقبل له ، وتاريخنا بحمد الله حافل بدلائل

(١) أرنولد توينبى : مختصر دراسة التاريخ جـ ٢ ص ٢١٠ — ترجمة فؤاد شبل ، الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية ١٩٦٧ م .

حيوية الأمة ، ودليل على أنها إذا سلكت النهج الصحيح نجت من الكوارث ، وهذا دليل على أنها قادرة أيضا بنفس المنهج اجتياز محن اليوم مهما اشتدت .

ولا نظن أن الحديث عن الزهد بعيد الصلة بأحوال العالم الإسلامى فى عصرنا ، ففى عالمنا الإسلامى الممتد من الخليج إلى المحيط ، تظهر على خريطته ألوان متناقضة بين الثراء الفاحش والفقر المدقع ، والحديث فى الزهد يجرنا إلى بحث العلاج الناجع ، ولن نجده إلا فى الوحدة والتكامل الاقتصادى قبل السياسى ، وهذا ما تفعله دول أوربا الآن .

ولكن قد يقول قائل : هذا بحث اقتصادى سياسى ، فنقول : هذا صحيح ، وله وقته ، ومراحل تنفيذه ، ويمثل الحل الأمثل لمعضلاتنا الاقتصادية والسياسية بشرط إتمامه فى الإطار الذى كانت عليه وحدة المسلمين منذ سقيفة بنى ساعدة[1] وإلى أن يتحقق هذا الهدف الغالى ، لابد من كلمة لمن يملكون المال :

إن المال مال الله وملكيتهم له ملكية استخلاف .

فهناك صعوبة إقناع الفقراء بحياة الزهد وهم يرون التفاوت الشديد فى توزيع الثروات ، فالأجدر إذن أن يؤدوا حقوق هذا الاستخلاف على المال .

إن الإسلام له خصوصيته ، فعقيدته جامعة بين التوحيد وما ينبثق عنها من أنظمة اقتصادية وسياسية ومبادىء أخلاقية ، لذلك فإن التربية وفق حياة الزهد خليقة بتحقيق أفضل أنواع العدالة الاجتماعية ، بينما التجارب المستقاة من دول أخرى لم تثمر ، فلم تنجح الأنظمة والقوانين المستوردة فى تحقيق أية عدالة اجتماعية بالرغم من الهالات البراقة حولها ، ونصوصها الآمرة الناهية ، بينما كانت العقيدة الإسلامية تؤدى دورها فى تاريخنا كله بيسر وسهولة دونما تدخل من خلفاء المسلمين وملوكهم إلا فيما ندر .

وهنا يأتى غرض آخر لكتابنا ، فعل تقديم سير زهادنا الأوائل نوع من حث مسلمى اليوم ــ وأثريائهم خاصة ــ على البذل والعطاء ، وما أكثر ميادينه ، وأولها

---

(١) عبرنا عن هذا الرأى بمقدمة كتابنا « نظرية الخلافة فى الفكر الإسلامى » دار الأنصار ١٣٩٧ هـ ــ ١٩٧٧ م .

مساعدة المجاهدين فى سبيل الله بأفغانستان وأرتيريا والفلبين وغيرها من البلدان التى يتعرض فيها المسلمون للجوع والتشرد ، والأولى تقديم العون لمسلمى بلدانهم أيضا ، فأعمال البر كثيرة ولا نحيط بها فى هذا الحيز .

أما غرضنا الأخير ، فإننا نرجو به إقناع المتطلعين لحياة الوجدان وإنعاش القلوب أن حياة الزهد هى البديلة لما يبحثون عنه فى التصوف ، فلا يجدونه فيه ، وإن وجد فليس سوى ألوان من البدع وصنوف من ثقافات الأمم الأخرى[1] .

وقد جاء منهجنا فى هذا الكتاب حذواً لمنهج شيخ الإسلام ابن تيمية ، الذى كان له دور كبير فى الكشف عن الجانب الوجدانى فى التراث الإسلامى ووضعه فى الصيغة الملائمة من منهج السلف ، وعلى حد قوله « من بنى الإرادة والعبادة والعمل والسماع المتعلق بأصول الأعمال وفروعها من الأحوال القلبية والأعمال البدنية على الإيمان والسنة والهدى الذى كان عليه محمد ﷺ وأصحابه فقد أصاب طريق النبوة »[2] .

ولم يأت الحديث عن هؤلاء الزهاد من شيوخ العلم والإيمان على طريقة كتابة التراجم ، بل فضلنا الوقوف على آرائهم فى موضوعنا خاصة ، ونقبنا عن اتجاهاتهم الأخلاقية ، وحرصنا على معرفة الأصول التى استندوا إليها فى اجتهاداتهم ، مع مراعاة ظروف نشأتهم وأدوار الحياة الثقافية والاجتماعية التى تقلبوا فيها .

وأسأل الله تعالى أن يجزى عنى خير الجزاء كل من عاون فى إخراج هذا الكتاب إلى أيدى القراء .

كما أسأله — عز وجل — أن ينفعنى والمسلمين به ، وأن يغفر لى الأخطاء والزلات — وماتوفيقى إلا بالله ، ولا حول ولا قوة إلا به عز وجل .

**مصطفى حلمى**

**الرياض فى ٣ / ١ / ١٤٠٠ هـ**
**٢٢ / ١٠ / ١٩٧٩ م**

---

(١) يُنظر كتابنا « ابن تيمية والتصوف » دار الدعوة بالإسكندرية .

(٢) ابن تيمية / السلوك ص ٣٦٣ .

## تمهيد

ومن اليسير أن نلاحظ أن قلب الإسلام النابض يتمثل فى الكتاب والسنة ، وقد تلقفهما المسلمون الأوائل — شأنهم فى ذلك كما يرى ابن تيمية — شأن ورثة الرسل وخلفاء الأنبياء بصفة عامة الذين يقيمون الدين علما وعملا ودعوة إلى الله ورسله ، « فهذه الطبقة — أى الصحابة — كان لها قوة الحفظ والفهم والفقه فى الدين والبصر والتأويل ، ففجرت من النصوص أنهار العلوم ، واستنبطت منها كنوزها ، ورزقت فهما خاصا »(١) . ويفهم من هذه العبارة على قصرها ، كيف تنبه ابن تيمية إلى إحاطة السلف بالنصوص من كافة نواحيها ، فلم يكتفوا بنقلها والمحافظة عليها ، بل فهموها وفسروها وفجروها أنهارا فى فروع المعرفة المختلفة ، وعاشوا فى ظلال القيم التى أرستها .

لقد عرف السلف — كما يذكر ابن تيمية — بواطن الحقائق(٢) أى الحياة الوجدانية والتزموا بالقيم المعنوية . ويدور منهجه كله فيما يراه من ضرورة الاقتداء بالسابقين الأولين من الصحابة والتابعين فى كل سبل الحياة ، بما فى ذلك الحياة الوجدانية التى جربوها ونقلوا لنا نظرياتهم عنها فهم « مشايخ الإسلام وأئمة الهدى الذين جعل الله تعالى لهم لسان صدق فى الأمة »(٣) ، أى أنهم المثل الأعلى للأمة .

وبعد أن يضع أبا بكر وعمر فى مقدمة أولياء الله ، يأتى بباقى الصحابة ، ويخص منهم بالذكر من اشتهر بالاتجاه الوجدانى والاهتمام بأعمال القلوب ، مثل سلمان الفارسى وأبى ذر الغفارى وأبى الدرداء . يليهم التابعون ومن أتى بعدهم مثل : سعيد بن المسيب ، الحسن البصرى ، عمر بن عبد العزيز ، مالك بن أنس ، الأوزاعى ، إبراهيم بن أدهم ، سفيان الثورى ، الفضيل بن عياض ، معروف

---

(١) ابن تيمية / نقض المنطق ص ٧٩ (٢) الفتوح الحموية

(٣) توحيد الربوبية ص ٤٧٤

الكرخى ، الشافعى ، الدارانى ، ابن حنبل ، بشر الحافى ، عبد الله بن المبارك .

ثم لا يحصر الموضوع فى نطاقهم فحسب ، بل يختم ذلك بقوله « ومن لا يحصى كثرة » ويعود فيضرب الأمثلة بالمتأخرين مثل الجنيد والتسترى والمكى والجيلانى وغيرهم ، وهم من أئمة الصوفية الذين التزموا بالكتاب والسنّة .

كذلك يشير ابن تيمية إلى غير هؤلاء وأولئك من « هؤلاء المشايخ الذين كانوا بالحجاز والشام والعراق ومصر والمغرب وخراسان من الأولين والآخرين » .

كان الشيخ إذن يدعو إلى الاقتداء بهم . والظاهر أن ابن تيمية قرأ لهم واطلع على نظرياتهم فوقع عليهم اختياره لأنهم سلكوا فى رأيه السبيل الصحيح . ومن جهة أخرى ، يظهر من قوله « ومن لا يحصى كثرة » إنه من الخطأ حصر نطاق البحث فى عدد معين دون غيره . أضف إلى ذلك أنه من الصعوبة أن تجد فرقا بين صفات المتقدمين كزهاد أو صفاتهم كفقهاء ومحدثين ، فالدوائر متداخلة لا تفرق بين أحد منها ، لأنها تتصل بالدائرة الكبرى التى تحيطها : دائرة الإسلام العظيم حيث طبّقوه بمفهومه الشامل كعقيدة وشريعة ونظم وقيم .

ولكى لا نقع فى نفس الخطأ الذى أدى إليه فهم « الزهد » على أنه عزوف عن مظاهر الحياة المادية وحدها ، فإننا سنستطلع رأى ابن تيمية فى موضوع الزهد كمقدمة تلقى بعض الضوء على عناصره ومقوماته عند السلف باعتباره معبرا عن مواقفهم من الحياة والقيم الإسلامية الرفيعة :

## معنى الزهد لدى ابن تيمية :

ويبدو من تعريفه للزهد أن تنبه إلى مدلول جديد بحيث لا ينحصر فى دائرة الزهد « الماديات » فحسب ، وإنما شكل منه باقة كاملة فى مثل قوله « قد يكون الزهد مع الغنى وقد يكون مع الفقر » (١) . أى أنه يعبر عن موقف ويفصح عن التزام بمبدأ معنوى يحدد نظرة الإنسان للحياة والمال .

وإذا كان الصوفية قد قسموا الإسلام إلى شريعة وحقيقة ، ونادوا بأنهم أهل الحقيقة فى مقابل أهل الشريعة — أى الفقهاء ، فإن ابن تيمية استخدم هذه

(١) ابن تيمية / التصوف ص ٢٨ .

الاصطلاحات لبيان رأيه فى الحقائق أو القيم التى يتحدثون عنها ويدعون أنهم ينفردون بفهمها . فالحقيقة المعترف بها عنده هى حقيقة الدين « دين رب العالمين »[1] الذى يقتضى القيام به **توفر العلم والحال والقول والعمل والمعرفة والذوق أياً كان القائم به** ، فقيها كان أو صوفيا أو زاهدا فلا يكفى توافر أحد هذه العناصر دون غيرها وإنما يجمعها فى حلقات مترابطة ويتوجها بالدليل الجامع الذى ينير السبيل وهو الاعتصام بالكتاب والسنة[2] .

وقد ذكر ابن تيمية فى مؤلفاته كثيرا من الأعلام ، إلا أننا سنكتفى هنا بالإشارة إلى اهتمامه بدراسة مشايخ الإسلام الذين فهموه من حيث ارتباط العمل بالعلم ، وحققوا فيه التذوق الوجدانى إلى جانب الفقه . كذلك فى حديثه عن هؤلاء الشيوخ لا يفرق بينهم كفقهاء أو محدثين أو زهاد ، ولكن الذى يهتم به أبلغ اهتمام هو تفرقته بين المتمسكين منهم بالشريعة والحائدين عنها ، مستخدما أسماء مترادفة فيطلق عليهم اسم « **أهل الدين والصلاح والزهد والعبادة** »[3] ، لأنهم حققوا المطلوب منهم على خير وجه ، ونفذوا قواعد الإسلام على أتم وأكمل صورة ، فالأصل فى الدين هو « **إقامة حق العبودية وهو فعل ما عليك وماأمرت به** »[4] .

وفضلا عما نراه من الربط فى التعريف الواحد بين أهل الدين والصلاح والزهد ، فإن الأمر يزداد وضوحا عندما يؤكد ضرورة تداخل حلقات العبادة والزهد والورع ليتحقق اتباع « الصراط المستقيم » بمفهومه الدقيق ، والذى يشتمل على العبادات والزهادات والمقالات والتورعات التى تدخل فى نطاق الصراط المستقيم الذى أمرنا الله أن نسأله هدايته »[5] .

وهكذا نرى فى المعانى التى تطرق إليها عند حديثه عن الزهد والزهاد مايدل على إضفاء الطابع الوجدانى على الزهد ، بحيث يشتمل على ماهو أكثر من التقشف أو الزهد فى الأمور المادية ، بحيث يصحح مفاهيمنا عن الحياة ، ويوجهنا إلى القيم الإسلامية المتصفة بالشمول والاتساع .

---

(١) نفسه ٢١٨ .
(٢) نفسه ٥٧٢ .
(٣) نفسه ٥٦٩ .
(٤) نفسه ٣٣٣ .
(٥) ن . م ٦١٨ .

ثم أنه لم يتقيد — كما قدمنا — بمشايخ بلد دون آخر ، وإنما كان يتناول فى حديثه أولئك الذين عاشوا بالحجاز والشام والعراق ومصر وخراسان وغيرها من البلدان . فلم يعن بالتقسيم بالجغرافى إلا من حيث عرضه لمدى اتفاق المذاهب واختلافها فى الكتاب والسنة ، وقد ناقش على سبيل المثال فى استفاضة مذهب أهل المدينة وقارنه بغيره من المذاهب ، لاسيما مع شيوخ البصره والكوفة ، متيقظا بصفة خاصة إلى الفروق الظاهرة بين مدينتى العراق ، حيث اشتهر أهل البصرة بالاجتهاد فى العبادات ، بينما كان أهل الكوفة « مجتهدين فى مسائل القضاء والإمارة ونحو ذلك »(١) .

والحق إن التقسيم التقليدى للمدارس قد يؤدى فقط إلى تبسيط البحث ، ومحاولة إيجاد الروابط والصلات بين الشيوخ السلف وبين بعضهم البعض . كذلك فإن هذا التقسيم يكشف لنا عن طبيعة مكونات النظريات السلفية فى الزهد ، ويعاون الباحث على الاستدلال على العناصر غير الإسلامية التى من المحتمل تدخلها لصبغ هذه الآراء بألوانها .

ولا يخفى علينا الغرض الذى تهدف إليه بعض دراسات المستشرقين إذ أنها تحاول الاستدلال على احتواء آراء الزهاد على عناصر تسللت إليها من هنا أو هناك ، لتحاول إقامة نتائج أبحاثها والقول بأن المضمون الوجدانى للإسلام قد أقيم برمته على قواعد خارجية .

يقول ابن تيمية « إن الأمصار الكبار التى سكنها أصحاب رسول الله ﷺ وخرج منها العلم والإيمان خمسة : الحرمان والعراقان والشام ، منها خرج القرآن والحديث والفقه والعبادة وما يتبع ذلك من أمور الإسلام »(٢) .

ولا يتبادر إلى الذهن إنكار الخصائص الإقليمية أو مؤثرات روح العصر ، ولكن ينبغى الاحتراس عند الأخذ بهذا المبدأ حتى لانحيد عن المنهج العلمى السليم . فإن الشطط فى هذا الصدد يؤدى بنا إلى نزع كل أصالة عن أى نتاج فكرى أو وجدانى .

---

(١) ابن تيمية / رسالة الصوفية والفقراء ص ٢١ .
(٢) ابن تيمية / صحة أصول مذهب أهل المدينة ص ٢١ .

إن الأمصار التى أشار إليها ابن تيمية تعد بمثابة المنابع الأولى التى ازدهرت بأصحاب الرسول صلوات الله عليه ، وكانت تعبر فى جوهرها عن الاقتداء به .

وعلى هذا ، فإننا سنعرض فى هذا الكتاب نظريات بعض شيوخ الزهد السلفيين بالمدارس المختلفة الذين عاشوا فيها أو اتجهوا إليها أو اشتهروا بها منذ عصر الصحابة .

وسنبدأ بالصحابة ثم من يليهم من التابعين ، وفى العصور التالية لها ، سلنتقيد بالشخصيات التى كان يردد أسماءها ابن تيمية ، ذلك لأنهم يمثلون اتجاهات المدرسة السلفية فى عصورها الأولى .

وقد لا نتقيد بمن ظهر فى عصر معين بالذات ، أو بمدى العلاقة بينهم ، مما يوحى لأول وهلة بوجود انفصال زمنى بين شيخ وآخر فى نفس المدرسة ، ذلك لأننا نعتقد أن هذه الشخصيات لا تشكل فى الواقع بنظرياتها ومذاهبها ظواهر منفصلة عن بعضها البعض — مهما اتسعت الفجوات الزمنية بينها — لأنها بارتباطها بنفس المنهج فى النظر والسلوك تعبر لنا عن اتجاه واحد متماثل يمتد عبر العصور المختلفة يظهر عليهم فيه أثر الإسلام لعقائده وقيمه إنهم أشبه بالمرآة التى انعكست عليها صورته .

## أولا ـــ الصحابة رضى الله عنهم

### ١ ـــ أبو بكر الصديق رضى الله عنه ( ١٣ هـ = ٦٣٤ م ) :

إذا عنينا بالزهد فى أحد جوانبه انصرافه إلى التقشف والعزوف عن المتع الدنيوية ، فإن أبا بكر يعد بهذا المقياس من أوائل الزهاد . وقد حرص أهل السنة والجماعة على ترتيب أفضلية الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم طبقا لما ورد بالأحاديث ، ولهذا فإن أبا بكر هو الأفضل لقول الرسول ﷺ « لا ينبغى لقوم فيهم أبا بكر أن يؤمهم غيره » رواه الترمذى ، وقد روى البخارى والترمذى وأبو داود بروايات عدة عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : كنا نخير بين الناس زمان رسول الله ﷺ ، نخير أبا بكر ثم عمر ثم عثمان » .

كان الصاحب الأول غنيا فاستعمل ماله فى سبيل نشر الإسلام وتحرير رقاب الأرقاء من المسلمين ، ويذكر ابن سعد أن أبا بكر كان معروفا بالتجارة وكان يملك أربعين ألف درهم عندما بعث النبى ﷺ ، فأخذ يعتق منها ويقوى المسلمين حتى أصبحت خمسة آلاف فقط حين هاجر إلى المدينة « ثم كان يفعل فيها ما كان يفعله بمكة »[١] .

وحين ولى الخلافة أراد الاستمرار فى كسب عيشه عن طريق التجارة لإطعام عياله[٢] ، ولكن عمر بن الخطاب وأبا عبيدة بن الجراح نهياه عن مزاولة تجارته لأنه تولى أمر المسلمين وانشغل بالعمل من أجلهم « وفرضوا له فى كل سنة ستة آلاف

---

(١) ابن سعد / الطبقات الكبرى جـ ٣ ص ١٧٢ .

(٢) نفسه ١٨٤ ، ١٨٦ وابن الجوزى صفة الصفوة جـ ١ ص ٩٧ .

ويقول الثعالبى ( ٤٢٩ هـ ) فى لطائف المعارف ) ص ١٢٧ ( وكان أبو بكر يبيع البز ـــ الثياب من الكتان أو القطن ـــ وكذلك عثمان وطلحة وعبد الرحمن بن عوف ) .

درهم »(١) .

ولما قدم إليه زعماء العرب وملوك اليمن « وعليهم الحلل وبرد الوشى المثقل بالذهب والتيجان والحبرة ، فلما شاهدوا ما عليه من اللباس والزهد والتواضع والنسك ، وما هو عليه من الوقار والهيبة ، ذهبوا مذهبه ونزعوا ما كان عليهم »(٢) .

مثل هذا النص يوضح زهده وتواضعه وهو خليفة المسلمين إذ أراد أن يكون قدوة لهم ، وكان كثيرا ما يحذرهم فى خطبه من الميل إلى الدنيا والأخذ بأسباب الترف والرفاهية وينصحهم ألا يتخذوا ستور الحرير ونضائد الديباج فينعمون وتعتاد أجسامهم على كل ماهو لين وتؤدى بهم إلى رخاوة الأجساد وطراوتها فيتألمون من « الاضطجاع على الصوف »(٣) .

وعند وفاته أمر أن يرد ما عنده إلى بيت مال المسلمين ، رافضا أن يبقى شيئا منها لديه ، وأدهش عمر بن الخطاب تشدد الصديق على نفسه والتزامه بالمنهج الدقيق ، خاصة وأنه كان ضمن مارده إلى بيت المال عند موته قطعة من القطيفة لا تساوى خمسة دراهم ، فقال عمر « يرحم الله أبا بكر ، لقد أتعب من بعده »(٤) .

وترك أبو بكر أيضا للمسلمين من قواعد السلوك أمثلة نادرة فى معيشته الزاهدة مما جعل معاوية يصفه بأن الدنيا لم ترد أبا بكر ولم يردها (٥) .

وله مواعظ تلفت نظر الباحث من فرط رقته وحساسيته . لقد كان ينصحهم بالبكاء بمثل قوله « ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا » (٦) . وهو نفسه اشتهر بأنه كثيرا ما يغلبه البكاء ، وكان يسمى الأواه لرأفته ورحمته (٧) .

---

(١) تاريخ الطبرى جـ ٣ ص ٥٤ ويقول ابن سعد فى الطبقات جـ ٣ ص ١٨٤ « ففرضوا له كل يوم شطر شاة وما كسوه فى الرأس والبطن » ويذكر اليعقوبى أنه كان يأخذ فى كل يوم من بيت المال ثلاثة دراهم أجرة ( تاريخ اليعقوبى جـ ٢ ص ١١٥ ) .

(٢) المسعودى / مروج الذهب جـ ٢ ص ١٩٢ .

(٣) تاريخ الطبرى ط الحسينية جـ ٣ ص ٥٣ .

(٤) ابن حنبل / الزهد ص ١١٠ وتاريخ الطبرى جـ ٣ ص ٥٤ والطبقات لابن سعد جـ ٣ ص ١٨٧ .

(٥) ابن حنبل / الزهد ص ١١٣ . (٦) نفسه ص ١٠٨ .

(٧) ابن سعد / الطبقات جـ ٣ ص ١٧١ .

أما عن فكرة المحاسبة التى وجدت طريقها فيما بعد عند الزهاد والصوفية ، فإن الصحابى الأول كان قد سبقهم إليها . فيتضح لنا تأنيبه لنفسه ومحاسبته لها مما يذكره ابن حنبل عنه بقوله إنه شوهد مرة آخذا بلسانه ويقول « هذا أوردنى الموارد »[1].

وقد وضعه ابن الجوزى فى نسق الزهاد ، ناقلا عنه عبارات ترتبط ارتباطا وثيقا بالمعانى التى رددها الزهاد بعده عن المصير المحتوم الذى سيؤول إليه الناس جميعا : ملوكا وصعاليك ، أغنياء وفقراء ، ذوى البأس الشديد والضعفاء من الناس . فهم جميعا قد أصبحوا فى ظلمات القبور . ومن هنا يوجه المسلمين بهذه الكلمات الموجزة المعبرة « الوحا الوحا ، النجاء النجاء »[2] ، وكان من فرط خوفه من الله يود لو كان خضرة تأكله الدواب[3] !

وتكلم عن الخوف من الله عز وجل ، والرغبة فى مثوبته ، شارحا الآية التى تصف زكريا عليه السلام وأهل بيته ﴿ **إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين** ﴾ [ آية ٩٠ الأنبياء ] فأثنى الله تعالى عليهم لهذا السبب .

وحديثه عن الرغبة فى ثواب الله والخوف منه والحض على عدم القنوط من رحمته عز وجل لا يدفعنا إلى القول بأنه تطرق إلى مقامى المحبة والخوف فهو أمر لم يخطر لأبى بكر على بال ، ولكن الواضح أنه يقوم بدور المفسر للآيات ﴿ **من ثقلت موازينه** .. **ومن خفت موازينه** ﴾ . إن هيمنة القرآن على الصحابة بخاصة والمسلمين بعامة ، هذه الهيمنة ظاهرة تبدو واضحة بجلاء فى هذا العصر المبكر .

وقد امتلأت حياته أيضا ــ كغيره من صحابة الرسول صلوات الله عليه ــ بالإيمان القوى بالله عز وجل ، وإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . ولهذا كان أكثرهم يردد المعانى نفسها ، وربما بالألفاظ عينها . من ذلك أن أبا بكر لما مرض ، سئل عن رغبته فى إحضار الطبيب فأجاب « قد رآنى فقال : إنى فعال لما أريد »[4] .

---

(١) ابن حنبل / الزهد ص ١٠٩ .
(٢) ابن الجوزى / صفة الصفوة جـ ١ ص ٩٩
(٣) ابن سعد / الطبقات جـ / ص ١٩٨ .
(٤) ابن سعد / الطبقات جـ ٣ ص ١٩٨ وسنجد العبارة نفسها على لسان أبى الدرداء .

ويضع ابن تيمية أبا بكر فى عداد السالكين لطريق الوجدان فى الإسلام وعلى قمّة المراتب الإنسانية بعد النبيين لتفرده بمقام الصدّيق « وأفضل الخلق بعد الأنبياء الصديقون » (١) ، مصداقا لقوله تعالى ﴿ **أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا** ﴾ [ النساء : ٦٩ ] . ثم يثبت خطأ اتباع مذهب وحدة الوجود فى تفضيلهم الولى على النبى ، وادعاء حصول المعرفة عن طريق الإلهام .

إن المشاهدات والمخاطبات رائدها الأول هو الرسول ﷺ لانفراده بالنبوة والرسالة ، ثم يأتى بعده أول الأولياء وهو أبو بكر (٢) ، فالرسول ﷺ اختص وحده برؤية الملائكة المنزلين بالوحى حيث شاهد ما شاهده ليلة المعراج ، والولى أقل مرتبة من النبى ﷺ دون جدال . أما محاولة البعض من متفلسفة الصوفية الرفع من شأن أوليائهم بدعوى حصولهم على المعارف عن طريق الإلهام المجرد والمعانى التى تنزل على قلوبهم فهو خطأ يؤدى إلى نتيجة أخرى غير صحيحة لأنهم ينتقلون من هذه المقدمات إلى ترتيب النتيجة التى يسوقونها إلزاما ، وهو أن الولاية أعظم من النبوة لأن الإلهام يحصلون عليه دون واسطة أو حجاب ، بينما خوطب موسى عليه السلام بحجاب الحرف والصوت بزعمهم (٣) ! ! !

إن ابن تيمية يصف هذه المكاشفات بأنها فى حقيقتها هواجس نفسية من إيحاء الشيطان ، ذلك لأنه يفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان . فالولاية الحقيقية لصحابة الرسول صلوات الله عليه ، وأفضل الأولياء هم الصدّيقون . ويقف فى مقدمتهم أبو بكر (٤) .

## ٢ ـــ عمر بن الخطاب رضى الله عنه ( ٢٤ هـ = ٦٤٤ م ) :

إن الحديث عن أبى بكر وثيق الصلة بالصاحب الثانى ، لأن فراسة أبى بكر تحققت عندما عهد بالأمر من بعده لعمر بن الخطاب (٥) .

ضرب المثل الأعلى فى العدل بعد صاحبيه . وكانت حياته الكفاف ، فلم

---

(١) ابن تيمية / الصوفية والفقراء ص ٣٦ . (٢) ابن تيمية / شرح العقيدة الإصفهانية ص ١٠٧ .

(٣ ، ٤) ابن تيمية / بغية المرتاد ص ٨٢ .

(٥) قيل أن أفرس الناس ثلاثة : أبو بكر فى عمر ، وصاحبة موسى حين قالت « استأجره » وصاحبة يوسف « ابن سعد / الطبقات جـ ٣ ص ٢٧٣ » .

يستحل لنفسه من بيت مال المسلمين ألا ما هو ضرورى ، مستشهدا بالآية ﴿ **من كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف** ﴾ [ آية ٦ ، النساء ] فقال : « إنى أنزلت مال الله منى بمنزلة مال اليتيم ، فإن استغنيت عففت ، وإن افتقرت أكلت بالمعروف » (١) .

ومع هذا ، فقد أخذ نفسه بالشدة بالرغم من اتساع رقعة بلاد الإسلام فى عهده ، وما تبعه من كثرة الغنائم ، فأشفقت ابنته حفصة عليه وأشارت عليه بأن يوسع بعض الشىء على نفسه فى المأكل والملبس « وقد شوهد وهو خليفة وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة » ، ولكنه فى الحقيقة يقتدى بسيد الزهاد « وإمام الكل وقدوة الخلق » (٢) صلوات الله عليه . أخذ يذكر ابنته بما كان الرسول يلقاه من شدة العيش ، وأسهب فى تذكيرها حتى أبكاها (٣) ، وصارحها بأنه لو استطاع الاقتداء بالرسول ﷺ وصاحبه أبى بكر فى عيشهما الشديد لفعل ، لأنه يأمل فى أن « يلقى معهما عيشهما الرخى » (٤) .

ويظهر لنا تقريعه هنا لابنته أمر هين ، لأن الواقعة تكررت مرة أخرى بواسطة أحد الناصحين له بالطعام اللين والمركب اللين والملبس اللين لأنه أحق الناس بها ، ولكن عمر اشتاط غضبا وضربه بجريدة على رأسه معنفا إياه بقوله « أما والله ما أراك أردت بها الله ، وما أردت بها إلا مقاربتى » (٥) .

ولم يقتصر عمر بن الخطاب على نفسه ، وإنما دعا إلى التقشف ورغب فيه ، فكان يحذر المسلمين من ارتداء زى الأعاجم والتشبه بهم فى النعيم فيصيح فيهم « عليكم بالمعدية » (٦) . ولما بلغه أن يزيد بن أبى سفيان يأكل عدة ألوان من الطعام ولا يكتفى بلون واحد ، استأذن منه مرة لمشاركته فى عشائه الذى بدأ بثريد اللحم ، فلما أحضروا لهما الشواء ومد يزيد يده ليتناوله استنكر عمر الاستزادة بهذا الصنف

---

(١) ابن سعد / الطبقات جـ ٣ ص ٢٢٦ .

(٢) ابن الجوزى / صفة الصفوة جـ ١ ص ٢٢٦ .

(٣) المصدر السابق جـ ١ ص ٦ .

(٤) الطبقات جـ ٣ ص ٢٧٧ ، ٢٧٨

(٥) صفة الصفوة جـ ١ ص ١٠٨

(٦) ابن حنبل / الزهد ص ١٢١ « المعدية من معد بن عدنان جد العرب — وهو يعنى بذلك التخشن الذى كان عليه جدهم . وهنا نجده يخشى التأثير الأجنبى أيضا ويتمسك بالعادات العربية حتى فى المأكل والمشرب وليس فى الأفكار أو العقائد وحدها .

من الطعام وتساءل « يا يزيد بن أبى سفيان ! أطعام بعد طعام ؟ والذى نفس عمر بيده لئن خالفتم عن سنتهم ليخالفن بكم عن طريقهم » (١) فقد رأى عمر أن الاقتصار على طعام واحد من السنة ، ولكننا نستطيع أن نستنتج من نص آخر أن نظرته تتعدى هذا الجانب ، لأنه يرى إنه من الضرورى سد حاجة المسلمين جميعا . فليس ثمة مبرر لأحد أن يستأثر لنفسه بالكثير — حتى ولو كان الخليفة — بينما يموت البعض الآخر جوعا . ونلمح هذا الرأى عندما نراه رفض ركوب الدابة التى قدمت له لأنه علم أنها تأكل الشعير فقال « يأكل هكذا والمسلمون يموتون هزلا ؟ ! لا أركبها حتى يحيى الناس » (٢) .

وتتفق النصوص على خشونة عمر وتواضعه وشدته فى أمور الدين ، إلا أن المسعودى « ٣٤٦ هـ = ٩٥٧ م » ينفرد فيما يظهر — بوصف الخليفة الثانى بأنه كان يلبس الجبة الصوف المرقعة بالأديم . ومن المؤكد أن لبس الصوف فى ذلك لا يعنى إلا التقشف والزهادة ، ولا ينصرف إلى المعنى الخاص الذى يريده الصوفية .

**ومن العجب أن عماله فيما ينقل لنا المسعودى اتبعوه فى سائر أفعاله وشيمه وأخلاقه ، لأنه كان هو نفسه « يحمل القربة على كتفه »(٣) ، وهو مايدل على قوة شخصيته مما كان له تأثير فى عماله ، وربما معاصريه أيضا الذين كان يدعوهم إلى الخشونة ونبذ أسباب الرفاهية كما قدمنا . ونرى الصدى عند أويس القرنى الذى يصف عمر بأنه خليله وصفيه(٤) .**

وإننا لنعثر على عديد من نماذج السلوك التى يتضح فيها عمر بن الخطاب الزاهد حقا . وقد جذبت شخصيته انتباه المستشرق ساخاو فأطلق عليه اسم « صاحب العظمة ذو الثياب المرقعة »(٥) .

أما عمر التقى الورع الذى يتناول فى أحاديثه أعمال القلوب كالخشية والمحاسبة ورأيه فى الدنيا والآخرة ، هذا الجانب فى شخصيـة الخليفة الثانى نراه فى كتاب « الزهد » لابن حنبل وهى جديرة حقا بالتأمل . فلم يكن الزهد عنده مجرد

---

(١) الشاطبى / الاعتصام جـ ١ ص ٩٣ .
(٢) ابن حنبل / الزهد ص ١٢٦ .
(٣) المسعودى / مروج الذهب جـ ٢ ص ١٩٩
(٤) ابن حنبل / الزهد ص ٣٤٥ .
(٥) ساخاو / طبقات ابن سعد جـ ٣ ق ١ ص ٥

سلوك عملى فحسب ، ولكنه بالإضافة إلى ذلك نظرة فاحصة يتأمل فيها أمور الدنيا والآخرة فيقول « نظرت فى هذا الأمر فجعلت إذا أردت الدنيا أضررت بالآخرة ، وإذا أردت الآخرة أضررت بالدنيا »[١] . ثم يختار بعد ذلك الإضرار بالفانية ويشبهها بمكان إلقاء القمامة الذى وقف عندها مرة فأطال ـــ مما أدى إلى تأذى أصحابه الذين معه ـــ فقال لهم « هذه دنياكم التى تحرصون عليها »[٢] .

ويستشعر الخوف الشديد من ربه عز وجل ومسئولياته عن كل ما يحدث فى دار الإسلام ، فهو يخشى لو مات جدى بشاطىء الفرات أن يحاسبه الله تعالى به[٣] ، ويشتد هذا الخوف عليه حتى يتمنى أنه لم يولد ، وأنه كان نسيا منسيا[٤] ، إذ لما هرع إليه عثمان بن عفان حين طعن وهو واقع فى التراب ليساعده على النهوض فأبى ، وأخذ يردد « ويلى وويل أمى إن لم يغفر لى »[٥] . وكان دأبه الخوف فمنعه النوم لأنه لو نام بالنهار خيل إليه أنه سيضيع الرعية ، وإن نام بالليل عن الصلاة أضاع نفسه[٦] ، وكان يحب الصلاة فى جوف الليل[٧] ، فلا عجب بعد هذا أن يلاحظ أصحابه فى وجهه خطين أسودين من البكاء[٨] ، بل كان يقرأ أحيانا بعض آيات من الكتاب فتخنقه ويظل فى البيت يعوده أصحابه ظنا أنه مريض[٩] .

ومن أعمال القلوب التى حرص عليها عمر ـــ رضى الله عنه ـــ محاسبة النفس فى الدنيا قبل محاسبتها يوم العرض الأكبر حيث لا يخفى من الخلق خافية ، مستندا إلى الآية ﴿ **يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية** ﴾[ آية ١٨ ، الحاقة ][١٠] كذلك فطن إلى المعانى الرقيقة التى تتعلق بالذكر والورع والتوبة ، فإن ذكر الله عنده شفاء بينما ذكر الناس داء[١١] ويقول « إن من قل ورعه مات قلبه »[١٢] ، كما يحث على مجالسة التوابين لأنهم أرق شىء أفئدة[١٣] ، ويرى أن الطمع فقر والإياس غنى[١٤] .

---

(١) ابن حنبل / الزهد ص ١٢٥ ، ١٢٦
(٢) المرجع السابق ١١٨
(٣) ابن الجوزى / صفة الصفوة جـ ١ ص ١٠٩
(٤) المرجع السابق ١٠٩
(٥) المرجع السابق ١٢٥
(٦) ابن حنبل / الزهد ص ١٢٣
(٧) ابن الجوزي / صفة الصفوة جـ ١ ص ١٠٩
(٨) المرجع السابق ١٠٩ والزهد ص ١٢١
(٩) ابن حنبل / الزهد ص ١١٩
(١٠) المرجع السابق ١٢٠ وصفة جـ ١ ص ١٠٩
(١١) ابن حنبل / الزهد ص ١١٢ .
(١٢) ابن الجوزى / صفة جـ ١ ص ١٠٩
(١٣) ابن حنبل / الزهد ص ١٢٠
(١٤) المرجع السابق ص ١١٧

وكان يدعو ربه عز وجل أن يمنحه الإخلاص فى العبادة حتى تصبح خالصة له دون مشاركة أحد ، وحتى يبتعد عن كل مظاهر الرياء [١] ، لأن التدين الحقيقى فى رأيه ليس بالطنطنة من آخر الليل بل هو الورع [٢] . كما يفضل العزلة لأن فيها الراحة من خلان السوء[٣] .

إنها كلها تتضمن نفس انعكاسات الخوف من الله تعالى وتحرى الإخلاص فى العبادة ، كما رأيناه يتنبه إلى أرق المعانى مثل رقة القلب .

وينقل لنا ابن حنبل فيما ذكره عن هذا الصحابى الجليل ، أنه أمر رجلا أم الناس للصلاة ثم جلس ليقص عليهم بأن يكف عن القصص ، مكتفيا بإمامة الصلاة لخوفه عليه من أن يرفع نفسه فيضعه الله [٤]. ونراه هنا يتعمق فى النفس البشرية ليكشف النقاب عن الزهو فى حديثه إلى الراغب فى القصص . كذلك فى تعريفه للمدح بأنه الذبح ، فكأن من يكيل المدح لغيره كمن يذبحه ، لأنه يسمح بالغرور بأن يأسره ، ويقضى عليه .

أما عن إلهام عمر رضى الله عنه ، فقد ثبت بالحديث « قد كان فى الأمم قبلكم محدثون ، فإن يكن فى أمتى أحد فعمر منهم »[٥] .

وجاء ابن تيمية فيما بعد ، فاتخذ من إلهام عمر دليلا على إمكان المعرفة القلبية للترجيح بين الأدلة ، لأن هناك نورا يهدى القلب ، ولكنه يشترط لصحة هذا الدليل المعرفى أن يكون مسبوقا بنص فيصبح دور الإلهام القلبى مرجحا لطالب الحق « إذا تكافأت عنده الأدلة السمعية الظاهرة »[٦] .

ولكن شيخنا يحتاط هنا ، لأن المحدث يأخذ عن قلبه — وهو ليس معصوما — فيحتاج إلى عرضه على ماجاء به النبى ﷺ . ولهذا كان الخليفة الثانى لا ينازع أصحابه بدعوى أنه محدث وملهم — ومن ثم يفرض عليهم آراءه — بل كان يناقشهم ويناقشونه ، ويحتجون عليه بالكتاب والسنة[٧] .

---

(١) ابن حنبل / الزهد ص ١١٨

(٢) المرجع السابق ١٢٥

(٣) المرجع السابق ١١٩

(٤) المرجع السابق ١٢٢

(٥) النووى / شرح صحيح مسلم جـ ٥ ص ٢٥٠

(٦) ابن تيمية / السلوك ص ٤٧٧

(٧) ابن تيمية / الفرقان .. ص ٧٠

وفى النهاية .. استشهد عمر — رضى الله عنه — بطعنة غادرة وراءها مؤامرة دبرها أعداء الإسلام ، ولكنه خرج من الدنيا « نقى الثوب بريئا من العيب »[١] .

### ٣ — عثمان بن عفان رضى الله عنه ( ٣٥ هـ = ٦٥٥ م ) :

وكما استشهد عمر بن الخطاب ، كانت الشهادة أيضا من نصيب الخليفة الثالث الذى قتل منكبا على المصحف يتلو آيات الله ، وتحققت نبوءة الرسول ﷺ يوم كان واقفا معه على الجبل فاهتز فركضه الرسول وهو يقول « اسكن .. ليس عليك إلا نبى أو صديق أو شهيد »[٢] .

ولن نتناول الجانب السياسى الذى تضخمت به المصادر وجذبت اهتمام علماء الإسلام للتحليل والدراسة مع الانقسام بين أهل السنة والشيعة فى موقفهم منه وانفجار الأحداث الواحد تلو الآخر ، ونكتفى بالقول بأن ما دار حوله من جدال حجب الكثير من مآثره ، وصدق ذو النون المصرى حين رأى أن أحد الطرق التى دخل منها الفساد على المسلمين هو تصيدهم لأسباب الخلافات واتخاذها حجة لأنفسهم ، ودفنوا أكثر مناقب السابقين[٣] ، ذلك لأن الانصراف إلى تسجيل الفتن أدى إلى طمس معالم شخصية أحد الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم جميعا .

والذى نقصده هو الناحية المتصلة بموضوعنا ، وهى زهد ذى النورين ومضمون الحياة الوجدانية عنده . فقد اشتهر بأنه كان من التجار الأثرياء ، خصص جانبا كبيرا من ثروته لصالح المسلمين ، فقام بتوسيع المسجد ، وجهز نصف جيش العسرة[٤] .

والخليفة الثالث من الصحابة العشرة المبشرين بالجنة رضى الله عنهم ، ومع هذا فقد انكب على العبادات قانتا آناء الليل خائفا من المصير فى اليوم الآخر ، راجيا رحمة الله تعالى ورضاه . وهذا هو تفسير ابن عمر الآية ﴿ **أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه** ﴾ [ سورة الزمر آية ٩ ] ، إذ قال ابن عمر إن المقصود بهذه الآية هو عثمان بن عفان رضى الله عنه وأرضاه[٥] .

---

(١) تاريخ الطبري جـ ٥ ص ١٢٨

(٢) ابن عبد البر / الاستيعاب ق ١ ص ١١٥

(٣) الشاطبى / الاعتصام ج ١ ص ١٠٨

(٤) ابن الجوزي / صفة الصفوة ج ١ ص ١١٦

(٥) ابن الجوزي / صفة الصفوة ١١٨

ونرى من حديثه عن الخوف والخشية تماثلا مع الخليفتين قبله بحيث يدفعنا إلى تأكيد القول بارتباطهم جميعا بأواصر عقيدة متينة أخلصوا لها كل الإخلاص ففجرت فى نفوسهم أحاسيس متشابهة ، وإلا كيف نفسر تمنى كل من أبى بكر وعمر ألا يخلقا أصلا ، ثم يجىء عثمان فينظر إلى مصيره : أهو إلى الجنة أو النار ؟ ولما لم يكن يدرى إلى أيهما يؤمر به فيختار أن يكون رمادا قبل أن يعلم إلى أيهما يصير(١) .

ويشتد بكاؤه حتى تبتل لحيته حين يقف على أحد القبور لأنه يذكر حديث الرسول ﷺ عن القبر كأول منازل الآخرة ، وكأنه يشفق على المصير وهو فى ريب من أمره لأن من نجا من القبر « فما بعده أيسر منه ، ومن لم ينج منه فما بعده أشد منه »(٢) .

ولما تدافع الغوغاء لقتله وهم أدوات المؤامرة اليهودية بقيادة عبد الله بن سبأ — صاحت امرأته فيهم « إن تقتلوه أو تتركوه فإنه كان يحيى الليل كله فى ركعة يجمع فيها القرآن »(٣) .

ونقرأ خطبه فنرى أن أغلبها يدور حول الحث على الزهد فى الدنيا وتفضيل الآخرة ، فهو يخاطب سامعيه بنفس المعانى التى حفظها وقرأها فى الكتاب ، ورآها مطبقة بواسطة السابقين عليه . وبدراستنا للموضوعات التى طرقها ، نراها متطابقة فى صورتها العامة مع نظريات الصحابة فى مضمون الحياة الوجدانية والعناية بأعمال القلوب .

ونلتقى بالأسماء التى أطلقوها لتعريف الحياة الأولى والآخرة ، فنراها لا تختلف مما يدل على التمسك بالشكل أيضا إلى جانب المضمون ، هذه الظاهرة إن دلت على شىء فإنما تدل على التوافق فى الآراء بسبب لزوم طريقة الاقتداء . فليس بدعاً أن نرى عثمان بن عفان رضى الله عنه يسرد علينا آراءه فى الحياتين ويعظ المسلمين ، مترسما خطى المتقدمين عليه ، مشيراً إلى مذهبهم الذى لا يتعدى أعتناق وتطبيق آيات الكتاب وصحيح السنة .

---

(١) ابن حنبل / الزهد ص ١٢٩ .
(٢) ابن حنبل / الزهد ص ١٢٩
(٣) ن م ١٢٧ وابن الجوزى / صفة جـ ١ ص ١١٦

وبادىء ذى بدء ، لم يفرح عثمان رضى الله عنه بتولى الخلافة ، بل قام يخطب فى أول عهده بها وهو أشدهم كآبة[1] ، فنبه المسلمين إلى أنهم فى دار قلعة وبقية أعمار — وهو منهم — وحثهم على المبادرة بما يقدرون عليه من صالح الأعمال لأن الدنيا طويت على الغرور ، شارحا الآية ﴿ **فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور** ﴾ [ آية ٣٣ ، لقمان ] ، منتقلا إلى نفس العظة التى وعظهم بها أبو بكر — رضى الله عنه — فيما أشرنا إليه من قبل — وتتلخص فى التنبيه إلى المصير المحتوم على الجميع من ( أبناء الدنيا وأخواتها الذين آثاروها وعمروها وتمتعوا بها طويلا[2] ، ولكنها لفظتهم كما لفظت غيرهم ) .

ويتطرق بنا فى خطبة أخرى إلى الحث على تقوى الله — فإن تقواه جنة — والانخراط فى الجماعة بدل التحزب والفرقة . محذرا من الانشغال بالدنيا لأنها الفانية « فلا تبطركم الفانية ولا تشغلنكم عن الباقية »[3] .

ومن مظاهر زهده أنه كان يطعم المسلمين الطعام الشهى « ويدخل إلى بيته فيأكل الخل والزيت »[4] ، وأنه كان يصوم النهار ويقوم الليل إلا هجعة من أوله . ثم اتخذه الصوفية فيما بعد — كما يذكر الهجويرى — مثلا أعلى للتضحية بالروح والمال فى سبيل الله[5] . والحق أنه ينبغى أن يتخذه المسلمون جميعا كذلك .

وكان ينهل من مصدر الإسلام الأول — كتاب الله عز وجل — كل ليلة لا يشغله عنه شاغل ، وكأنى به عندما يقرأ المصحف فقد ازداد قربا من الله تعالى . ولئن كانت العبارة التى أوردها ابن حنبل وهى « وماأحب أن يأتى على يوم ولا ليلة إلا أنظر فى الله » تعنى القراءة فى المصحف والمداومة على ذلك ، إلا أن تعبيره يدعو إلى النظر بأعمق من مجرد هذا القصد المباشر . والظاهر أن ذا النورين يعبر عن إحساسه بأنه بقراءة المصحف يشعر بأنه يزداد اقترابا من الله ، ويلتقى بمتعة يود الاستمرار فى الاغتراف منها فلا يحب أن تنقضى الأيام والليالى بدونها ، حيث يقول فى عبارة أخرى « لو طهرت قلوبكم ما شبعتم من كلام الله عز وجل »[6] .

---

(١) تاريخ الطبرى جـ ٥ ص ٤٣ (٢) ن . م والصفحة

(٣) ن . م ص ١٤٩ (٤) ابن حنبل / الزهد ص ١٢٨

(٥) The Kashf Al Mahjub by Al Hujwiri translated by : Reynold A . Nicholson - London 1911 .

(٦) ن . م ص ١٢٨ .

وظل يقرأ فى الكتاب الكريم إلى أن اختلطت دماؤه بكلماته ، وأصبحت خاتمة حياته عنوانا على التقاء النظر بالتطبيق ، والقول مع العمل .

## ٤ ــ على بن أبى طالب رضى الله عنه ( ٤٠ هـ = ٦٦٠ م ) :

وعندما استشهد عثمان رضى الله عنه تحققت نبوءة النبى ﷺ وانشق المسلمون واختلفوا ثم أخذ يستفحل الانشقاق حتى انفجرت موقعة حنين بين على ومعاوية رضى الله عنهما . ويذكر لنا ابن عبد البر أن المسلمين انقسموا ثلاثة أقسام « أهل دين يحبون عليا ، وأهل دنيا يحبون معاوية ، وخوارج »[1] .

وظهر التشيع الذى بدأ فى شكل المحبة لعلى رضى الله عنه واتسعت الدائرة بعد ذلك حتى أصبح المذهب الشيعى اتجاها مخالفا للسنة ، وتيارا منشقا عن أهل السنة والجماعة .

وأصبح لشخصية على رضى الله عنه جاذبيتها الخاصة لدى الزهاد والصوفية فيما بعد ، وتداخلت اصطلاحات أسماء الصوفية مع أسماء أئمة الشيعة ، كالأوتاد والأبدال وغيرها . ولا بأس أيضا عند الصوفية من قبولهم ــ بل تأييدهم ــ الحديث الذى يربط بين الصوفية وبينهم وبين على الذى ألبسه النبى ﷺ خرقة الصوفية ، وهو حديث موضوع .

وإذا كانت حجة الصوفية فى وضع الإمام على رضى الله عنه بعد الرسول صلوات الله عليه ، على رأس قائمة الشيوخ الذين يحرصون على الارتباط بهم وتسلسل لبس خرق التصوف منهم ، فإن ما يدعو إلى الدهشة أنه مع ما تحفل به المصادر عن أخبار الخليفة الرابع فى الزهد والحياة الوجدانية ، فإنهم قد أغفلوا صفة أخرى بارزة لابن عم الرسول ﷺ ، وهى شجاعته النادرة فى الحروب ، واشتراكه فى معظم المعارك العسكرية وخروجه ظافرا منتصرا منها . ينقل لنا صاحب ( اللمع ) ما نسب إلى الجنيد بقوله « لولا أنه اشتغل بالحروب لأفادنا من علمنا هذا معانى كثيرة ، ذاك امرؤ أعطى علم اللدنى »[2] ، وسنناقش صفة العلم بعد قليل . فلم يكن إذن معتكفا متأملا ، متسربلا فى خرق الصوفية ــ كما يحاول دعاة التصوف تصويره ،

---

(١) ابن عبد البر / الاستيعاب ق ٣ ص ١١١٥ (٢) الطوسي / اللمع .. ص ١٧٩

ولكنه فى الحقيقة كان صاحب راية رسول الله ﷺ أثناء القتال (١) ، ولم يكن يرد حتى يفتح الله عليه (٢) .

وظل معتزا بسيفه الذى كان كثيرا ما كشف به الكرب عن الرسول ﷺ ولم يبعه إلا لحاجته الشديدة لثمنه لأنه لو كان عنده ثمن إزار ما باعه (٣) .

وإذا ما اعتمدنا على كتب التاريخ ، قابلتنا أحاديثه الكثيرة المتشعبة فى وصفه للدنيا « فالعيش فيها مذموم والرخاء فيها لا يدوم » (٤) ، وتدلنا تصرفاته على الزهادة والتقشف حتى كان يلبس الإزار المرقوع ، فسئل عن السبب فأجاب « يقتدى بى المؤمن ويخشع له القلب » (٥) .

ولكن هذه الصورة الواقعية ، نراها تتضخم فى المصادر المختلفة التى تمدنا بمعلومات وفيرة عن دعواته المتلاحقة للمسلمين ، ومواقفه فى النصح والوعظ ، وهى تفوق من حيث كثرتها ما تركه لنا أصحابه السابقون عليه رضى الله عنهم .

وتعليل هذه الظاهرة قد يتضح إذا ما تأملنا موقفه الصعب الدقيق الذى ينفرد به عنهم ، لأن أهل الشام انشقوا عليه برئاسة معاوية رضى الله عنه ، وأعوانه أنفسهم خرجوا عليه وحاربوه . كذلك اصطدم منذ بداية توليه الخلافة بمشكلة المطالبة بدم عثمان رضى الله عنه التى كانت سببا لموقعة الجمل .

ومن هذه المعارك المتلاحقة المحتدمة ، انصهرت شخصية الفارس الكبير ، وأكسبته التجارب القاسية نظرة عميقة للحياة والناس ، فضلا عن سابق صحبته وعلمه ، وكانت وسيلته هى التعبير عما يجيش فى صدره وما يعتمل فى خواطره فى مناسبات شتى ، فأفضى إلينا بهذه الخواطر المستفيضة التى تلقفها الشيعة وأضافوا إليها وضخموها وأدخلوها فى إطار نظرياتهم وظهر الغلو فى شخصه واضحا جليا .

أما أهل السنة والجماعة ــ فقد سلكوا الطريق الوسط ــ ودافعوا عنه . وجاءت أخبار زهده ضمن كتابات شيوخهم أكثر اعتدالا . والحق أن موقفه من

---

(١) ابن سعد / الطبقات ج ٣ ص ٢٥ (٢) ن . م ص ٣٨ وكتاب الزهد ص ١٣٣

(٣) ابن الجوزى / صفة الصفوة جـ ١ ص ١٢٣ والزهد ص ١٣٢

(٤) ابن الجوزى / صفة جـ ١ ص ١٢٥

(٥) ابن حنبل / الزهد ص ١٣١ وابن سعد / الطبقات جـ ٣ ص ٢٨ وصفة جـ ١ ص ١٢٣

الزهد وجياة الوجدان لا يتعدى القالب الذى صاغه فيه أسلافه وإن لون عباراته طابع الحزن والأسى واتسمت نزعته بالتعمق فى دراسة النفوس وخباياها للسبب الذى قدمنا به حديثنا . فنظرية الخوف قد ظهرت قبله كما عرفنا ، وكانت تحوم حول الحزن ويبدو أنه ممن وضع البذور الأولى ، فكثيراً ما شوهد فى محرابه « قابضا على لحيته يتململ تململ السليم . ويبكى بكاء الحزين »[1] .

ولكن التشيع واضح فى التصوف المتأخر ، ولهذا كان من الأفضل ، ليكون البحث أقرب إلى الحياد ، عدم الاقتصار على مصادر التصوف وحدها . فلو اقتصرنا على كتب الصوفية لأصبح أئمة المسلمين جميعا صوفية ، وإن نظرة فاحصة لكتاب أبى نعيم الأصفهانى تبرهن على ما نحاول إثباته ، ذلك لأنه وضع الخلفاء الأربعة رضى الله عنهم فى عداد الصوفية ، وما أبعد ذلك عن الحقيقة ، فإنهم الخلفاء الراشدون وكفى !

ولكى تصبح دراستنا عن زهده أقرب إلى الحياد ، فإننا سنستقصى أخباره من مصدرين : أحدهما شيعى معتدل وهو تاريخ اليعقوبى ، والثانى كتاب « الزهد » للإمام أحمد بن حنبل ، فماذا نرى ؟

نلاحظ أن الخليفة الرابع يصف الدنيا فى حالة ضيقه بشيعته حيث يسميهم « شرار خلق الله إلا من رحم الله » ويشكو من افتراقهم عنه ، ويجد العزاء فى أن الدنيا هى كما وجدها « محنة الصالحين » ، ويدعو الله أن يكون منهم — أى من الصالحين ! ! [2] .

ولكنه فى موضع آخر ، يعود فيصف الدنيا بأنها « دار صدق لمن صدقها ودار عافية لمن فهم عنها ودار غنى لمن تزود فيها . مسجد أحباء الله . ومهبط وحيه ومصلى ملائكته إلخ ... » [3] . ولا تعارض بين الوصفين لأنه فى تعريفه الأول يعبر عن ضيقه ومحنته بأتباعه ، فانعكس ذلك على نظرته للدنيا . وهكذا يتشكل النظر للدنيا وفق ما يقابل المرء فيها من صنوف المتاعب ، وألوان السعادة ، وكأنها كالوعاء الشفاف الذى يتخذ لون ما يحتوى من السائل . نستدل على ذلك من باقى التعريف

---

(١) ابن الجوزى / صفة الصفوة جـ ١ ص ١٢٢ (٢) تاريخ اليعقوبى جـ ٢ ص ١٨٠
(٣) المصدر السابق جـ ٢ ص ١٨٤ .

الثانى إذ يقول عنها « مثلت ببلاها البلا وشوقت بسرورها السرور ، راحت بفجيعة ، وأبكرت بعافية . ترغيبا وترهيبا وتحذيرا وتخويفا » (١) .

كذلك يرى أن الجمع بين حزبى الدنيا والآخرة محتمل فيقول « المال والبنون حزب الدنيا ، والعمل الصالح حزب الآخرة ، وقد يجمعهما الله لأقوام »(٢) ، فلم تقلقه إذن مظاهر الثراء وكثرة الأولاد بقدر ما اهتم بالبواعث والدوافع النفسية التى تكمن وراءها ، فيقول « إن أخوف ما أخاف عليكم اثنين : طول الأمل واتباع الهوى ، فأما طول الأمل فينسى الآخرة ، وأما اتباع الهوى فيصد عن الحق » (٣) .

ولكنه لم يحض على الانقطاع والعزلة وحياة الرهبنة ، وكيف يفعل وهو القدوة فى ميدان الشجاعة والفروسية ؟ وكان رسول الله ﷺ « ليبعثه ويعطيه الراية فلا ينصرف حتى يفتح له » (٤) . كما ظل يحارب عن حقه فى الخلافة حتى نهاية حياته رضى الله عنه .

ولم يخرج أيضا فى حديثه عن العلم عن الإطار الإسلامى ، أى لم يدع لنفسه العلم اللادنى ؛ ولكنه العلم الذى يقصد به معرفة أمور الدين وأحكامه والتفقه فيه فإن « للعالم ثلاث علامات : العلم بالله وبما يحب الله وبما يكره الله » (٥) فهو الإيمان أولا ، ثم معرفة أحكام الحلال والحرام — أى ما يحب الله وما يكره ، ثم أكد الجانب التنفيذى للعلم — إن صح التعبير — لأنه يقرن بين العلم والعمل ، فيحث المسلمين على ذلك بقوله « تعلموا العلم تعرفوا به ، واعملوا به تكونوا من أهله » (٦) ولكن مع الأسف أتت نظريات التصوف المتأخرة فجعلته من أصحاب العلم اللادنى وقوّلته ما لم يقله ! (٧)

## ٥ — أبو الدرداء رضى الله عنه :

كان أبو الدرداء من كبار الصحابة « ويختلفون هل شهد بدراً أم لا » (٨) واتجه إلى الحث على طلب العلم والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والنظر فى ملكوت

---

(١) ن . م والصفحة
(٢) ن . م ١٨٣
(٣) ن . م ١٨٤ وكتاب الزهد لابن حنبل ص ١٣٠
(٤) ابن حنبل / كتاب الزهد ص ١٢٣
(٥)تاريخ اليعقوبى جـ ٢ ص ١٨٣
(٦) ابن حنبل / كتاب الزهد ص ١٣٠
(٧) Kashf Al Mahjub P. 74
(٨) ابن الجوزى / صفة الصفوة جـ ص ٢٥٧

الله للعظة والعبرة . فالتفكير ساعة عنده خير من قيام ليلة ، والعمل المفضل لديه هو التفكر والاعتبار فيقول « تفكر ساعة خير من قيام ليلة » (١) ولهذا وصفته زوجته بأن أفضل أعماله « التفكر والاعتبار » (٢) فإن كتاب الله عز وجل يتضمن الكثير من الآيات التى تحض على التفكر والتدبر والنظر .

وأبو الدرداء أكثر ما يعنى بالتقوى الحقيقية وعبادة الله بإخلاص دون تظاهر أو غرور ، وتفصيل العمل للآخرة والزهد فى الدنيا لزوالها وفنائها إذ يقول « اذكر الله عز وجل فى السراء يذكرك فى الضراء ، فإذا أشرفت على شىء من الدنيا فانظر إلى ماذا يصير » (٣) .

وزاول أثناء حياته التجارة والعبادة معا ، فلما وجد أنهما لا يجتمعان اكتفى بالعبادة ، وترك التجارة (٤) .

ولا ينبغى أن نفهم من هذا أنه مجرد تصرف اتخذه بوحى من رغبة عابرة ، أو تفضيل موقف على آخر ، فالحقيقة أن لموقفه هذا أصلا فى الكتاب ، فقد قرأ آيتين أحدهما ﴿ **وأحل الله البيع وحرم الربا** ﴾ [ آية ٢٧٥ / البقرة ] فإن أبا الدرداء مع تسليمه وتصديقه بالآية التى تحلل البيع الذى يعود عليه شخصيا بثلثمائة دينار حلالا طيبا ، فقد فضل على هذا المال ، اشتراكه فى صلاة الجماعة بالمسجد فى الأوقات كلها ، لينطبق عليه قول الله عز وجل ﴿ **رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله** ﴾ [ آية ٣٧ / النور ] (٥) .

ومن النصوص التى أوردها ابن الجوزى ما يصور لنا أحوال المسلمين فى عصر أبى الدرداء إذ يقول « والله ما أعرف فيهم شيئا من أمر محمد ﷺ إلا أنهم يصلون جميعا » (٦) .

ووقف أبو الدرداء ليعلن ضرورة المحافظة على ما كان عليه الأوائل . ولما كان معنيا بأعمال القلوب وضرورة الاهتمام بها قبل أعمال الجوارح فقد أزعجته ظاهرة

(١) ابن سعد / الطبقات جـ ٧ ص ٣٩٢ . (٢) ابن حنبل / الزهد ص ١٣٥
(٣) ابن الجوزى صفة / ص ٢٥٨ .
(٤) ابن سعد / الطبقات جـ ٧ ص ٣٩٢ ، وابن حنبل / الزهد ص ١٣٧ .
(٥) ابن حنبل / الزهد ص ١٣٧ .
(٦) ابن الجوزى / صفة الصفوة ص ٧٥٩ . وابن حنبل / الزهد ص ١٣٨ .

إعلان الزهد ، فأفصح عن رأيه المتضمن أن خشوع المنافقين أن يرى الجسد خاشعا والقلب ليس بخاشع [1] ؟ ونهر امرأة — رأى بين عينيها أثر السجود — وله سمته الظاهر كنقشة الشاة فقال لها « لو لم يكن هذا بين عينيك لكان خيرا لك » [2] .

ونحن نعلم أنه مات سنة ٣١ هـ أو ٣٢ هـ ( ٦٥١ م أو ٦٥٢ م ) بدمشق حيث ولى القضاء هناك ، أى أنه شاهد ثراء المسلمين ومظاهر الترف والإقبال على الدنيا فوقف فى وجه هذا التيار الجديد الذى لم يألفه من قبل زمن النبى ﷺ ، محذراً المسلمين من التكالب عليها ، ووصفها بأنها دار كدر لا ينجو منها إلا أهل الحذر [3] ، والتزم بتطبيق هذه النظرية على نفسه .

وهذا يذكرنا بما نحاول إثباته ، وهو الجمع عند الأوائل بين النظر والتطبيق ، فليس الأمر مجرد مواعظ تلقى ، وكلمات تقال ، ثم تنسى ، وإنما هو موقف وسلوك فى نفس الوقت . بل يصبح السلوك أحيانا فى المقام الأول .

والأمثلة كثيرة على ما نقول : منها أن زوجة أبى الدرداء شكت من نفاد الدقيق ، فكان جوابه لها « إن أمامنا عقبة كؤود ، المخفف فيها خير من المثقل » [4] .

ألسنا نجد هنا سلوكا عمليا لرأيه فى وقوف المال الكثير — الذى لا يؤدى صاحبه حق الله فيه — حجرة عثرة أمام صاحبه يوم الحساب ؟

ولئن كان يدعو إلى الرفق فى المعيشة ، أى الاقتصاد فيها والابتعاد عن الإسراف . ويعتبر ذلك من التفقه — أى من الحكمة — فإنه يدعو أيضا أصحاب الأموال إلى أن يؤدوا حق المال ، فإن لم يستطيعوا ، فإنه ينبغى عليهم الاكتفاء بالحد الذى يستطيعون معه أداء الشكر عنه ، أى « لا تجمع ما لا تستطيع شكره » لأن المال المؤدى عنه حق الزكاة يساعد صاحبه على النجاة يوم القيامة . أما صاحب المال الذى لم يطع الله ، فإن ماله يقف حجر عثرة فى سبيله يومذاك .

وكان أبو الدرداء يبغض جامع المال الذى يفغر فاه ، كأنه مجنون يجتذبه ما

---

(١) ابن الجوزى / صفة ص ٢٦١ .

(٢) ابن حنبل / الزهد ص ١٣٨

(٣) ابن عبد البر / الاستيعاب ق ٣ ص ١٢٢٩

(٤) ابن حنبل / الزهد ص ١٣٧ .

عند الناس ، ويغفل ما عند الله ، يود لو واصل الليل بالنهار للاستكثار من ماله « وماذا ينفعه ماله وعمره يقصر ؟ ! » (١) .

وهو يتذكر الموت دائما ، يستمد منه عظة بليغة ، ويستشعر الخوف من يوم الحساب ، وترتعد فرائصه لهوله ، فيحث المسلمين للعمل من أجله . إنه يهتز لهذا المصير الذى سيلقاه الجميع ، ويرى الموت فوق رءوس الأحياء . سأله رجل فى جنازة عن صاحبها فأجابه بقوله « هذا أنت ... هذا أنت » ! ! مستشهدا بالآية ﴿ **إنك ميت وإنهم ميتون** ﴾ [ آية ٣٠ / الزمر ] (٢) .

كذلك يحب الفقر ويفضله عن الغنى ، لأنه يجعله متواضعا لربه عز وجل ، كما يحب المرض أيضا لأنه يكفر عن خطاياه فيقول « أحب الفقر تواضعا لربى ، وأحب الموت اشتياقا إلى ربى ، وأحب المرض تكفيرا لخطيئتى » (٣) .

وقد أورد الكلاباذى ـــ مؤرخ التصوف ـــ ( ٣٨٠ هـ = ٩٩٠ م ) هذه العبارة نفسها ضمن الأقوال التى ذكرها الصوفية فى مقام السكر ، واعتبر حالة قائلها أتم من صاحب السكر ، لأن الثانى يقع على المكروه من حيث لا يدرى غائبا عن وجود التكره ، بينما المتأسى بمثل قول أبى الدرداء « يختار الآلام على الملاذ ، ثم يجد اللذة فيما يؤلمه لغلبة شهود فاعله » (٤) .

بمثل هذه الإضافة التى يضعها الكلاباذى . نستطيع أن نستنتج إلى أى حد حاول دعاة التصوف تأويل عبارات السلف ، فإن لم تكن النصوص متطابقة مع ما يريدون الترويج له من أفكار ، فلا بأس من تقريبها ـــ أو حتى تأويلها ـــ حتى تخرج عن قصد صاحبها . لكى تتفق مع ما يهدفون إليه .

إن مثل فكرة السكر ـــ أو مقام السكر عند متأخرى الصوفية ـــ لم تكن تخطر على بال لأبى الدرداء رضى الله عنه وهو يقول عبارته الآنفة الذكر . والأقرب إلى الصحة أن أبا الدرداء ـــ وهو الصحابى الذى حدث عن الرسول ﷺ ـــ سمع الحديث الذى يشير إلى ابتلاء المؤمن ، ونصه « ألا تحبون أن تكونوا أصحاب بلاء

---

(١) ابن حنبل / الزهد ١٤٣ وصفة جـ ص ٢٦٢ (٢) ابن حنبل / الزهد ص ١٣٤

(٣) ابن سعد / الطبقات جـ ٧ ص ٣٩٢

(٤) الكلاباذى / التعرف لمذهب أهل التصوف ص ١١٧

وأصحاب كفارات ؟ فو الذى نفس أبى القاسم بيده إن الله ليبتلى المؤمن بالبلاء ، فما يبتليه إلا لكرامته عليه ، لأن الله قد أنزل عبده منزلة لم يبلغها بشىء من عمله دون أن ينزل به من البلاء فيبلغه تلك المنزلة » (١) .

ولما مرض لم يشتك بسبب المرض ، وإنما كان يشكو ذنوبه ، فلم يطلب دواء لدائه وإنما أجاب من سأله عما يشتهى . بأنه يشتهى الجنة . ولم ير سببا يدعو إلى إحضار طبيب لأن الله تعالى هو الذى أضجعه وهو القادر وحده على شفائه(٢) .

إن سيطرة الإيمان على قلبه مكنت من عبوديته لله تعالى وحجبت عنه كل ما عداه . وارتقت به إلى أعلى مقام لأعمال القلوب ، ألا وهو مقام الرضا :

إن أبا الدرداء — كما سنرى بعد قليل — يربط بين الانتصار فى الحروب ، وبين الأعمال الصالحة . أما عن نفسه ، فلم ير لها عملا مشابها ، فاستسلم فى مرضه لله وحده . استسلام العبد المقر بذنوبه .

ومن الغريب أنه كان يحض عن اتباع الكتاب والسنة وحدهما — واستبعد الاقتداء بالصحابة فى ذلك الوقت المبكر ، ويبدو أنه وجد أسبابا لذلك فيقول « لا تغترن بصحابة رسول الله ﷺ ، فإننا عشنا بعده دهراً طويلا والله أعلم بالذى أصبنا بعده »(٣) .

وينحصر مذهبه الأخلاقى فى الدعوة للأخوة بين المسلمين بالنصح لهم وموعظتهم والدعوة للحلم والعفو لأنه « ما تجرع المؤمن جرعة قط أحب إلى الله عز وجل من غيظ كظمه فاعفوا يعزكم الله »(٤) . ويحض على الإكثار من ذكر الموت حتى يقلل الذاكر من آفتى النفس : الحسد والبغى(٥) ويستعيذ من خشوع الرياء .

أما أشد الآفات خطرا ، وهى المانعة لصلاح الناس فهى الشح ، والهوى وإعجاب كل ذى رأى برأيه(٦) .

ثم يضع أفكاره كلها فى مجال الأخلاق ، معبرا عنها بكلمته الجامعة « البر

---

(١) ابن عبد البر / الاستيعاب ق ٤ ص ١٧٢٧ .
(٢) ابن حنبل / الزهد ص ١٣٤
(٣) ابن الجوزى / صفة ج ص ٢٦٠
(٤) ن . م ٢٦٠
(٥) ابن حنبل / الزهد ص ١٤٣
(٦) ن . م ١٣٦

لا يبلى ، والإثم لا ينسى ، والديان لا ينام فكن ما شئت ، كما تدين تدان »[1] .

أما الاعتكاف الذى حض أبو الدرداء عليه ، فهو لزوم البيت لأنه يكف الجوارح ويحصن المعتكف ضد فتن الأسواق لأن الأسواق تلهى وتلغى[2] .

ولكن ينبغى أن نوضح أن تفضيلة للعزلة لم يكن مظهراً سلبيا بقدر ما كان طريقاً يفضله حتى لا يشارك فيما يشارك فيه الغير من تصرفات قد تجلب له الذنوب .

فقد كان قاضياً بدمشق وعدّه تكليفا خطيرا ومسئولية جسيمة تبعث على الخوف ، فلما هنأه الناس بالقضاء أجاب « لو علم الناس ما فى القضاء لأخذوه بالدول رغبة عنه وكراهية له »[3] .

وهكذا ، فإن كراهية الاختلاط لم تمنعه من القيام بمسئوليته كقاضى وأدائه لهذا الدور فى خدمة المسلمين . فلم يكن إذاً سلبياً منعزلاً عن الحياة الاجتماعية ، لا سيما إذا عرفنا أن القاضى كان خليفة الأمير إذا غاب[4] .

وقد أفرغ أبو الدرداء رأيه فى التوكل وتفضيله للتقوى عن شئون الحياة الدنيا فى قالب شعرى جامع يقول فيه :

يريد المرء أن يؤتى مناه ويأبى الله إلا ما أرادا
يقوله المرء فائدتى ومالى وتقوى الله أفضل ما استفادا[5]

ويذكر صاحب الطبقات الكبرى أنه كان من عبدة الأصنام قبل إسلامه . ومثل هذا النص ينبغى أن يوجهنا إلى حقيقة هامة : وهى أن العقائد السابقة لم يكن لها تأثير على هؤلاء الصحابة ، لأن البيئة الإسلامية المبكرة بمؤثراتها الدينية وقيمها المثالية ــ وكان حامل لواءها النبى ﷺ ــ كان لها أثرها الوحيد والحاسم . إن شخصية الرسول كانت موضع جذب وإشعاع فى محيط الصحابة بحيث استولت تعاليم الإسلام على ماعداه فى هذا الدور المبكر .

---

(١) ن . م ١٤٢ .
(٢) ابن حنبل / الزهد ص ١٣٥ وابن الجوزى / صفة جـ ص ٢٦٣
(٣) ابن سعد / الطبقات ج ٧ ص ٣٩٢
(٤) ابن عبد البر / الاستيعاب ق ٣ من ١٢٣٠
(٥) ن . م ق ٤ ص ١٦٤٨

وكان أبو الدرداء يهتم بأخبار الغزو وانتصار المسلمين تثبيتا لواجب الجهاد ، ويأمر المحاربين بطاعة الله لأن الطاعة عنده هى وحدها الكفيلة بالنصر فى الغزو فيقول لأفراد الجيش « اعمل عملا صالحا قبل الغزو فإنما تقاتلون الناس بأعمالكم »(١) . ويرى العكس ، أى أن الهزيمة سببها عصيان الله عز وجل ، لا فرق فى ذلك بين أمة وأخرى . فقد بكى يوم فتح قبرص مما أثار أصحابه ، فسألوه عن سبب بكائه فى يوم كان ينبغى عليه أن يشارك المسلمين أفراحهم .

وما أبلغ العبارة التى قالها شارحا السبب !! قال « ما أهون الخلق على الله إذا هم تركوا أمره . بينما هى أمة قاهرة ، ظاهرة ، لهم الملك ، تركوا أمر الله عز وجل فصاروا إلى ما نرى !!(٢) .

فقد رأى أن علة الهزيمة لأهل قبرص حينئذ هو العزوف عن طاعة الله عز وجل . وبالمثل سنجد ابن تيمية فيما بعد ينظر إلى التاريخ نظرة الفيلسوف الناقد ، ويعدد المواقع التى هزم فيها المسلمون بسبب عصيانهم لأوامر الله تعالى ونواهيه ، بل إن أحوالنا المعاصرة لا تخرج فى جوهرها ولبها عن هذا التعليل !

وتجتمع فى أبى الدرداء خصال عدة ، كلها تبلغ به المرتبة الأولى فى العلم والعمل . فقد كان فارسا ، وعالما ، ومن علية الصحابة ، ومن المحدثين عن النبى ﷺ .

هكذا يصفه ابن سعد ، ويضيف إلى ذلك كله صفة لها أهميتها فى الحياة الوجدانية وأعمال القلوب فيعده من أهل النية .

## ٦ — أبو ذر الغفارى رضى الله عنه « ٣٢هـ = ٦٥٢ م »

ترتبط شخصية أبى ذر الغفارى رضى الله عنه بفكرة الزهد التى جعلت اسمه بارزا فى هذا المضمار ، بسبب تلك الحادثة التى وقعت بينه وبين معاوية رضى الله عنه ، ونعنى بها معارضته مظاهر البذخ والترف واختلافهما فى تفسير الآية

(١) ابن حنبل / الزهد ص ١٣٦

(٢) ابن حنبل / الزهد ص ١٤٢

﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله .. ﴾ [ سورة التوبة آية ٣٤ ] ، إذ ذهب معاوية إلى أنها نزلت فى أهل الكتاب ، بينما قال أبو ذر « نزلت فينا وفيهم »[١] .

وكان أبو ذر ناقداً للتغييرات التى حدثت بالشام ، وحينما لم تعجبه بعض التصرفات فى أموال المسلمين ، تذكر سؤال الرسول ﷺ له « يا أبا ذر ، كيف أنت إذا كانت عليك أمراء يستأثرون بالفىء ؟ »[٢] ، وسنوضح إجابة أبى ذر بعد قليل .

وأصبحت حادثة معارضته لمعاوية وموقف الخليفة عثمان بعدها منه أحد المنحنيات التى وقف عندها الشيعة محاولين إبراز آثارها الدينية والسياسية ، واتخذوا من أبى ذر ركنا من أركان الشيعة الأوائل ، وضخموا من واقعة انتقاله إلى الربذة ، لمحاولة تصويرها بما يشبه الاضطهاد والنفى .

إن الصحابى الزاهد الذى حرص على أن يلقى الرسول صلوات الله عليه على نفس الحال التى فارقه عليها[٣] ، نظر إلى كل زيادة فى الأموال على أنها فائض عن الحاجة ينبغى توجيهه للصالح العام ، وكان يطبق على نفسه هذه القاعدة بدقة ، فقد عرض عليه بعض القوم يوما النفقة فاعتذر عن قبولها ، قال « عندنا أعنز نحتلبها وأحمر ننقل عليها ومحرر يخدمنا وفضل عباءة . إنى أخاف الحساب فيها »[٤] ، وفى عبارة أخرى « أنا أتخوف الفضل » .

ورفض مرة أن يدخر الفائض من عطائه لأن « خليلى عهد إلى أن أى مال ذهب أو فضة أوكى عليه فهو جمر على صاحبه حتى يفرغه فى سبيل الله »[٥] ، ولهذا فهو يرى أن ذا الدرهمين أشد حسابا من ذى الدرهم[٦] .

وقد خشى معاوية من هذه المبادىء التى يعلنها أبو ذر على الملأ حتى نادى مناديه بألا يجالسه أحد[٧] ، وبعث لعثمان للتصرف فى أمره .

---

(١ و ٢) ابن سعد / الطبقات جـ ٤ ص ٢٢٦ (٣) ن . م ٢٢٨

(٤) ابن حنبل / الزهد ص ١٤٦ ــ ١٤٧ والطبقات لابن سعد جـ ٤ ص ٢٣٥

(٥) ن . م ٢٢٩ والزهد ص ١٤٦ (٦) ابن حنبل / الزهد ص ١٤٧

(٧) ابن سعد / الطبقات جـ ٤ ص ٢٢٩

ونلاحظ أن هناك اختلافا فى روايتى الشيعة وأهل السنة عن واقعة ذهاب أبى ذر إلى الربذة ، فقد صورتها المصادر الشيعية بصورة الإبعاد والنفى ، وأجمعت مصادر أهل السنة على أنه خرج معززاً مكرماً .

وفيما يلى مقارنة بين مصدرين ، أحدهما شيعى والآخر سنى :

يذكر اليعقوبى فى تاريخه أن أبا ذر كان يجمع الناس حوله ويقف على باب دمشق بعد صلاة الصبح فيقول « جاءت القطار تحمل النار ، لعن الله الآمرين بالمعروف والتاركين له ، ولعن الله الناهين عن المنكر والآتين له »[1] .

ولما كتب معاوية إلى عثمان — رضى الله عنهما — أمر بأن يحمله على السفر إلى المدينة لمقابلته ، وأثناء مناقشة أبى ذر لعثمان ، نلمح الاتجاه الشيعى دون عناء ، حيث يحتد عثمان رافضا إجابة رغبة أبى ذر فى الذهاب إلى مكة أو الكوفة أو البصرة . وعندما يتساءل أبو ذر « أتخرجنى من حرم رسول الله ﷺ ؟ » يجب عثمان « نعم . وأنفك راغم »[2] .

ونستبعد صحة هذه الرواية ، لأن المناقشة تدور بلغة لم نألفها فى التخاطب بين الصحابة لا سيما عندما نصطدم بتعبير « وأنفك راغم » ، فهو لا يتفق مع طباع عثمان بن عفان الحيي الذى لم نسمع منه كلمة نابية واحدة ، حتى مع الغوغاء الذين أرادوا قتله ، وهو الذى وصفه الرسول ﷺ بأنه أصدق صحابته حياء .

أما المصادر السنية ، فقد أثبتت أنه وفد على عثمان بناء على استدعائه له وأنه طلب منه المكوث بالمدينة ، فاختار أبو ذر الربذة لأنها كانت مسقط رأسه ، معتذرا عن الحياة بالمدينة ، وأعلن أنه « لا حاجة لى فى دنياكم »[3] .

والنص الذى يدور حوله المعنى نفسه ، أورده ابن حنبل كالآتى :

قال عثمان : يا أبا ذر ، قم عندنا تغدو عليك اللقاح وتروح ، فقال : لا حاجة لى فيها ، وقال إن الربذة كانت لى منزلا فائذن لى أن آتيها فأذن له[4] .

---

(١) اليعقوبى / تاريخ جـ ٢ ص ١٤٨ (٢) ن . م والصفحة

(٣) ابن الجوزى / صفة الصفوة جـ ١ ص ٢٤٣ وابن كثير البداية والنهاية جـ ٧ ص ١٦٥ .

(٤) ابن حنبل / الزهد ص ١٤٨ .

وانتقل أبو ذر من أرض الشام إلى الربذة عن طواعية مستجيبا لأولى الأمر كما أوصاه النبى صلوات الله عليه ، لأن الصحابى الزاهد كان قد أجاب عن السؤال الذى مر بنا فى بداية حديثنا عن الأمراء الذين يستأثرون بالفيء بقوله « إذا والذى بعثك بالحق أضرب بسيفى حتى ألحق به »(١) .

ولكن الرسول ﷺ أرشده إلى ما هو خير من ذلك ، قال له « أصبر حتى تلقانى »(٢) .

لقد صبر أبو ذر ولم يضرب بسيفه ، واكتفى بأن يضرب المثل الأعلى فى تطبيق المبادئ التى يعتنقها ، فأعطى ثوبه الزيادة لمن هو أحوج منه(٣) . وظل يتقشف فى معيشته حتى عاتبته زوجته للضيق الذى يأخذ نفسه وأسرته به ، فأجابها « يا أم ذر ، إن بين أيدينا عقبة كؤود وإن المخف فيها أهون من المثقل »(٤) . وهى العبارة التى يردد معناها صاحبه وأخوه أبو الدرداء . ولما كان قوته على عهد الرسول ﷺ صاعا من تمر ، اكتفى بهذا المقدار متعهداً ألا يزيد حتى يلقى ربه(٥) .

ووهب أبو ذر نفسه للدعوة إلى المحافظة على الحال التى تركه عليها الرسول ، ﷺ حاثاً المسلمين على اتباع الحياة التى ينبغى أن يحيوها ، فهو الناصح الشفيق عليهم « يا أيها الناس ، إنى لكم ناصح ، إنى عليكم شفيق . صلوا فى ظلمة الليل لوحشة القبور ، وصوموا الدنيا لحر يوم النشر ، وتصدقوا مخافة يوم عسير »(٦) .

وعندما أحس بدنو الأجل ، لم تجد زوجته كفنا له ، فاستبشر خيرا بقول الرسول « ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض تشهده عصابة من المؤمنين » وود لو كان هو المقصود بالحديث .

وبكت امرأته لافتقادها الثوب الذى يسعه كفنا . وأطلت على الطريق لعلها تعثر على من يكفن زوجها ، ولما أبصرت ببعض المارة من بعيد ، ألاحت بثوبها فأقدموا عليها .

وكفنه فتى معهم من الأنصار فى ردائه الذى عليه وفى ثوبين من غزل أمه .

(١) ابن سعد / جـ ٤ ص ٢٢٦
(٢ و ٣) ابن سعد / الطبقات جـ ٤ ص ٢٢٦ و ص ٢٣٥
(٤) ابن حنبل / الزهد ص ١٤٨
(٥) ابن عبد البر / الاستيعاب ق ١ ص ٢٥٦
(٦) ابن حنبل / الزهد ص ١٤٨

ومات أبو ذر ، وكأنه أبى — بعد مماته أيضا — إلا أن ينفرد بخصائص تتحقق له دون غيره من الصحابة . فقد أوصى امرأته وغلامه أن يغسلانه ويضعانه على قارعة الطريق . وفعلا ، تم له ما أراد .

وحين أقبل عبد الله بن مسعود فى رهط من أهل العراق ، وعرفوا أبا ذر ، أعانوا الغلام على دفن صاحب رسول الله ﷺ . وأجهش ابن مسعود بالبكاء مخاطبا إياه « أخى وخليلى . عاش وحده ، ومات وحده ، ويبعث وحده ، طوبى له »[١] .

## ٧ — سلمان الفارسى رضى الله عنه ٣١ / ٣٢هـ =٦٥١/٦٥٢م ) :

تنازعه أهل السنة ، كما تنازعه الشيعة بالحديث « سلمان منا أهل البيت »[٢] . إلا أن الرواية السنية تتفق مع الشيعية من حيث بحثه الطويل قبل إسلامه عن العقيدة الصحيحة ، ومحاولاته العديدة السابقة فى سبيل الوصول إلى رسول الله ﷺ .

كان فارسيا من أهل أصبهان ، واجتهد فى صباه فى المجوسية حتى ليحرص على بقاء النار موقدة لا يتركها تخبو .. ثم مر بكنيسة من كنائس النصارى ومال إلى النصرانية . ولم يفتر عن البحث عن الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام حتى عثر عليها واستدل عليها بواسطة المبعوث بها محمد ﷺ ، وبعد أن تأكد من العلامات التى تنبىء به فهو « يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة ، وبين كتفيه خاتم النبوة »[٣] .

أعانه الرسول ﷺ على فك الرق عنه ، ويورد صاحب « الطبقات الكبرى » وقائع فك أسره بناء على طلب النبى ﷺ الذى أعانه بمثل البيضة من ذهب ، فأعتق بعد ما أدى المال المستحق عليه ، ثم شارك المسلمين فى موقعة الخندق[٤] ، وآخى الرسول بينه وبين أبى الدرداء رضى الله عنهما[٥] .

وقد حاول المستشرق الفرنسى كعادته أن يبين أثر العقائد السابقة على

---

(١) الاستيعاب ١ ص ٢٥٣ .

(٢) كما ورد هذا الحديث أيضا على لسان على بن أبى طالب « الاستيعاب ق ٢ ص ٦٣٦ » .

(٣) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٧٣ حتى ص ٧٦ ط بولاق ١٢٩٥ هـ

(٤) ابن سعد / الطبقات جـ ٧ ص ٣١٨ (٥) ابن الجوزى / صفة جـ ١ ص ٢١٦

شخصية سلمان رضى الله عنه ولكن ينبغى القول هنا أن مصادر أهل السنة لا تنكر أنه اطلع على الكتب السابقة على القرآن ، فإن ابن عبد البر يذكر أنه « قرأ الكتب وصبر فى ذلك على مشقات نالته ، وذلك كله مذكور فى خبر إسلامه »[1] ، وقد وصف سلمان بأنه صاحب الكتابين : الإنجيل والفرقان[2] .

إلا أن سلمان الصحابى الكبير ، كان فى الظروف الدينية والاجتماعية والسياسية التى لم يكن هناك فيه صوت إلا صوت النبى ﷺ ، ولا كتاب إلا كتاب المسلمين الأوحد ، فإن القول بأنه تأثر بالديانات السابقة — بحيث طغى هذا التأثير على عقيدته الجديدة — يحتاج إلى دليل حاسم .

لقد كان موقف سلمان المؤيد للإسلام قاطعا بدخوله فى عقيدة الإسلام أولاً . ثم إخلاصه للدعوة فى مشورته التى كانت سببا من أسباب الانتصار فى غزوة الخندق . فهو الذى أشار بحفر الخندق اتباعا للطرق التى ألفها قومه ، لقد استخدم خبرته فى نصرة الإسلام ، وأفرغ جهده بعد ذلك فاشترك فى المعارك جنبا إلى جنب مع المسلمين ، ولم تفته إلا بدرا أو أحد[3] .

أما موضوع زهده — إلى جانب علمه — فقد أثبته من واقع حياته كلها بما فى ذلك الفترة التى قضاها أميرا للمدائن حيث قدر عطائه عنها بما بين أربعة وخمسة آلاف ، فكان يتصدق به كله ويأكل من عمل يده[4] .

وأثار دهشة المسلمين لأنه ظل يعمل بينما هو أمير للمدائن ، فلما راجعه بعضهم فى ذلك ، أجابهم بأنه يحب أن يأكل من عمل يديه .

وقد ظل بدون بيت يأوى إليه مدة طويلة كان خلالها يستظل بالشجر ، ولما ألح عليه أحدهم بأن يبنى له بيتا ، استفسر عن شكله فأجابه الرجل « أبنيه إن قمت فيه أصلب رأسك ، وإن اضطجعت فيه أصلب رجليك » . فلما رأى سلمان منزلا بهذه المواصفات وافقه على بنائه .

وكانت له عباءة واحدة يفترشها ويلبسها أيضا .

وكان رسول الله ﷺ قد آخى بينه وبين أبى الدرداء رضى الله عنهما لتشابههما

(١) ابن عبد البر / الاستيعاب ق ٢ ص ٦٣٤ . (٢) ن . م ٦٣٦ .

(٣) ابن سعد / الطبقات جـ ٧ ص ٣١٨ . (٤) الاستيعاب ق ٢ ص ٦٣٥ وصفة ج ١ ص ٢١٨ .

فى العلم والزهد[1] ولكن يبدو أنه كان يفوق أحاد . فقد علم مرة أن أبا الدرداء يصوم الدهر ويقوم الليل ، فأبدى اعتراضه على هذا السلوك ، وذهب بنفسه إليه مبينا له الساعات التى ينبغى أن يقومها ليلا ، وأرغمه على الإفطار فى يوم صيامه ناصحا له « إن لنفسك عليك حقا ولربك عليك حقا وإن لضيفك عليك حقا وأن لأهلك عليك حقا فأعط كل ذى حق حقه »[2] .

ثم اتضح أن منهج سلمان فى العبادة أكثر صوابا حين ذهبا إلى الرسول ﷺ يحتكمان فأقر سلمان على ما فعله .

أن هذا الصحابى الزاهد سلك الطريق الإسلامى ؛ وسار على السنة ـــ سنة النبى ﷺ . أنه لم يترهب بدعوى التأثر بالنصرانية ، بل حدث العكس ، عارض أبى الدرداء فى إهماله لزوجته لدوامه القيام والصيام . ولا شك أن الدافع كان تأثير الدين الجديد ـــ الإسلام ـــ وأنه لم يعد هناك أثر لمانويته أو نصرانيته القديمتين فى نفسه .

كان للإسلام إذن التأثير الحاسم والنهائى فى شخصيته ، فلم يمنعه العلم الأول أن يتبع العلم الآخر ، وهو تعاليم القرآن وسنة الرسول صلوات الله عليه .

ولذا كان على بن أبى طالب يصفه بأنه العلم الأول والآخر تعبيرا عن إحاطته بهما معا .

وتوفى سلمان فى خلافة عثمان بالمدائن[3] فلم يشهد المنازعات التى دبت بين المسلمين منذ استشهاد الخليفة الثالث رضى الله عنه .

* * *

هذه هى حياة الوجدان التى اتضحت معالمها عند الصحابة ، والتى ساروا فيها على طريق النبوة كنماذج تحتذى على مر العصور والأزمنة .

ويرى ابن تيمية أن العلم المشروع والنسك المشروع مأخوذ عنهم ، « وكذلك من بنى الإرادة والعبادة والعمل والسماع المتعلق بأصول الأعمال وفروعها من الأحوال

(١) المكى / قوت القلوب جـ ٤ ص ١٤٨

(٢) الاستيعاب ق ٢ ص ٦٣٧ وصفة جـ ١ من ٢١٦ والشاطبى / الاعتصام جـ ١ ص ٢٦ / ٢٧

(٣) ابن سعد / الطبقات جـ ٧ ص ٣١٩

القلبية والأعمال البدنية . على الإيمان والسنة والهدى الذى كان عليه محمد ﷺ وأصحابه فقد أصاب طريق النبوة . وهذه طريق أئمة الهدى »[1] .

ويذهب أيضا إلى أن علم النبوة — من الإيمان والقرآن — وما يتبعه من الفقه والحديث وأعمال القلوب قد خرج من الأمصار : المدينة ومكة والكوفة والبصرة والشام[2] وسائر الأمصار تبع .

لذلك فإننا سنلقى نظرة على هذه الأمصار تباعاً بادئين بالمدينة لنستطلع أحوالها ونظرات المسلمين فيها للحياة والعالم من حولهم .

---

(١) ابن تيمية / السلوك ص ٣٦٣ .

(٢) ن . م ٣٦١

## أولا : المدينة

ظلت المدينة كما نعلم مقرا للخلفاء الراشدين الثلاثة الأول رضى الله عنهم ، وعاصمة للمسلمين ، ثم تغيرت الأحوال والظروف السياسية لها بعد مقتل عثمان بن عفان رضى الله عنه .

وكانت المدينة بعيدة عن التحولات السياسية البعيدة الأثر ، وبالتالى نأت بشيوخها عن الخوض فى الخلافات الناشبة بين المسلمين ، وكان عبد الله ابن عمر ، رضى الله عنهما أصدق مثال على تفضيل الحياة العلمية الهادئة ، بغية الدراسة والبحث بعيدا عن صخب المعارك وصليل السيوف .

وارتفعت المكانة الدينية للمدينة بصفة خاصة ، لا لأنها كانت مقرا لمعظم الصحابة فاجتذبت إليها كل متعطش للمعرفة فحسب — كما يذهب إلى ذلك المستشرق ساخاو[1] — ولكنها أيضا اتسمت إلى جانب بعدها عن الفتن كما قلنا ، بخلوها من ظهور الأفكار والاتجاهات الغريبة ، أو ما اصطلح عليه بالبدع ، بشكل صريح لأن معتنقى هذه البدع أضمروها خشية الذم والقهر « بخلاف التشيع والإرجاء بالكوفة والاعتزال وبدع النساك بالبصرة ، والنصب بالشام ، فإنه كان ظاهرا »[2] .

كذلك ابتعد الزهد الغالى والتصوف المشبوه عن المدينة بسبب كونها موطن الصحابة رضى الله عنهم .

والمدينة حياتها المعبرة عن القيم الإسلامية الرفيعة التى تتمثل فى أبرز الأئمة ، منهم الصحابى عبد الله بن عمر والتابعى سعيد بن المسيب إلى جانب على بن

---

(١) ساخاو — تطور الرواية التاريخية عند العزب ومنزلة ابن سعد من ذلك « بحث بمقدمة الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٣ قسم ١ ص ٤ طبعة « كتاب التحرير » .

(٢) ابن تيمية / مذهب أهل المدينة ص ٢٣

الحسين ، رضى الله عنهما .

ولئن كان تناولنا لموضوع الزهد بالمدينة سيقتصر على الأولين إلا أننا لا نغمض الثالث حقه ، فمن المعروف أنه أضفى على المدينة طابع الحزن ، وهو القائل « من ضحك ضحكة مج مجة من العلم »[1] ، وهو الذى كان يطوف حاملا جرابه على ظهره يوزع الصدقات فى الظلمات لأن « صدقة الليل تطفىء غضب الرب عز وجل »[2] ، إلا أننا نتقيد بموضوع بحثنا ، إذ أن دراسة حياة الزهد عند على ابن الحسين رضى الله عنهما يتصل بشكل أوسع بالتصوف عند الشيعة ، وكان حزنهم بعد مقتل الحسين له لونه الخاص المستمد من هذه الحادثة الأليمة .

## ١ ــ عبد الله بن عمر ( رضى الله عنهما )

اشتهرت المدينة بعبد الله بن عمر كأحد عبادها وزهادها المرموقين بين جيله من رجال الصحابة ، والحق أن مكانته لم تكن مستمدة من صيت أبيه عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ولكن من مقومات شخصيته التى تفرد بها بين غيره من الصحابة المقيمين بالمدينة ، فإذا « رآه إنسان ظن أن به شيئا من اتباعه آثار رسول الله ﷺ »[3] أى أنه حمل معه هذه الحياة التى تذكر المسلمين بنبيهم صلوات الله عليه ، لا سيما وأنه حافظ على ملامح تلك الحياة الأولى التى افتقدها المسلمون بعد وفاة الرسول ﷺ .

كانت السيدة عائشة تصفه بقولها « ما رأيت أحداً أشبه بأصحاب رسول الله ﷺ الذين دفنوا فى الثمار من عبد الله بن عمر » [4] .

عاصر عبد الله بن عمر فترة زمنية اشتد فيها الخلاف بين المسلمين ، سواء بين على ومعاوية ــ رضى الله عنهما ــ أو بين الخوارج وبين السلطات الحاكمة ولم يشترك فيها . كذلك لم يشترك مع عبد الله بن الزبير فى ثورته ضد بنى أمية ، كما لم يؤيد الحجاج فى عتوه وجبروته .

---

(١) ابن حنبل / الزهد ص ١٦٦ . (٢) ن م ١١٦ .

(٣) ابن حنبل / الزهد ص ١٩١ .

(٤) ابن حنبل / الزهد ص ١٩٤ .

( الثمار ) جمع نمرة ، وهى الشملة . تريد فقراء المهاجرين الذين ماتوا فدفنوا فى نمارهم وشملهم .

ومن المناسب أن نعرض لسبب إعراضه عن الاشتراك فى هذه الحروب والثورات على اختلاف أسبابها وتعدد المشتركين فيها .

يذكر ابن سعد أن عثمان بن عفان رضى الله عنه عرض عليه القضاء فأبى . وهذه واقعة نلمح فيها عزوف ابن عمر عن المشاركة فى الحياة العامة ، وكان له سبب يستند إليه فى هذا ، إذ لما ألح عليه عثمان لقبول القضاء مذكرا إياه بأن أباه كان يقضى ، قال عبد الله « إن أبى كان يقضى ، فإذا أشكل عليه شىء سأل النبى ﷺ ، وإذا أشكل على النبى سأل جبريل ، وإنى لا أجد من أسأل » [1] .

إنه إذن فضل اتخاذ هذا الموقف منذ بداية حياته . ولما بدأت الانشقاقات تظهر بين المسلمين ، أفصح عن مسلكه الذى ظل ملتزما به فقال « لا أقاتل فى الفتنة ، وأصلى وراء من غلب » [2] .

ويبدو أنه فى أواخر أيامه أعاد النظر فى المسألة . ولئن لم يندم لأنه كف يده إلا أنه يصرح بأن المقاتل على الحق أفضل[3] . فإذا تساءلنا : هل يقصد بالقتال على الحق عليًا وأتباعه ؟

إن لدينا من النصوص ما يرجح هذا الاستنتاج ، لأنه لما سمع معاوية ـــ رضى الله عنه ـــ يتساءل عمن أحق بالخلافة منه ، أجاب ابن عمر « فأردت أن أقول أحق منك من ضربك وأباك عليه ، ثم ذكرت ما فى الجنان فخشيت أن يكون فى ذلك فساد »[4] .

ولكنه ، مع هذا ، لم ينخرط فى سلك على بن أبى طالب ـــ رضى الله عنه ـــ لأنه نظر مليا فى الأمر ، ثم تبين له أن المتحاربين فى الحقيقة هم « فتيان قريش يتقاتلون على هذا السلطان ، وعلى هذه الدنيا »[5] .

وفى مجال المعارضة السياسية ، جاهر برأيه ولم يبايع ليزيد بن معاوية ، ورد الأموال التى بعث بها إليه معاوية لهذا الغرض ، لأنه فهم أنها تهدف إلى استمالته . قال « أرى ذاك أراد ، إن دينى عندى إذن لرخيص !! »[6]، ثم لما علم بيعة معاوية لابنه

---

(١) ابن سعد / الطبقات جـ ٤ ص ١٤٦ .
(٢) ن . م ١٤٩ .
(٣) ابن سعد / الطبقات جـ ٤ ص ١٦٤ .
(٤) ن . م ١٨٢ .
(٥) ن . م ١٧٢
(٦) ن . م ١٨٢ .

يزيد ، علق على ذلك بقوله « إن كان خيرا رضينا وإن كان بلاء صبرنا »[1] .

ومن هذه العبارة الموجزة ، تنبثق نظرية أهل السنة والجماعة فى الإمامة ـــ أو الخلافة ـــ على اختلاف العصور ، بل إنا إذا تتبعنا الفكرة لوجدناها تلقى صدى عند الحسن البصرى ، فقد ذهب إلى نفس الرأى وأصبح بذلك خصما لدودا للخوارج .

ومع هذا ، فإننا نعثر له على عبارة غريبة قالها فى مرضه الذى مات فيه ، إذ أعلن « ما أجدنى آسى على شيء من أمر الدنيا إلا أنى لم أقاتل الفئة الباغية »[2] . والفئة الباغية تعنى عنده بلا شك حزب بنى أمية الذى حارب عليا رضى الله عنه .

إن موقفه إذن فى البداية كان بسبب صعوبة تكوين رأى قاطع ـــ حسبما رأى ، فضلا عن خشية نتائج الفتن . ثم عندما ظهرت المشاكل واتضحت جوانبها عاد عن رأيه الأول ـــ وهو موقف نستطيع أن ندحض به نظرية انبثاق حركة الزهد من الحروب ، لأن هذا الصحابى لم يكن زهده ناجما عن ابتعاده عن المعترك السياسى ؛ بل إننا نراه ينشط لمعارضة الحجاج ، تنفيذا للمبدأ العام الذى يعتنقه المسلمون جميعا ـــ وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ـــ وعليهم واجب تنفيذه كلّ بقدر استطاعته .

ووقف ابن عمر بالمرصاد للحجاج بسبب ما اشتهر به من تأخير الصلاة . وحدث مرة أن الحجاج كان يخطب فى موعد الصلاة ، فقام عبد الله صائحا فيه « أيها الرجل .. الصلاة فاقعد ! » ثم كرر الصيحة بهذا النداء ثلاث مرات . وفى الرابعة ، استحث المصلين على القيام للصلاة فقاموا ، مما اضطر الحجاج لقطع خطبته وإقامة الصلاة .

وعندما انتهى ، استدعاه مستفسرا عن سبب ما حدث فقال ابن عمر « إنما نجيء للصلاة ، فإذا أحضرت الصلاة فصل ، فالصلاة لوقتها ، ثم بقبق بعد ذلك ما شئت من بقبقة »[3] .

---

(١) ن . م والصفحة .
(٢) ن .م ١٨٥ و ١٨٧ .
(٣) ابن سعد / الطبقات جـ ٤ ص ١٥٩ .

وتكررت مصادماته مع الحجاج ، عندما اتهم الحجاج ابن الزبير بتحريف كتاب الله ، فقام ابن عمر يقول « كذبت ! كذبت ! كذبت ! ما يستطيع ذلك ولا أنت معه ! »[1] .

وصمم على معاندة أمير بنى أمية حتى نهاية حياته ، ولم يكلمه عندما طلب منه أن يفصح عمن تسبب فى إصابته ، وظل صامتا ، فخرج الحجاج من زيارته غاضبا وهو يقول « إن هذا يزعم أنه يريد أن نأخذ بالعهد الأول »[2] .

أجل ، أن ابن عمر رضى الله عنهما ــ كان يريد استمرار حياة وقيم العهد الأول رغم أنف الحجاج وأمثاله . ومن جانب آخر لم تكن عزلة ابن عمر بسبب الزهد السلبى ، لأننا كما رأيناه يتفاعل مع الحياة الاجتماعية والسياسية ، فيما عدا الاشتراك فى القتال . كما كان يصلى مع ابن الزبير والخوارج والخشبية ــ وهى إحدى فرق الشيعة من الزيدية ــ لا يفرق بين أحد منهم لأنه يرى أن من نادى بنداء الصلاة أجابه . أما من قال « حى على قتل أخيك المسلم وأخذ ماله قلت : لا »[3]

وتصبح العزلة هنا ، إما تصرف استثنائى لا يستند إلى أساس نظرى ، وإما كنوع من تهيئة الظروف للتأمل والفكر بعد الانسلاخ من مشاغل الحياة اليومية فيقول « خذوا بحظكم من العزلة »[4] .

وكان ابن عمر يسمع الآيات القرآنية فيخر لها خاشعا باكيا ، وإذا ما قرأها أيضا انفعل بمعانيها . قرأ مرة ﴿ **ويل للمطففين** ﴾ حتى بلغ ﴿ **يوم يقوم الناس لرب العالمين** ﴾ فبكى حتى خر وامتنع عن قراءة ما بعده[5]

ولاحظ مولى ابن عمر أنه ما من مرة يقرأ فيها الآيات الأخيرة من سورة البقرة لا سيما ﴿ **إن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه** .. ﴾ إلا بكى ، ثم يعلق على معناها بقوله « إن هذا لإحصاء شديد !! »[6] .

ولكنه انتقد مظاهر الغلو فى البكاء . فإذا ما مر برجل من أهل العراق خر

---

(1) ابن سعد / الطبقات جـ ٤ ص ١٨٤ .
(2) ن . م ١٨٦ .
(3) ن . م ١٦٩ / ١٧٠ .
(4) ن . م ١٦١ .
(5) ابن حنبل / كتاب الزهد ص ١٩٢ .
(6) ابن حنبل / كتاب الزهد ص ١٩٢ .

ساقطا بعد سماعه للقرآن ، تعجب عن حالته إذ قال « إنا لنخشى الله وما نسقط »[1] .

ومن العجب أن نظرته إلى المال لم تتسم بالحرج ، فلم يخش الإكثار من المال « ما أبالى لو أن لى مثل أحد ذهبا ، أعرف عدده ، وأؤدى زكاته »[2].

وربما تتصل هذه النظرة بالموقف السابق الذى لاحظ فيه المغالاة والتظاهر فى الخشية والحزن ، فمن المحتمل أنه رأى البعض يحرم على نفسه كسب المال الكثير ، فوقف فى الطرف المقابل لكى يوضح نظرة الإسلام الصحيحة إلى المال الذى يؤدى عنه حق الزكاة .

وقد يكون هذا مجرد رأى لم يتحقق لأنه هو نفسه كان « يمكث الشهر لا يذوق فيه مزعة لحم ! »[3].

## ٢ ــ سعيد بن المسيب

يعد ابن المسيب من كبار التابعين بالمدينة ، بل لقد وصفه الإمام أحمد بأنه أفضل التابعين[4] ، ولا غرو فإن الأحاديث المرسلة لابن المسيب يعتبرها ابن حنبل صحيحة من فرط الثقة فيه ، لأنه كان يسير الليالى والأيام فى طلب الحديث الواحد[5] لحرصه على تتبع العلم النبوى واحترام مكانته ، إذ عندما سئل عن حديث نبوى ــ وكان مضطجعا لمرضه ــ اعتدل جالسا وحدث بالحديث كارها أن يحدث أثناء اضطجاعه[6] .

صحب ابن عمر وكان الاثنان من العلامات البارزة للمدينة فى تحقيق الحياة الإسلامية المطابقة لعصر الصحابة وقال يوم موته « مات ابن عمر يوم مات ، وما من الدنيا أحد أحب أن ألقى الله بمثل عمله منه »[7] .

ويبدو أنه حاول السير على نهج ابن عمر رضى الله عنهما الذى عرف بإنفاقه المال فى سبيل الله وقيامه أكثر الليل حتى وصف بأنه يوازى أبيه فى الفضل[8] .

(١) ن . م ١٩٣ . (٢) . م ١٩٥ .
(٣) ن . م ١٩٢ . (٤) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ١٠٠ .
(٥) ابن سعد / الطبقات الكبرى جـ ٥ ص ١٢٠ . (٦) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ١٠٠ .
(٧ ، ٨) ن . م ١٠٤ .

ولئن كان ابن المسيب ملازما للمسجد . محافظا على صلاة الجماعة خاصة أيام الحرة ، حتى أتهم بالجنون لأنه حينذاك كان يصلى وحده بالمسجد . إلا أنه كثيرا ما اصطدم برجال الحكم فى عصره ، فقد ضربه مرة عامل عبد الله ابن الزبير حين رفض البيعة له . كذلك كانت الخصومة شديدة بينه وبين حكام بنى مروان ، فرفض أن يزوج ابنته للوليد بن عبد الملك وزوجها لآخر على درهمين !! . ولهذا احتالوا عليه بدعوى رفضه البيعة وضربوه بالسياط ، وهددوه بالسيف ، فظل متمسكا بموقفه لأنه رأى أنه لو أجابهم لوقع فى خزى الدنيا والآخرة[1] .

وكان سعيد يعمل فى التجارة ، ويلبس البسيط من الثياب ، ولا يتزين إلا فى العيدين . وقد رفض أخذ العطاء ونظر إلى المال كوسيلة لصون وجهه عن بنى مروان ، وليصل رحمه ، ويؤدى منه الحقوق ، ويعود منه على الأرملة والفقير والمسكين واليتيم والجار[2] .

ومع معارضته القوية لأهل السلطة ، فإنه لم ينهج سبيل الخوارج بل اكتفى بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وسار فى الشوط إلى آخر مداه ، دون أن يلقى بالا لصنوف التعذيب والتنكيل . فإنه بالرغم من جلده مائة جلدة[3] بسبب رفضه البيعة كما قدمنا ، إلا أن نفسه كانت عنده أهون عليه فى ذات الله من نفس ذبابة[4] ، فكان يحض على الانخراط فى سلك الجماعة ويرى « أن الشيطان مع الشاذ ، وهو مع الاثنين أبعد »[5] ، ويغذى المسلمين بأفكار المقاومة السلبية للسلطة الغاشمة فيسمى أعوانهم « أعوان الظلمة »[6] . وينصح بألا يملؤوا أعينهم منهم بما يحمل معنى الازدراء والمقاطعة ، وكأنه بهذه الطريقة يؤدى إلى تضييق الخناق على بنى مروان ، فتضعف شوكتهم إذا ما انفض عنهم الأعوان .

وكان سعيد بن المسيب يبث آراءه الفقهية كلما استفتاه المسلمون ، فقد أحب العلم ، وكان يعظم من شأن المقبلين عليه « فإذا مر بالمكتب قال للصبيان : هؤلا الناس بعدنا »[7] .

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ص ١٠١ .
(٢) ن . م والصفحة .
(٣) ابن حنبل / كتاب الزهد ص ٣٨٣ .
(٤) ن . م والصفحة .
(٥) ابن سعد / الطبقات جـ ٥ ص ١٣١ .
(٦) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ١٠٠ .
(٧) ابن سعد / الطبقات جـ ٥ ص ١٤١ .

وربما رأى بداية مظاهر الغلو فى العبادات بمجتمع المدينة ، فصرّح بأن العبادة الحقيقية عنده ليست بكثرة الصلاة والصيام « إنما العبادة التفكر فى أمر الله والورع عن محارم الله »[1] .

ويحث ابن المسيب المسلمين على البحث عن العزة الحقيقية فى العبودية لله[2] ، مفضلا العزلة التى تتيح فرصة التفكر والتأمل ، فهى نوع من العبادة[3] .

وقد وضع هذا التابعى الكبير الشخصية الإنسانية فى إطارها الواقعى الصحيح بفضائلها وعيوبها ، فإنه « ليس من شريف ، ولا عالم ، ولا ذى فضل إلا وفيه عيب .. ومن كان فضله أكثر من نقصه ، وهب نقصه لفضله »[4] .

---

(١) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ٦٢ .

(٢) ن . م ١٠٠ .

(٣) ابن حنبل / الزهد ص ٣٨٣ .

(٤) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ١٠٠ .

## ثانيا ــ مكة المكرمة

### ١ ــ مجاهد بن جبير ( ١٠٣ هـ ــ ٧٢١ م ) :

يضعه ابن سعد فى مصاف الطبقة الثانية بمن روى عن عمر وغيره من أهل مكة ، وكان أحد أئمة التابعين والمفسرين وأعلم أهل زمانه بالتفسير ، لأنه من أخصاء أصحاب ابن عباس[1] ، وقد عرض القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة[2].

وقد نقل لنا ابن كثير تفسيراته القرآنية عن القيم الإسلامية التى حام حولها الزهاد واستندوا عليها فى آرائهم ومذاهبهم ــ ففسر النعيم فى الدنيا ، والنعم الظاهرة والباطنة ، والتوبة ، والخشوع ، والرهبة . وتحدث عن النفس المطمئنة .

ونلمح فى سلوكه الحزن والهم ، فوصف بأنه مثل الخربيذخ أضل حماره فهو مهتم )[3] .

فسر قوله تعالى ﴿ **يامريم اقنتى لربك** ﴾ قال : « أطلبى الركود »[4] أما معنى النعيم فى الآية ﴿ **ثم لتسألن يومئذ عن النعيم** ﴾ **فهو** كل لذة فى الدنيا[5] .

وفى الآية الأخرى ﴿ **وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة** ﴾ ، التى نصت على فكرتى الظاهر والباطن التى يتمسك بها أهل التصوف ، ويؤلونها تأويلا يخرجها عن معناها ، فإن مجاهدا أوضح معنى النعم الظاهرة بأنها : الإسلام والقرآن والرسول ﷺ ، والرزق . والمقصود بالنعمة الباطنة : فهى ما ستر من العيوب والذنوب[6] .

أما ( القنوت ) فى قوله تعالى ﴿ **وقوموا لله قانتين** ﴾ فيعنى الركود والخشوع

---

(١) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ١٠٣ .
(٢) ابن سعد / الطبقات جـ ٥ ص ٤٦٦ .
(٣) ن . م ٤٦٧ وابن كثير جـ ٩ ص ٢٢٨ .
(٤) ابن كثير / البداية .. جـ ٩ ص ٢٢٤ .
(٥) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ٢٢٤ .
(٦) ن . م ٢٢٥ .

وغض البصر وخفض الجناح من رهبة الله[1] .

أما نظرية المراقبة لله ، فقد نقلها عنه سفيان بن عيينه ( ١٩٨ هـ = ٨١٣ م ) في قوله تعالى ﴿ **لايرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة** ﴾ .

قال : الإل : هو الله عز وجل .

وفى تفسيره للخوف فى الآية ﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان** ﴾ .

قال مجاهد : إن الخائف « هو الذى يذكر الله عند الهم بالمعاصى »[2]

وله حديث طويل عن تأثر القلب بالمعاصى ، والصلة بينه وبينها فالقلب عنده بمنزلة الكف ، فإنه يرى أن الرجل إذا أذنب قبض قلبه كما يقبض الكف ، وهو ما تعنيه الآية فى قوله تعالى ﴿ **كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون** ﴾ .

وفى قول آخر ، إن الذنوب تحيط بالقلوب كما تقام الحائط فتزداد ارتفاعا . وعندما تقترن القلوب بالمحبة يقول « إن العبد إذا أقبل على الله بقلبه ، أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه »[3] .

وتجذبه الآية التى تتحدث عن النفس المطمئنة ، فهى عنده النفس التى أيقنت أن الله ربها ، وخضعت لأمره ، وعملت على طاعته[4] .

ويبدو أن حال المسلمين قد تغير فى عصره مما أدهشه فأخذ يصيح فى المسلمين بمكة « ذهب العلماء فما بقى إلا المتعلمون ، وما المجتهد فيكم إلا كاللاعب فيمن كان قبلكم »[5] .

ومن العجب أننا نقرأ له ما يشبه التفسير الرمزى الذى لا يتقيد فيه بشرح النص ، وإنما يعبر عنه بمعنى جديد . ففى قوله تعالى ﴿ **وثيابك فطهر** ﴾ يذهب إلى تفسيرها بمعنى ( عملك فأصلح ) . وليس الفضل الذى تشير إليه الآية ﴿ **واسألوا الله من فضله** ﴾ الفضل فى الدنيا والآخرة معا ولكنه يقتصر فقط على الثانية فإنه « ليس من عرض الدنيا »[6] .

---

(١ ، ٢) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ٢٢٧ . (٣) ن . م ص ٢٢٨

(٤) ن . م والصفحة . (٥) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ٢٢٨ .

(٦) ن . م والصفحة .

وهو يغذى واجبات العبادة بالآيات القرآنية ، مؤكدا ضرورة عبادة الله مهما كانت العوائق ، أو الشواغل بأمور الدنيا . ويضرب لذلك مثلا بثلاثة : الغنى والعبد والمريض والمملوك .

فإذا ما اعتذر الغنى بكثرة أمواله التى شغلته عن العبادة ، ذكره الله تعالى بسليمان عليه السلام ، الذى كان أكثر مالا ، ولكنه لم ينشغل عن عبادة ربه .

أما العبد الذى يحاول أن يبرر ترك العبادة بسبب أربابه الذين ملكوه وشغلوه عن العبادة ، فلا يلبث أن تدحض حجته عندما يذكر بيوسف عليه السلام ، الذى كان أشد منه رقا وعبودية .

ويؤتى بالمريض ، فيسأل عن سبب انصرافه عن العبادة ، فيبرره بالمرض فيضرب الله المثل بأيوب عليه السلام الذى كان أشد ضرا وبلاء ومرضاً وكان يعبد ربه .

وهكذا يؤكد مجاهد ضرورة العبادة التى لم يخلق الإنسان إلا لها[1] وكانت نهاية حياته وكأنها تؤكد اقتران النظر بالعمل ، فقد مات مجاهد وهو ساجد !![2] .

أما رأيه فى الفقهاء ، فإنه يكاد يتشابه مع رأى الحسن البصرى فبينما يرى الثانى أن الفقيه الحق هو الزاهد ، يأتى التعريف للفقيه على لسان مجاهد بقوله « الفقيه من يخاف الله وإن قل علمه ، والجاهل من عصى الله وإن كثر علمه »[3] . وها هو يتجه — مثلما فعل الحسن — إلى التعبير بالمضمون الداخلى دون مراعاة اصطلح عليه فى الظاهر .

وكان أثناء حياته يصطحب ابن عمر لإعجابه به حيث يرى أنه شابه أباه فى الفضل فيقول « صحبت ابن عمر وأنا أريد أخدمه فكان يخدمنى »[4] .

## ٢ — عطاء بن أبى رباح ( ١٤ هـ = ٧٣٢ م ) :

ولمجاهد زميل ثان فى التفسير هو عطاء بن أبى رباح ، فإذا انضم إليهم زميل

---

(١) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ٣٢٦ . (٢) ابن سعد / الطبقات الكبرى جـ ٥ ص ٤٦٧ .
(٣) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ٣٢٦ . (٤) ن . م ٢٢٦ .

ثالث هو طاووس ، أصبح هؤلاء الثلاثة هم الوحيدون الذين وصفوا بأنهم يريدون بالعلم وجه الله وحده[1] .

كان عطاء مفتياً ينفرد عن باقى المفتين لأنه « كان فى مجلسه ذكر الله لا يفتر ، وهم يخوضون ، فإن تكلم أو سئل عن شيء أحسن الجواب »[2] .

ولا يقتصر الذكر هنا عن الأداء باللسان فحسب ، لأنه يرى أن ذكر الله أشمل وأعم من هذه الدائرة الضيقة ، فإن مجلس الذكر يعنى عنده « مجالس الحلال والحرام ، كيف تصلى ؟. كيف تصوم ؟ ، كيف تنكح وتتطلق وتبيع وتشترى ؟ »[3] . فليس إذن هو الذكر باللفظ المفرد ( الله .. الله ) الذى جعله الغزالى فيما بعد أحد المسالك المؤدية إلى الكشف الصوفى !!

وروى عنه عدد كبير من التابعين من طبقة الزهرى ، وعمرو بن دينار والشيوخ الكبار مثل أيوب السختيانى وغيرهم ، أى أنه كان أيضاً من رواد الحياة الوجدانية ، لأنه أحاط فى آرائه بالمعانى الخاصة بأعمال القلوب .

نقل عنه الإمام أحمد بإسناده من وصفه « ما رأيت مثل عطاء قط ، وما رأيت على عطاء قميصاً قط ، ولا رأيت عليه ثوبا يساوى خمسة دراهم »[4] .

وأعجب الحسن البصرى عندما سمع قول عطاء « ما قال للعبد يارب ، يارب ثلاث مرات ، إلا نظر إليه الله » ووجد تأييداً لرأيه من واقع الآية ﴿ **ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا** ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ **فاستجاب لهم ربهم** ﴾[5] .

ويتفق عطاء فى تفسيره للذكر مع تفسير مجاهد الذى أوردناه آنفا فى قوله تعالى ﴿ **رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله** ﴾ .

فقد فسر الآية بأن التجارة لا تصرفهم عن أداء حقوق الله التى فرضها عليهم ، إذ يؤدونها فى أوقاتها .

---

(١) ابن سعد / الطبقات الكبرى جـ ٥ ص ٤٦٨ . (٢) ابن سعد / الطبقات الكبرى جـ ٥ ص ٤٦٩ .
(٣) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ٣٠٧ . (٤ ، ٥) ن . م والصفحة .

وكان يصرح بكراهيته لرؤية الوسادة فى منزله لأنها تدعوه إلى النوم[1] ، فهو يفضل القيام ، ولا يحب من يلبس ثوب الشهرة . ويبدو أنه رأى التوسع فى لباس الصوف فأنكره .

أما عن أخلاقياته ، فهو ينصح بالكف عن الحسد فيقول « ولا تغبطن ذا نعمة بما هو فيه ، فإنك لا تدرى إلى ماذا يصير بعد الموت »[2] .

ولما كان عطاء قد عاصر الفترة الحرجة فى التاريخ العقائدى والسياسى للمسلمين على أثر مقتل عثمان — رضى الله عنه — ، ذلك لأنه عقل مقتله[3] ، فقد نصح الأمة وأرشدها ، ولم يلبس لباس الزهاد المعتكفين بعيدا عن الأحداث .

وينقل لنا ابن كثير نضاله عن مذهب السلف حيث يقول ، وهو يطوف بالبيت ليعلن الموقف الصحيح من باقى الاتجاهات المنحرفة المعاصرة له ، « امسكوا ، احفظوا عنى خمس : القدر خيره وشره ، حلوه ومره من الله عز وجل ، وليس للعباد فيه مشيئة ولا تفويض . وأهل قبلتنا مؤمنون حرام دماؤهم وأموالهم إلا بحقها ، وقتال الفئة الباغية بالأيدى والنعال والسلاح ، والشهادة على الخوارج بالضلالة »[4] .

ولما انفجرت المشاكل التى أثارها الشيعة والخوارج والمعتزلة بالكوفة ، أدلى برأيه فيما دار من مسائل . فقد دار حوار بينه وبين الإمام أبى حنيفة النعمان ، عندما سأله الفقيه عن بعض المسائل ، ففضل أن يستفسر منه عن بلده أولاً ، ولما عرف أنه من الكوفة سأله :

« أنت من أهل القرية الذين فارقوا دينهم وكانوا شيعا ؟ » ، وعاد يسأل أبا حنيفة مرة أخرى عن الجماعة التى ينتمى إليها ، فأجابه « ممن لا يسب السلف ، ويؤمن بالقدر ، ولا يكفر أحدا من أهل القبلة بذنب » فارتاح لإجابته .

وليست هذه القصة من قبل التعصب الإقليمى الذى نعرفه بين أهل المدن ، لأن عطاء كان يعيب على أهل الكوفة حينذاك الاختلاف والفرقة ، ولكنه اطمأن

---

(١) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ٤٠٨ . (٢) ن . م ٣٠٩ .

(٣) ابن سعد / الطبقات الكبرى جـ ٥ ص ٤٦٨ . (٤) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ٣٠٨ .

عندما أعلن أبو حنيفة أنه يعتنق العقائد السليمة كما تلقاها من السلف ، فلم يعد يهتم بعدها من أى بلد هو ، بل قال له « عرفت فالزم »[1] .

وهذا يدعونا إلى الانتقال إلى مدرسة الكوفة ، لنستطلع آراء أئمتها ، لنرى كيف تمسكوا بالاتجاه السلفى ، ولم يخوضوا مع الخائضين .

---

(١) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ٣٠٧ .

## ثالثا : الكوفة

إذا ما قيل إن أهل البصرة مجتهدون فى العبادات والأحوال ، فإن المعروف أيضا أن جيرانهم أهل الكوفة اتسموا بالاجتهاد فى مسائل القضاء والإمارة (١) .

لهذا يقال « فقه كوفى ، وعبادة بصرية » لكى يعبر عن الصبغة الغالبة لكل من المدينتين (٢) .

ولكنا لا ندهش إذا تأملنا حكم ماسينيون الذى يشيد بالاتجاه الكوفى ، سواء فى الفقه أو الكتابة أو الأدب ، لأن هذا دأبه — وربما هناك كثيرون من المتصدين لدراسات الاستشراق غيره — يبحثون فى الاتجاهات التى تبعد كثيرا أو قليلا عن عقائد السلف الصالح .

أما مبعث دهشتنا الحقة ، فليست إشادة ماسينيون بالنزعات بالكوفة لأن أمرها مفهوم كما أسلفنا ، ولكن لأنه يصرح بأنه يعتمد عليها فى تأسيس أحكامه التى يشيد بها بالاتجاهات الكوفية ، مع أنه يقر بأن « المذهب الكوفى يبحث عن أوضاع الشواذ »(٣) !!

وربما كان مبعث الإشادة بالكوفة ، والحماس الزائد الذى لم يستطع ماسينيون إخفاءه عند حديثه عن هذه المدينة ، موطن البهاليل والصوفية كما يقول ، قد يرجع إلى محاولته البرهنة على أصالة شطحات الحلاج .

إنه يلح على محاولة إضفاء طابع الأصالة وإيجاد تلك المادة الموجدة للتصور والابتكار ، وصبغ المدينة بها حيث ظهر الحلاج « الذى فاق جميع النساك والزهاد الأسبقين »(٤) . وقد أثبتنا خطأ هذا الحكم الذى لايخلو من الهوى .

(١) ابن تيمية / رسالة الصوفية والفقراء ص ٢١ — ٢٢
(٢) ن . م ٩
(٣) ماسينيون / خطط الكوفة ص ١٣ .
(٤) ن . م ١٤ .

وقد طغى على ماسينيون هذا الاتجاه فاعتبر المذهب الكوفى منفردا بالإبداع فى التصور فى كافة الأدوار الثقافية العربية[1] . ومن الناحية السياسية ، يصف الكوفة بأنها كانت شرعية إلى أقصى درجاتها[2] متجاهلا الحقيقة التاريخية ، وهى أن الكوفة كانت مصدر الإرجاء « أى عدم اعتبار العمل من الإيمان خلافا لعقيدة السلف » والتشيع حيث انتشر منها إلى غيرها[3].

وكان ابن تيمية أكثر استقصاء فى بحثه عن الظروف الثقافية والسياسية للكوفة ، إذ فرق بين الكوفيين قبل مقتل عثمان وبعده .

وفى مجال مقارنته بين أهل المدينة والكوفة ، يسجل الوقائع التاريخية ، وتتلخص فى أن أهل الكوفة — قبل الفتنة — كانوا يقرون لأهل المدينة بالأفضلية « فلما قتل عثمان ، وتفرقت الأمة وصاروا شيعا ظهر من أهل الكوفة من يساوى بعلماء أهل الكوفة علماء أهل المدينة »[4] .

كذلك يذهب إلى أن أغلب الأحاديث المكذوبة ظهرت بالكوفة ، وكان مصدرها الشيعة بوجه خاص[5] . غير أن ذلك لا ينفى وجود الثقات الذين لا ريب فى صدقهم أمثال أصحاب عبد الله بن مسعود[6] .

وقد برز بالكوفة أئمة كبار أمثال : ، أويس القرنى ، وسعيد بن جبير ، ومسروق بن الأجدع ، وسفيان الثورى ، كما سيأتى :

## ١ — أويس القرنى :

يسميه الشاطبى « سيد العباد بعد الصحابة »[7] لما عرف عنه من كثرة العبادة .

ويصفه الذهبى بأنه « القدوة الزاهد سيد التابعين فى زمانه »[8].

---

(١) ن . م ١٣ .
(٢) ن . م ١٤ .
(٣) ابن تيمية / مذهب أهل المدينة ص ٢١ .
(٤) ابن تيمية / مذهب أهل المدينة ص ٣٠ .
(٥) ن . م ٣١ .
(٦) ن . م ٣٢ .
(٧) الشاطبى / الاعتصام جـ ١ ص ٢١ .
(٨) الذهبى / سير أعلام النبلاء مجلد ٤ ق ١ ورقة ١٣٥ مخطوط .

كما اشتهر القرنى بالزهد والعزلة ، ولما سئل عن السبب فى انقطاعه عن أصحابه أجاب بأنه ( العرى )[1] ، ولهذا كان ابن حنبل يضرب به المثل فى الزهد فيقول « لا زهد إلا زهد أويس ، بلغ به العرى حتى قعد فى قوصره »[2] .

« ولكننا لا نلبث أن نجد عن صاحب الطبقات الكبرى » تعليلا آخر لتفضيله الوحدة . سنعود إليه مرة أخرى .

ويروى الحديث فى اسمه ووصفه بصيغ مختلفة ــ أحدها قول النبى ﷺ « خليلى من هذه الأمة أويس القرنى وإنه لو أقسم على الله لأبره »[3] . أما الحديث الذى ينقله الذهبى فنصه « إن خير التابعين رجل يقال له أويس وله والدة ، وكان به بياض ، فمروه فليستغفر لكم »[4] . لهذا فقد سعى عمر بن الخطاب إلى لقائه ، وجرى بينهما حديث طويل ، تأكد من خلاله الفاروق أنه هو المعنى بالحديث ، وسأله أن يستغفر له . ففعل .

ولكن ابن حزم استبعد الحديث النبوى المروى فى وصف أويس القرنى[5] .

والظاهر أنه ليس وحده الذى ذهب إلى ذلك ، لأن ابن عساكر يذكر أن قوما من المحدثين أنكروا أويسا بالكلية ، ويعلق على ذلك بقوله « وأمر أويس مشهور ، فلا معنى لهذا القول »[6] .

أما عن تفضيله الوحدة ، فإنه يمكن تعليله بكراهته أن يكون محدثا ، أو قاضيا ، أو مفتيا[7] ، أى أنه سلك نفس الطريق الذى سلكه بعض الصحابة ، حيث خشوا مسئولية هذه المواضيع الجسيمة بعد النبى ﷺ . فهو يسمع من

---

(١) ابن سعد / الطبقات جـ ٦ ص ١٦٢ . (٢) المكى / قوت القلوب جـ ٢ ص ١٩٥ .

(٣) نص الحديث من الطبقات جـ ٦ ص ١٦٣ / ١٦٤ .

(٤) الذهبى / سير أعلام النبلاء مجلد ٤ ق ١ ورقة ١٣٥ مخطوط ( وينظر الصيغ المختلفة للحديث بكتابه ( ميزان الاعتدال جـ ١ ص ١٢٩ ) .

(٥) ابن حزم / الفصل جـ ٤ ص ١١٧ يقول ( والحديث المأثور فى أويس القرنى لا يصح لأن مداره على أسيد ابن جابر وليس بالقوى ) .

(٦) ابن عساكر / التاريخ الكبير جـ ٣ ص ١٧٤ . ويقول الذهبى فى ميزان الاعتدال ( ولولا أن البخارى ذكر أويسا فى الضعفاء لما ذكرته أصلا ، فإنه من أولياء الله الصادقين ، وما روى الرجل شيئا فيضعف أو يوثق من أجله ) جـ ١ ص ١٢٩ .

(٧) ابن سعد / الطبقات جـ ٦ ص ١٦٥ .

كتاب الله بعض الآيات فيغشى عليه ، فلما أفاق كان يردد « الوحدة أحب إلى »[1] .

وفى حديث طويل بينه وبين هرم بن حيان نفى أنه سمع من الرسول ﷺ شيئا ، ولكنه سمع ممن سمع منه . فلما طلب منه هرم بن حيان أن يحدثه قال « إنى أكره أن أفتح على نفسى هذا الباب ، أن أكون قاضيا ، أو مفتيا أو محدثا ، إن فى النفس شاغلا »[2] .

إنه فى شغل عن نفسه بالخشية من الله ، والعمل من أجله ، والتفكير المتواصل فى مصيره بعد الموت . فبعد أن يتلو الآيات ﴿ **حم ، والكتاب المبين ، إنا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منذرين ..** ﴾ إلى قوله ﴿ **إلا من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم** ﴾ — ( الدخان ٤٢ ) خر مغشيا عليه حتى ظن هرم بن حيان أنه قد مات . فلما أفاق آخر الأمر قال « إنى لم أزل فى غم ما كنت مع هؤلاء الناس . الوحدة أحب إلى »[3] .

ومن المحتمل أنه اختار الوحدة بعد أن تعب مما لاقاه من الناس على أثر أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ، حيث يقول « إن قيام المؤمن بأمر الله لم يبق له صديقا »[4] . وهنا يذكرنا بموقف مشابه لأبى ذر الغفارى الذى يبدو أنه هو الآخر لم يلق آذانا صاغية . فكان يشكو مما يلقاه من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فيقول « حتى ما ترك لى الحق صديقاً »[5] .

وقد اتخذ التسترى فيما بعد من أويس القرنى مثالا يحتذي فى مقام الصبر ، إذ أنه ابتلى بمختلف ألوان الاضطهاد ولاقى الأمرين ، وكان يشكو ممن يأمرهم بالمعروف ، فيشتمون عرضه ، ويجدون من الفاسقين أعوانا حتى « والله لقد قذفونى بالعظائم »[6] .

وبالرغم من ذلك ، فإنه عندما سنحت له الفرصة لكى يطلب الحماية من

---

(١) ن . م والصفحة .
(٢) ابن حنبل / الزهد ص ٣٤٥ .
(٣) ابن حنبل / الزهد ص ٣٤٦ .
(٤) ابن سعد / الطبقات جـ ٦ ص ١٦٥ .
(٥) ابن سعد / الطبقات جـ ٤ ص ٢٣٦ .
(٦) التسترى / تفسيره ص ١٩٥ والطبقات جـ ٦ ص ١٦٥ .

عمر بن الخطاب أثناء زيارته له فى الكوفة لم ينتهزها ، بل حينما سأله الخليفة أن يكتب إلى عامل الكوفه ليستوصى به رفض ، قال « أكون فى غبر الناس أحب إلى »[١] .

وعاش أويس مستغرقا فى العبادة ، فهو فى نهاره دائم الصلاة ، وفى ليله قائم حتى يصبح ، يقول « بلغنى أن لله عباداً سجوداً أبداً »[٢] وربما يقصد بذلك التشبه بالملائكة . لأننا نقرأ له فى نص آخر « لأعبدن الله فى الأرض كما تعبده الملائكة فى السماء »[٣] .

ورآه الربيع بن خيثم ، فحاول أن يحدثه فى أمر من أموره بعد صلاة الصبح ، فوجده مشغولا بالتسبيح . فانتظر إلى صلاة الظهر فوجده كذلك أيضاً واستمر به الحال بين صلاة وتسبيح إلى أن استمر فى الصلاة بعد العشاء إلى صباح اليوم التالى ، دون أن تغفل له عين إلا بعد صلاة الصبح . ومع هذا ، فقد كره هذه الإغفاءة الخاطفة وأنب نفسه عليها ، داعياً ربه « اللهم إنى أعوذ بك من عين نوامة وبطن لا تشبع »[٤] !!

ولهذا يعده الشاطبى ممن يأخذ بما هو شاق فى الدوام . ومع هذا لا يعتبر مخالفاً للسنة ، بل إنه من السابقين الأولين ، ألم يكن الرسول ﷺ يقوم الليل حتى تتورم قدماه ؟

إن قيام الرسول ﷺ بالليل لم يمنعه من الجهاد . وهكذا فعل أويس القرنى ، فإن الاختلاف فى تاريخ وفاته يرجع إلى تعدد الأخبار فى سبب موته ، فمن المحتمل أنه قتل فى موقعه صفين ، أو بعد خروجه غازيا إلى ثغر أرمينية حيث مرض ومات . ويرجح الحافظ ابن عساكر أنه قتل بصفين[٥] .

ونستخلص مما أورده مؤرخنا أمرين : أولهما أن عزلة أويس القرنى لم تمنعه من اشتراكه مع المسلمين حينما دعا داعى الجهاد ، فالثابت أنه خرج غازيا وإن لم يثبت

---

(١) ابن سعد / الطبقات جـ ٦ ص ١٦٤ . (٢) الشاطبى / الاعتصام جـ ٢ ص ٣٧ .
(٣) ابن عساكر / التاريخ جـ ٣ ص ١٧٤ .
(٤) الشاطبى / الاعتصام جـ ٢ ص ١٢٨ وابن عساكر / التاريخ جـ ٣ ص ١٧٣ .
(٥) ابن عساكر / التاريخ الكبير جـ ٣ ص ١٧٤ .

أنه قتل بأرمينية . والأمر الثانى ، وهو انفعاله بالأحداث الكبرى فى الحياة السياسية ، كالخلاف بين على ومعاوية — رضى الله عنهما — واشتراكه بنفسه فى القتال تحت راية الأول — إذا ما رجحنا مقتله فى موقعة صفين ، وهو ما يذكره الذهبى فى تأريخه له « فاستشهد بصفين فنظروا فإذا عليه نيف وأربعون جراحة »[1] . وقد رأى أن وقوفه إلى جانب على يعنى لزومه الجماعة ، لأنه كان ينصح هرم بن حيان بقوله « لا تفارق الجماعة فتفارق دينك »[2] .

إن هذه السيرة الفريدة للتابعى الكبير ، تدلنا على مدى تمسكه بطريقة الاقتداء ، وإن كان قد سلك مسلكا خاصا فى عزلته للأسباب التى قدمناها ، إلا أنها لم تنأى به عن ( الجماعة ) لم والأغلب أنه فهم فكرة الجماعة على وجهها الصحيح ، فليس الانتماء إليها يحتم بالضرورة اختلاطه بالمجتمع والناس ، ولكنها تعنى عدم الخروج عن رأى الأغلبية أو إجماعها . فلما رأى الكوفة تناصر عليا ووجد الحق معه أيده وناصره بالسيف متخلياً عن عزلته . أليس من الخطأ هنا تصويره بالعابد الفانى الذى زال عقله ، كما يحاول الكلاباذى — مؤرخ التصوف — أن يفعل ؟ لقد وضعه ضمن من « يرى بعين العتاهة وزوال العقل لزوال تميزه فى مرافق نفسه ، وطلب حظوظه ، وهو على ذلك محفوظ فى وظائف الحق عليه »[3] .

وما أبعد هذه الصورة عن الحقيقة !

ثم إنه فى وحدته كان من فرط إحساسه بالانتماء للجماعة ، يود لو شارك فى إسعاد المسلمين جميعاً فيوفر لهم المأكل والملبس !! فهو فى دعائه وتوسله إلى الله عز وجل ، يخاطب ربه — تعالى — بكلمات عميقة الدلالة فيقول « اللهم إنى أعتذر إليك اليوم من كل كبد جائعة . وبدن عارى ، فإنه ليس فى بيتى من الطعام إلا ما فى بطنى ، وليس شىء من الدنيا إلا ما على ظهرى »[4] !! ولم يكن على ظهره حينذاك إلا خرقة .!

### ٢ — سعيد بن جبير ( ٩٤ هـ = ٧١٢ م ) :

بيّنا فى مقدمة الكتاب اتساع مدلول لفظ ( الزهاد ) . فى كتب التراث

---

(١) الذهبى / ميزان الاعتدال جـ ١ ص ١٣٠ .
(٢) ابن عساكر / جـ ٣ ص ١٧٣ .
(٣) الكلاباذى / التعرف .. ص ٣١ .
(٤) تفسير التسترى ص ١٩٤ .

الإسلامى إذ اتسع فشمل هؤلاء الرجال الأفذاذ من العلماء والقادة والمجاهدين الذين حققوا فى سلوكهم العملى القيم الإسلامية العليا ، واصطبغت حياتهم بصبغة الحياة الوجدانية لاهتمامهم بأعمال القلوب ووضعها فى المقام الأول أى قبل أعمال الجوارح .

ويدخل ضمن أعمال القلوب الحرص على تحقيق القيم التى حققها الجيل الأول من الصحابة محافظة على دوامها فى الأجيال التالية .

لذلك فقد احتل سعيد بن جبير المكانة المرموقة بين هؤلاء الأئمة الكبار .

وقد قتله الحجاج لخروجه ضد حكام بنى أمية مع ابن الأشعث .

كان تلميذا لابن عباس — رضى الله عنهما — .

وبعد ما كف بصر ابن عباس ، أتاه أهل الكوفة يسألونه ، فأحالهم إلى تلميذه سعيد بن جبير ، وتعجب كيف يسألونه وفيهم سعيد !![1] ، أى أنه أجازه للإفتاء بعد ثقته فى مكانته الفقهية .

ولما قتل الحسين فى موقعة كربلاء . وجد السلوى فى قراءة القرآن ، يداوم عليه ولا يتركه إلا بسبب المرض أو السفر . وكان من أوائل القصاص فى الكوفة يقضى كل يوم مرتين بعد صلاة الفجر وبعد العصر[2] . « ويقال إنه كان يقرأ القرآن فى الصلاة بين المغرب والعشاء ختمة تامة »[3] .

وكان ابن جبير يختلف فى الرأى مع الحسن البصرى لأن إمام البصرة كان يرى التقية فى الإسلام ، بينما كان سعيد يرى أنه لا تقية فى الإسلام[4] .

وخرج فى ثورة ابن الأشعث ضد الحجاج كما قدمنا ، فلما انهزم أصحاب ابن الأشعث هرب سعيد من الكوفة ، وذهب إلى مكة .

وكان موقفه معبراً عن التحام العقيدة الدينية بالموقف السياسى أصدق تعبير ، لأنه كان يحض الناس على قتال أمراء بنى أمية بسبب « جورهم فى الحكم ،

(١) ابن سعد الطبقات جـ ٦ ص ٢٥٧ . (٢) ن . م ٢٥٩ .
(٣) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ٩٨ . (٤) ابن سعد / الطبقات جـ ٦ ص ٢٦٣ .

وخروجهم من الدين ، وتجبرهم على عباد الله ، وإمامتهم الصلاة ، واستذلالهم المسلمين »[1] .

ولما أتت النتيجة على غير ما يبغى ، فضل الحياة فى مكة بجوار الكعبة ، وكان يفتى الناس هناك راضياً بقضاء الله . وأخذ يتكلم عن أعمال القلوب مثل الصبر ، والشكر ، والذكر ، والخشية بعد أن أدى دوره تنفيذاً لمبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؛ فقد حرص على دفع القهر عن المسلمين « وأبى الله أن يكون إلا ما أراد »[2] .

ولما سألوه عن أيهما أفضل : الشكر أم الصبر ؟ أجاب ( الصبر والعافية أحب إلىّ )[3] .

ونقرأ له كلمات جامعة سبق بها الزهاد بعده فيما تكلموا فيه . فقد ضمن رأيه أن الخشية النافعة هى التى تحول بين الصنبر وبين المعصية وتحمله على طاعة الله . وأعبد الناس عنده الرجل المقترف للذنوب ، فإذا ما تذكر ذنبه احتقر عمله الصالح . وينفرد فى تعريفه للذكر إذ يقول « الذكر طاعة الله ، فمن أطاع الله فقد ذكره ، ومن لم يطعه فليس بذاكر له وإن كثر منه التسبيح وتلاوة القرآن »[4] .

وقد ضمه الإمام أحمد ضمن الزاهدين فى كتابه « الزهد » وأورد له آراء عميقة المعنى فى الحياة الوجدانية .

ولئن كان الحسن البصرى لم يرض بحركة الخروج مع ابن الأشعث إلا أننا نحس صدى الأسف العميق فى نفس إمام البصرة لأن ابن جبير لم يستطع الاختفاء بمكة[5] .

ولما سمع الحسن بمقتل سعيد بن جبير ، أفرغ طاقته الوجدانية كلها فى دعاء مخلص ، قال « اللهم يا قاصم الجبابرة اقصم الحجاج »[6] . واستجاب الله له سريعاً فقصم الحجاج بعدها .

ولكن ، بعد أن قتل سعيد « وما على ظهر الأرض رجل لا يحتاج إلى

(1) ابن سعد الطبقات جـ ٦ ص ٢٦٥ .
(2) ن . م ص ٢٦٢ .
(3) ابن سعد / الطبقات جـ ٦ ص ٢٦٢ .
(4) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ٩٨ .
(5) ابن سعد / الطبقات جـ ٦ ص ٢٦٦ .
(6) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ٩٨ .

سعيد »[1] ، وهذه شهادة الإمام الحسن البصرى ، وكفى بها شهادة .

### ٣ ـ مسروق بن الأجدع « ٦٣ هـ=٦٨٢ م » :

كان مسروق « قريع القراء وسيدهم »[2] ، فوصفوه بأنه سيد قراء أهل الكوفة [3] .

كره له عمر بن الخطاب رضى الله عنه اسم « الأجدع » لأن الأجدع يعنى الشيطان فسماه عبد الرحمن [4] .

واشترك مسروق فى معركة القادسية وجرح فيها فشلت يده وأصابته ضربة فى رأسه[5] . فهو فى زمرة القراء المؤثرين فى حياة المسلمين لكى لا تنحدر أحوالهم إلى ما نلاحظه بما تنقله لنا المصادر فى شكل عديد من صور النقد لمّا بعد العهد بينهم وبين النبى ﷺ ، فكان مسروق محافظا على قيم العصر الأول محاولا بتوجيهاته وأفعاله حث المسلمين على الاستمساك بها وكان قاضيا أيضا ولكنه لم يأخذ عليه أجراً[6] .

وظل مسروق من القراء الذين فضلوا حياة الوجدان وتعمقوا فى أعمال القلوب وتركوا لنا نماذج واقعية معبرة عن التحام العقائد بالأعمال .

كان لا يعبأ إذا شكت له امرأته نفاد الطعام لعياله ، فيجيبها مبتسماً « والله ليأتينهم الله برزق »[7] . يقول هذه العبارة وهو واثق ، بل لا يصل إلى هذه الدرجة من الثقة إلا عندما يسمع أنه ليس عندهم طعام ولا دراهم[8] .

ولقد لقى سعيد بن جبير . ويبدو أنهما استعرضا معاً أحوال المسلمين حينذاك ، ولعل أشد ما أثر فى نفس مسروق هو محاربة المسلمين بعضهم بعضا فى معركة صفين ، إذ يذكر ابن سعد أنه خطب فى الناس هناك وذكرهم بآيات الله عز وجل التى تنهاهم عن قتال بعضهم بعضا وحزن لأنهم لم ينصتوا له « فقد نزل به صفيه من أهل السماء ، على صفيه من أهل الأرض لينتهوا »[9] .

---

(١) ابن سعد / الطبقات جـ ٦ ص ٢٦٦ .
(٢) ن . م . س . ص ٨٠ .
(٣) بن حنبل / الزهد ص ٣٥٠ .
(٤) ابن سعد / الطبقات جـ ٦ ص ٧٦ .
(٥) ن . م . ص ٢٧ .
(٦) ابن سعد / الطبقات جـ ٦ ص ٨٢ .
(٧) ن . م ص ٧٩ .
(٨) ابن حنبل / الزهد ص ٣٤٩ .
(٩) ابن سعد / الطبقات جـ ٦ ص ٧٨ .

ولما لقى سعيد بن جبير ، قال له « يا أبا سعيد ما من الدنيا شيء آسى عليه إلا السجود لله عز وجل »[1] . وفى نص آخر « يا سعيد ، ما بقى شيء يرغب فيه إلا أن نعفر وجوهنا فى هذا التراب »[2].

ومع هذا ، فهو يغبط المؤمن فى قبره الذى أمن العذاب واستراح من الدنيا[3].

أما عن تعبده ، فإنه كان يكثر من الصلاة حتى تتورم قدماه ، فتبكى امرأته عندما تراه يصنع بنفسه[4] .

والدنيا عنده كالقمامة — هذا الوصف الذى نراه يتكرر على لسان الزهاد — فيشير إليها ، ويضع لها وصفا جامعا يقول فيه « هذه الدنيا أكلوها فأفنوها ، لبسوها فأبلوها ، ركبوها فأنضوها ، سفكوا فيها دماءهم واستحلوا فيها محارمهم ، وقطعوا فيها أرحامهم »[5] .

وهو يرى الهدف الحقيقى والنهائى من العلم هو خشية الله تعالى[6] أما الجاهل فهو الرجل الذى يعجب بعمله[7] وكان يحذّر المسلمين من لقاء الله فيقول « إذا بلغ أحدكم أربعين سنة فليأخذ حذره من الله سبحانه »[8] .

ومات مسروق ، فلم يترك ثمن كفن[9] !!

## ٤ — الربيع بن خيثم

يصفه ابن حبان فيقول « من عباد أهل الكوفة وزهادهم ، والمواظبين منهم على الورع الخفى والعبادة الدائمة »[10]

ولعل إشارة ابن حبان التى يذكر فيها عبارة الورع الخفى — أو الإخلاص

---

(١) ابن حنبل / الزهد ص ٣٤٩ .
(٢) ابن سعد / الطبقات جـ ٦ ص ٨٠ .
(٣) ابن حنبل / الزهد ص ٣٥٠ .
(٤) ن . م والصفحة .
(٥) ابن سعد / الطبقات جـ ٦ ص ٨٢ .
(٦) ن . م . ص ٨١ .
(٧) ابن حنبل / الزهد ص ٣٤٩ .
(٨) ن . م ص ٣٥٠ .
(٩) ابن سعد / الطبقات جـ ٦ ص ٨٣ .
(١٠) ابن حبان / مشاهير علماء الأمصار ص ٩٩ — ١٠٠

التام قد استقاها من دراسته لحياة الربيع ، فهى فى الواقع نموذج من العباد الذين عاشوا فى رحاب القيم الرفيعة بالكتاب والسنة ، فكان كثيرا ما يردد كلمات السرائر وأراد تطبيقها حرفيا ، ونجح فى ذلك إلى أبعد حد حتى وصف بأنه من المخبتين[1] .

وأراد الربيع تحقيق الحياة المخلصة التى يكون العمل فيها لله تعالى وحدهْ لأن كل « مالا يراد به وجه الله يضمحل »[2]، ولهذا كلما أكثرت ابنته فى استئذانه للذهاب لتلعب ، أخذ يردد عليها قوله « اذهبى فقولى خيراً » ولما اشترك بعض أصحابه فى الاستئذان لها ملحين عليه أجابهم « لا أحب أن يكتب على اليوم أنى أمرت باللعب »[3] !!

ونلاحظ اتفاقه مع غيره فى رغبته تحقيق هيمنة الكتاب على أقوال المسلمين وأفعالهم ، وأن يهدفوا إلى تحقيق العبودية لله عز وجل وحده . فالكلام فى رأيه ليس له من فائدة إلا إذا اقترن بالتسبيح والتكبير والحمد لله وحده وقراءة القرآن ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر « ومسألة الخير والاستعاذة من الشر »[4] .

أرأيت إلى أى مستوى من الآفاق الإنسانية يحلق فوقها هذا العابد الورع ؟ وسنجد اتفاقا بين هذه الظاهرة ــ ظاهرة ضرورة هيمنة كتاب الله تعالى على عقول المسلمين وقلوبهم عند ابن تيمية أيضا مدعمة بالأسانيد والأدلة من القرآن والحديث . كذلك يذكرنا الربيع بتوصية ابن تيمية الذى كان يحث فيها المسلمين على قراءة أواخر سورة الأنعام ﴿ **قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم** ﴾ ( آية ١٥١ ) .. إلى أن بلغ ﴿ **لعلكم تتقون** ﴾ ( آية ١٥٣ ) .

إننا نفسر هذا الترابط والالتحام الشديدين من حيث الالتزام بالقيم الإسلامية المثالية بين اثنين : أحدهما عاش فى عصر الصحابة والتابعين ، والثانى فى القرن الثامن الهجرى ، بأن تدبر كتاب الله تعالى يخلق تواردا فى الخواطر يتشابه فى خطوطه العريضة ــ إن لم يتطابق ــ مهما بعد الزمن . كذلك نحن فى أشد الحاجة إلى العمل بهذا التوجيه فى عصرنا الحاضر .

---

(١) ابن سعد / الطبقات جـ ٦ ص ١٨٣ .
(٢) ن . م ص ١٨٦ .
(٣) ن . م ص ١٨٨ .
(٤) ن . م ص ١٨٥ .

وكان الربيع بن خيثم يحض المسلمين على تطبيق هذه القواعد فى حياتهم أيضا ، فيعملون العمل الصالح ولا يقولوا إلا الخير لأن الحسنات يذهبن السيئات ، وأن يكثروا من ذكر الموت[1] .

وكانت تتعدد أمامه المقارنات بين المسلمين السابقين وبين معاصريه فيبكى حتى تبتل لحيته ثم يقول « أدركنا قوما كنا فى جنوبهم لصوصا »[2] !!

وكان ربيع يتمثل النار ويخشاها أيضا ، ويبدو أن اتجاه الخوف قد سرى إلى الكوفة من شيوخ البصرة — وفى مقدمتهم الحسن البصرى — فنرى الربيع يمر بالحدادين ، فإذا نظر إلى الكير وما فيه خر[3] ، ويصيح فى المسلمين ليعنوا بسرائرهم قبل علانيتهم ، فالسرائر خافية عن الناس ولكنها بوادٍ لله ، ويحثهم على التماس دواء السرائر فى كلمتين هما « أن تتوب ثم لا تعود »[4] .

ولما بلغه مقتل الحسين ، لم يجد تعليقا إلا من آياتِ الله نفسها ، فأخذ يتلو من الكتاب ﴿ **اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون** ﴾[5] .

وقد مر بنا حضه على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فيقول فى هذا المعنى أيضا « أكره أن أرى شهيدًا استشهد ، أو أرى حاملة فلا أعينها ، أو أرى مظلوماً فلا أنصره »[6]

ولم تكن هذه الأفعال إلا تطبيقا للقيم الإسلامية التى فهمها والتزم بها ، وكان يحث المسلمين على النظر فيها ودراستها . إذ نقرأ له فى سياق نصوص أخرى توجيهاته للمسلمين بالإلحاح فى دراسة الآيات ، والأحاديث والاجتهاد فى استيعابها بمثل قوله « لا كلّ ما أنزل على محمد — ﷺ — أدركتم ، ولا كلّ ما تقرؤون تدرون ما هو »[7] . وكان رأيه فى الحديث النبوى الذى يدل على عمق الخبرة به « إن من الحديث حديثاً له ضوء كضوء النهار تعرفه ، وإن من الحديث حديثا له ظلمة

---

(١) ابن سعد / الطبقات جـ ٦ ص ١٨٤ .
(٢) ن . م ص ١٨٩ .
(٣) ن . م ص ١١٨ .
(٤) ن . م ص ١٨٥ .
(٥) ن . م ص ١٩٠ .
(٦) ابن سعد / الطبقات الكبرى جـ ٦ ص ١٨٣ .
(٧) ن . م ١٨٥ .

كظلمة الليل تنكره »[1] .

ويذكر ابن سعد أن الربيع مات بالكوفة فى ولاية عبيد الله بن زياد عليها [2] .

**٥ ــ سفيان الثورى ( ١٦١ هـ = ٧٧٧ م ) :**

إنه أحد أئمة الكوفة الأعلام الذى ساد الناس بالورع والعلم ، ووضع فى مصاف ابن عباس فى زمانه والشعبى فى زمانه . وكان يلقب بأمير المؤمنين فى الحديث[3] . كما وصفه ابن سعد بأنه كان « ثقة ، مأمونا ثبتا ، كثير الحديث ، حجة »[4] . وقد ضرب به المثل فى الحفظ فيقول عن نفسه « إنى لأمر بالحائك يتغنى فأسد أذنى مخافة أن أحفظ ما يقول »[5] .

لهذا ، يصبح مثار اهتمام الباحث أن ينقب عن دواعى شهرته كزاهد مع أنه من حفاظ الحديث الكبار الذى دعا المسلمين إلى رعاية الحديث ، والحرص عليه وحضهم على حفظه ، لا للتعلم والحفظ فحسب ، ولكن للعمل به وتنفيذه ثم نشره بين الآخرين . وهذا يفسر لنا التكوين العقلى والوجدانى لعلماء المسلمين الأوائل ، فإنهم أهل حديث وطلّاب علم أولاً ، ثم أصحاب سلوك ثانيا ، بمعنى أنهم وضعوا القواعد السليمة للعلم والسلوك وجعلوا من أنفسهم القدوة للغير بمحافظتهم على القيم التى ينادون بها .

ولا توضح المصادر لنا سبب اختفائه بمكة ، إذ يكتفى صاحب الطبقات الكبرى بأن يسرد لنا حرص أمير مكة على مصارحة الثورى ، ويخيره بين الاختفاء وبين إجابة دعوة الخليفة ، ففضل الثورى التوارى ، فلم يعد يظهر إلا لأهله ومن لا يخافه [6] .

إلا أن ابن سعد أورد قصة قد يفهم منها سبب اختفائه ، إذ نصحه أحد أصدقائه بألا يتنحى عن السلطان لأنه من فعل أهل البدع ، وأقنعه بالكتابة إلى المهدى ، ولما جاءه الرد ، عزم الذهاب إلى بغداد إلا أنه حم ومرض مرض الموت .

---

(١) ن . م ٤٨٦ .	(٢) ن . م ١٩٣ .
(٣) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ١٠ ص ١٣٤ .	(٤) ابن سعد / الطبقات جـ ٦ ص ٣٧١ .
(٥) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ١٠ ص ١٣٤ .	(٦) ابن سعد / الطبقات جـ ٦ ص ٣٧٢ .

ولعل فى العبارة التى أتت على لسانه ما يفسر سبب عزوفه عن ملاقاة الأحباء ، فهو ينصح العلماء — ويسميهم الحكماء — فيقول لهم « ترك لكم الملوك الحكمة ، فاتركوا لهم الدنيا »(١) .

وكان سفيان الثورى كما أسلفنا محدثاً ممتازاً ، حتى وصفه الإمام أحمد بن حنبل بالإمام ، واعترف له بالعلم ، ثم أضاف إلى ذلك ، أنه ساد الناس بالورع ، مستنتجا ذلك من العبارة التى كان يرددها الثورى دائما فى دعائه « اللهم ، سلم سلم »(٢) . فهو يستنجد بالله فى دعائه لكى يتقى الشبهات ، ويتورع عن المحرمات .

ولكن كيف نوفق بين نظريته فى الزهد وسلوكه فى الحياة حيث اختار التجارة يتكسب منها حتى لا يحتاج إلى أحد من الناس ؟ وهو يقول « لأن أترك عشرة آلاف دينار يحاسبنى الله عليها أحب إلى من أن أحتاج الناس »(٣) .

كان إذن رأية فى الزهد يختلف عن اتجاه البعض الذى اتخذ مظهر التقشف فى الملبس والمأكل ويرى أن الزهد فى الدنيا قصر الأمل « ليس بأكل الغليظ ولا لبس الغليظ »(٤) ، وربما كان متأثراً فى هذا التعريف برأى الإمام الزهرى ( ١٢٤ هـ = ٧٤١ م ) الذى كان يعرف الزاهد بأنه ( من لم يمنع الحلال شكره ، ولم يغلب الحرام صبره )(٥) . أى إنه عمل من عمل القلوب ويعبر عن موقف واتجاه أخلاق وليس مجرد فقد المتاع الدنيوى أيًّا كان .

كذلك تطرق إمامنا إلى الحديث عن الخوف والرجاء والنية والتقوى ، وكلها من أعمال القلوب ، واتسمت آراؤه فى هذا المجال بالتفرد والأصالة ، فهو فى تعريفه للزهد يتجه كما بينا آنفا اتجاها نظريا بحتا ، إذ فصله عن الجانب السلوكى من جهة ،

---

(١) ابن قتيبة / عيون الأخبار جـ ٢ ص ٣٣٠ .

(٢)ابن سعد /الطبقات جـ ٦ ص ٣٧١ وقال الإمام أحمد فى حديثه عن الثورى( لا يتقدمه فى قلبى أحد ) .
ابن كثير / البداية والنهاية جـ ١٠ ص ١٣٤

(٣) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ١٠ ص ١٣٤ .

(٤) ابن قتيبة / عيون الأخبار جـ ٢ ص ٢٥٦ وابن كثير / البداية والنهاية جـ ٨ ص ١٠ .

(٥) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ٣٤٨ .

كما نقد من خلاله — على الأرجح — الذين اكتفوا بمظاهر التقشف فحسب ، فأكلوا الغليظ ، ولبسوا الغليظ ، ولم يتطرقوا إلى الأساس النظرى الذى يراه ممثلا للزهد الحقيقى وهو قصر الأمل .

يقول أستاذنا الدكتور النشار « وأعطى للزهد — كمذهب فى الحياة — صيغته المشروعة فى الحياة الإسلامية »[1] ، أى أنه عبّر عن موقف خاص من الحياة وحقق بأعماله تنفيذا فعليا للقيم التي يؤمن بها .

أما عن صلاته بشيبان الراعى وأبى هاشم الكوفى — أو الصوفى — ورابعة العدوية ، فإنها من قبيل سعى الثورى لمعرفة الاتجاهات المختلفة لأقرانه من الزهاد .

وربما كانت رواية نبذ رابعة العدوية ( ١٨٠ هـ = ٧٩٦ م ) له هى أدلها على تنافر الاتجاهين : زهده الإيجابى الذى يسعى نحو العلم والكسب والانتقال فى سبيل المعرفة . والزهد السلبى الذى يعد نموذجا تعبر عنه رابعة بعاطفة الأنوثة ورقتها فى نظرية الحب الإلهى .

لقد دافع عنها شيخا المدرسة السلفية الكبيران : ابن تيمية والذهبى ، إذ يرى الأول أن ما نسب إليها من وصفها للبيت بأنه الصنم المعبود فى الأرض من قبيل الأكاذيب التاريخية[2] .

إنها فجرت عاطفتها فى مثل قولها :

ولقد جعلتك فى الفؤاد محدثى      وأبحت جسمى من أراد جلوسى

وإذا كان يفهم من هذا القول وصفها بالحلول والإباحة ، فإن الذهبى يرفض الأخذ بهذا المعنى ، فيقول مدافعاً عنها « وهذا غلو وجهل ، ولعل نسبها إلى ذلك مباحى ، حلولى ليحتج بها على كفره »[3] .

---

(١) د. النشار / نشأة الفكر جـ ٣ ص ٣٤٠ .

(٢) ابن تيمية / توحيد الربوبية ص ٣١٠ .

ويرى الدكتور عبد الرحمن بدوى عدم الاعتداد بتكذيب ابن تيمية لهذا النص لأن تكذيبه تم على أساس عقلى دون الاستناد إلى أسانيد تاريخية ، ( شطحات الصوفية ص ١٨ ط مكتبة النهضة سنة ١٩٤٦ م ) .

(٣) الذهبى / سير أعلام النبلاء ورقة ٢٠٩ مجلد ٦ قسم ٢ .

وقد مر بنا اشتغاله بالتجارة ، وتفضيله الكسب على الحاجة للناس ، فهو إذن يعطى للزهد قيمة معنوية ، بحيث يظهر الجانب الإيجابى فى التفاعل مع الحياة ونبذ الخمول والسلبية فيذهب إلى أن « العالم إذا لم يكن له معيشة صار وكيلا للظلمة ، والعابد إذا لم تكن له معيشة أكل بدينه ، والجاهل إذا لم تكن له معيشة كان سفيراً للفساق »[١] . ونفهم من ذلك أنه يحض على العمل والكسب لتفادى الانحدار الذى يهوى إليه العلماء والعُبّاد بسبب الحاجة . وكانت له أيضا مواقف فى مراقبة الخليفة ومناقشته فى أمور الحكم :

منها ، المشادة التى حدثت بينه وبين أبى جعفر المنصور ( ١٥٨ هـ = ٧٧٤ م ) بعد وصفه له بالظلم فلم يجد أبو جعفر مناصاً من الاعتراف بفضل الثورى . قال « ألقينا الحب إلى العلماء فلقطوا إلا ما كان من سفيان فإنه أعياناً فراراً »[٢] .

وكان يعلن عقيدة السلف، فى الصفات للوقوف فى وجه التيارات المتباينة فى زمنه . يقول الذهبى « وقد بث هذا الإمام الذى لا نظير له فى عصره شيئاً كثيرا من أحاديث الصفات ، ومذهبه فيها الإقرار والإمرار والكف عن تأويلها »[٣] .

كذلك كان يتكلم فى بعض علماء الدنيا من أهل الكوفة[٤] ، وهو يعلم أنه ربما أغضب منه البعض ، ولكنه لا يأبه بهم لأنه خبير بنفوس الناس فهو يرى أن « رضا الناس غاية لا تدرك ، فأحمق الناس من طلب من لا يدرك »[٥] .

ويحق لنا أن نقف وقفة قصيرة عند مدى تأثره بالتيار الشيعى ، لأن إحدى الروايات تنسب إليه حبه لعلى وتفضيله إياه ، بينما ينسب إليه أيضاً التوقف فى التفضيل خشية أن يكون ذلك طعنا على أبى بكر وعمر[٦] .

وقد علق ابن كثير على اختلاف النصوص المنسوبة إلى سفيان الثورى مرجحا

---

(١) المكى / قوت القلوب جـ ٣ ص ٢٣ .
(٢) ابن عبد ربه / العقد الفريد جـ ٢ ص ١١٥ ، ١٣٨ .
(٣) الذهبى / العلو للعلى الغفار ص ١٠٣ .
(٤) المكى / قوت القلوب جـ ١ ص ٢٠٠ .
(٥) ن . م جـ ٤ ص ١٤٣ .
(٦) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٨ ص ١٢ .

عدم صحتها ، لأن المشهور عن بعض الكوفيين تقديم على على عثمان وليس تفضيله على الشيخين : أبي بكر وعمر ، رضى الله عنهم جميعا .

## رابعاً : البصرة

يؤيد ابن تيمية الرأى القائل بأن منشأ التصوف كان بالبصرة « وأنه كان فيها من يسلك طريق العبادة والزهد »[1] . وفى وصف الطبائع الغالبة على الأمصار المختلفة ، يرى شيخنا أن الزيادة فى العبادة والأحوال خرجت من البصرة لما امتاز به عبادها من شدة الخوف[2] . كذلك خرج من البصرة القدر ( أى القول بنفى القدر ) والاعتزال والنسك الفاسد[3] .

ولا يسعنا ونحن فى سبيل تبيان الخطوط العريضة لملامح الحياة الوجدانية فى المدرسة البصرية ، إلا عرض وجهة النظر المخالفة ، ونعنى بها الخاصة بالمستشرق ماسينيون صاحب الدراسات المتعددة فى التصوف . إننا نراه يتحامل بشدة على البصرة ، لاسيما على شيخها الحسن . لا لسبب إلا لأنها ـــ فى نظره ـــ كانت موطن أهل الجماعة[4] . ويشتد غضبه على البصريين لأنهم كانوا من الناحية السياسية ينكرون الخلاف بين الصحابة . وهنا التبس الأمر على ماسينيون ، وربما فهم موقف الإمساك عما شجر بين الصحابة . على أنه إنكار الخلاف بينهم ، فإنه بحكم كون البصريين من أهل السنة والجماعة ، فقد فضلوا ترك القتال فى الفتنة « والإمساك عما شجر بين الصحابة »[5] .

أما فى مجال تفضيل البصرة على الكوفة ، فإن ماسينيون لم يستطع تقديم أدلة مقنعة ، اللهم إلا القول بأن سكان جنوب شبه جزيرة العرب من أهل المدن والقرى الذين عرفوا التمدين هم سبب التحضر العربى فى الكوفة « تبعاً لصفة عقلية تختلف

---

(١) ابن تيمية / رسالة الصوفية والفقراء ص ٢٥ .
(٢) ابن تيمية / رسالة الصوفية والفقراء ص ٢٠ .
(٣) ابن تيمية / مذهب أهل المدينة ص ٢١ .
(٤) ماسينيون / خطط الكوفة ص ١٤ .
(٥) ابن تيمية / مذهب أهل المدينة ص ٩٣ .

عن البصرة التى كانت تلك العناصر فيها قليلة متراخية »[1] .

وقد تصدى أستاذنا الدكتور النشار لهذا الرأى الذى عده تعميماً قاسياً ، ويرى « أن هناك عوامل عامة قد تقرب بين مختلف المدارس فى مختلف المدن »[2] .

ونضيف : أن ماسينيون كشأن أغلب المستشرقين ــ يحمل الحقد والضغينة لأهل السنة والجماعة لأنهم المعبرون عن الإسلام ولا يمدح ويهتم إلا بالشواذ الذين لفظتهم الجماعة لأنهم يوافقون هواه كالباطنية مثلا ــ ومنهم الحلاج ! .

وسنتناول فى حديثنا عن مدرسة البصرة اثنين من شيوخها ، وهما يقفان فى مصاف إمام البصرة الشهير ــ أى الحسن ــ وهى أبو عثمان النهدى ( ١٠٠ هـ = ٧١٨ م ) وقتادة بن دعامة السدوسى ( ١١٧ هـ = ٧٣٥ م ) إلى جانب الحسن البصرى :

## ١ ــ أبو عثمان النهدى : ( متوفى فى أول ولاية الحجاج بن يوسف نحو سنة ١٠٠ هـ = ٧١٨ م )

كان يسكن الكوفة ثم هجرها على إثر مقتل الحسين ، معلنا أنه لا يسكن بلدا قتل فيه ابن بنت رسول الله ﷺ[3] .

وكان أبو عثمان ممن أدرك الجاهلية وحج خلالها مرتين ، ثم أسلم فى حياة النبى ﷺ ، ولكنه لم يلقه . ومثله ــ أى من عاصر عصرى الجاهلية والإسلام يسميه أهل الحديث مخضرما .

صحب سلمان الفارسى اثنتى عشرة سنة حتى وفاته وروى عنه وعن جماعة من التابعين[4] ، ويصفه ابن كثير بأنه كان « صواما ، قواما يسرد الصوم ، ويقوم

---

(١) ماسينيون / خطط الكوفة ص ١٣ .
وهذا الرأى يذهب إليه أيضاً الدكتور كامل الشيبى الذى يبدو تأثره الشديد به ، بل لا نستبعد أنه أخذ مادته منه لكى تتفق مع النتائج المشابهة التى استخلصها .

(٢) د. النشار / نشأة فكر جـ ٣ ص ٢٩٦ / ٢٩٧ . (٣) ابن سعد / الطبقات الكبرى جـ ٧ ص ٩٨ .

(٤) ن . م والصفحة ، ابن كثير البداية والنهاية جـ ٩ ص ١٩٠ .

الليل لا يتركه ، وكان يصلى حتى يغشى عليه »[1].

ويرى فى الآية ﴿ **فاذكرونى أذكركم** ﴾ ــ ( البقرة ١٥٢ ) أن الذكر متبادل بين العبد وربه عز وجل ، فيقول فى معناها « فإذا ذكرت الله ذكرنى »[2] . لأن هذه الآية تعلمه حين يذكره ربه [3]

## ٢ ــ قتادة بن دعامة السدوسى :

أما الشخصية الثانية فى البصرة التى تقف فى مصاف الحسن البصرى فهو قتادة بن دعامة السدوسى ( ١١٧ هـ ــ ٧٣٥ م ) الذى لاحظ طغيان الاتجاه نحو الإكثار من العبادة بين أهل البصرة ، مما دعاه إلى رفع صوته لكى يحول اتجاههم إلى العلم الذى لا يمكن الاكتفاء منه . ويضرب على ذلك مثلا بموسى عليه السلام ، الذى طلب الزيادة ولم يكتف بما عنده ، فينصح بطلب العلم لأن « باب العلم يحفظه الرجل ، يطلب به صلاح نفسه وصلاح دينه ، وصلاح الناس ، أفضل من عبادة حول كامل »[4] ، لأنه هو نفسه سلك طريق العلم ، وسعى فى طلبه ، فقدم على سعيد بن المسيب فى المدينة يسائله أياما ، ويحفظ عنه إجاباته ، ويقارنها بآراء الحسن البصرى[5] .

كذلك جالس الحسن البصرى اثنتى عشرة سنة[6]، لهذا لا تعجب منه حين يتعمق هو أيضا فى فهم القرآن ، ويتحدث عن حقيقة المعية الإلهية وآثارها فيقول « من وثق بالله ، كان الله معه ، ومن يكن الله معه يكن الفئة التى لا تغلب ، والحارس الذى لا ينام ، والهادى الذى لا يضل ، والعالم الذى لا ينسى »[7].

وكان ابن حنبل يرى أنه أحفظ أهل البصرة[8] . وقد روى عن أنس بن مالك وجماعة من التابعين ، منهم سعيد بن المسيب والحسن وغيرهما وحدث عنه جماعة منهم أيوب والأوزاعى[9] .

---

(١) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ١٩٠ .  (٢) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ١٩٠ .
(٣) ن . م والصفحة والطبقات جـ ٧ ص ٩٨ .  (٤) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ٣١٤ .
(٥) ابن سعد / الطبقات الكبرى جـ ٧ ص ٢٣٠.  (٦) ن م ص ٢٢٩ .
(٧) ن . م ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ٣١٤.  (٨) ابن كثير / البداية والنهاية ص ٣١٣ .
(٩) ن م والصفحة .

الأئمة الكبار . فقد كانت هذه الصلات تتم أحيانا عن طريق اللقاءات وتبادل الآراء والأفكار . كذلك فإن تلقى الحديث وروايته أوجدت نوعاً من الترابط الفكرى والوجدانى ، والتشابه فى السلوك والالتزام بالقيم .

### ٣ ــ الحسن البصرى ( ١١٠ هـ = ٧٢٨ م ) :

تضخمت المصادر بذكر أخبار الحسن البصرى وأقواله ، وتعددت الفرق التى تسند إليه مذاهبها ونظرياتها . إن شهرة الإمام الكبير التى تجتذب الباحثين ناجمة أيضا عن الأساطير التى حيكت حوله بواسطة الصوفية فى القرن الرابع الهجرى ، لاسيما الطوسى فى كتابه ( اللمع ) ، والمكى صاحب ( قوت القلوب .. ) ، بينما الحقيقة أن الحسن لم ينفرد وحده فى عصره ــ أى فى أواخر القرن الأول وأوائل الثانى ــ فإن شخصيات أخرى شاركته فى التأثير فى المجتمعات الإسلامية حينذاك كان الحسن إمام البصرة ، بينما سعيد بن المسيب إمام المدينة ، والشعبى إمام الكوفيين [١] .

إن نظرية مقارنة للشيوخ الثلاثة تكشف عن تعدد مجال ثقافاتهم واتجاهاتهم ، فالحسن كان فقيها وعالما ؛ وابن المسيب كان فقيها ، والشعبى اشتهر بصفته محدثا .

هذه هى الصفات البارزة لكل منهم . وسبقهم بقليل عمر بن عبد العزيز ، إلى جانب العشرات الآخرين من المحدثين ، وكلهم يتابعون الاقتداء بالجيل الأول فى الأعمال الصالحة والمحافظة على القيم الإسلامية الرفيعة .

وإذا قلنا إن الحسن أشهر شخصية فى الزهد تمثل روح القرن الأول كما يذكر نيكلسون[٢] ، فإن هذا صحيح من ناحية ، ويعوزه الدقة من ناحية أخرى . أما صحته ، فلا شك أن إمامنا احتل مكانته الممتازة فى قلوب أهل السنة والجماعة . ولكن ، من ناحية أخرى ، قد ترجع شهرته عن معاصريه إلى العواطف الجماعية التى التفت حوله ، واتخذت منه لسانا لها فى الأمور السياسية[٣] . وبالمثل أدى الصوفية

---

(١) دكتور إحسان عباس / الحسن البصرى ص ٧ .

(٢) نيكلسون / التصوف الإسلامى ص ٤٦ ترجمة الدكتور عفيفى .

(٣) د. إحسان عباس / الحسن البصرى ص ٤٢ .

نفس الدور ووضعوه فى سلسلة شيوخهم — بل فى قائمة هؤلاء الشيوخ — الذين لبسوا الخرقة عن يد الإمام على — وأنطقوه بما لم يقله من حديث عن أحوال الصوفية ومقاماتهم . وقد كفانا الدكتور إحسان عباس مؤونة إثبات ذلك لأنه سبقنا بكتابه الفريد عن هذا الإمام .

ويرى باحثنا ضمن ما أورده من آراء كثيرة انفرد بها ، أن ابن سعد فى ( الطبقات الكبرى ) ربما انتصر للتيار المضاد للصوفية حينما أظهر الحسن البصرى فى صورة المعارض لأصحاب الأكسية .

ولكن الواقع أن النصوص التى تضمنها كتاب الطبقات ليست وحدها التى نتخذها دليلا على كراهية إمام البصرة للبس الصوف ونقده بالتالى لأصحاب الأكسية . فإن ابن حنبل أيضا أورد نصا آخر أكثر تصريحا يقول فيه الحسن لفرقد السبخى « يا ابن أم فرقد ، وكررها مرتين أو ثلاثة ، إن التقوى ليست فى هذا الكساء ، إنما التقوى ما وقر فى القلب وصدقه العمل والفعل »[1] .

أما النص الثالث ، فإننا نجده عند ابن كثير فى ( البداية والنهاية ) ذلك أن معاصره العلاء بن زياد البصرى ( ٧٨ هـ = ٦٩٧ م ) المعروف بكثرة الخوف ظل يبكى حتى عمى . ويفسر ابن كثير بكاءه بالرؤيا التى رآها له رجل بالشام ، فلما أخبره بهذه الرؤيا تركه لا يهدأ ليلا أو نهارا ، وصام عن الطعام ، وداوم على الصلاة ، وكاد يفقد حياته من كثرة البكاء ، مما جعل أخاه يلجأ إلى الحسن لينصحه بالعدول عن هذا المسلك .

وقد استجاب الحسن ، ولم يزل بالعلاء بن زياد حتى انتهى من صيامه وخفف

---

(١) ابن حنبل / الزهد ص ٢٦٧ .
والنص كما ورد بالطبقات الكبرى جـ ٧ ص ١٦٩ ( يا ابن أم فرقد ، أما علمت أن أكثر أصحاب النار أصحاب الأكسية ؟ ) .
كما ورد النص الآتى المتعلق بنقد الحسن للبس الصوف فى كل من ( عيون الأخبار لابن قتيبة جـ ٢ ص ٣٧٢ والطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٧ ص ١٦٩ :
( وذكر عنده الذين يلبسون الصوف ، فقال ما لهم تفاقدوا ثلاثا ، أكنوا الكبر فى قلوبهم ، وأظهروا التواضع فى لباسهم ،؟ والله لأحدهم أشد عجبا بكسائه من صاحب المطرف بمطرفه !! )

مما كان فيه[1] ، وسنعود بعد قليل لنوضح توسط الحسن فى مذهبه ــ فيما عدا حزنه الشديد ــ ومع ذلك فإننا نستنتج من هذا التصرف لشيخ البصرة ، نقده لمظاهر الغلو ، إذ يتفق مع قوله « دين الله وضع فوق التقصير ودون الغلو »[2] .

وهذا الموقف مرتبط بنقده لكافة مظاهر الغلو الأخرى التى لاحظها ، مثلما نقلوا إليه أن رجلا من أهله تنسك لأجل عدم استطاعته القيام بشكر الفالوذج الذى يأكله ، فوصفه الحسن بأنه ( إنسان أحمق ) ، واستطرد قائلا « ولا يقوم بشكر الماء البارد !! »[3] .

كذلك لم يرض عن انخراط أحد الحاضرين بحلقته فى البكاء الشديد إثر موعظته ، فالتفت إليه موجها الحديث « أما والله ليسألنك الله عز وجل يوم القيامة ما أردت بهذا ؟! »[4] .

ولكن ، ما الحل فى غلبة البكاء الذى لا يمكن مدافعته ؟

إن الحسن يرى رد الرجل لعبرته ، فإذا خشى أن تسبقه ، ينبغى أن يقوم[5] .

إنه كره إذن التظاهر بكافة ألوانه ، بما فى ذلك لبس الصوف ، وانتقد بشدة الغلو فى الدين ، ولم يأبه بمظاهر الأكسية ، وإعلان خبايا النفوس على الملأ لاتخاذها وسيلة لاجتذاب العامة ــ فيما يظهر . وكان سلوكه الشخصى يتسم بالاعتدال فى طابعه العام ، إذ كان يتغذى الخبز واللحم ، وسماه « طعام الأحرار » وكان الحسن يشترى كل يوم لحما بنصف درهم ، وقد أبدى أحد أصحابه الإعجاب بريح مرقة الحسن بقوله « وما شممت مرقة قط أطيب ريحا من مرقة الحسن »[6] . وقال لفرقد عندما امتنع عن أكل الخبيص لنفس السبب « ويحك ، ونؤدى شكر الماء البارد ؟!! »[7] ، فهو يرى أن نعم الله أكثر من أن تشكر إلا ما أعان عليه[8].

وفى أحد المرات ، دعا ضيفا لمشاركته الطعام ، فاعتذر بأنه أكل كفايته حتى

---

(١) ابن كثير / البداية جـ ٩ ص ٢٦ .
(٢) الاعتصام / الشاطبى جـ ٢ ص ٣٢ .
(٣) ابن حنبل / الزهد ص ٢٦٤ .
(٤) ن . م ص ٢٧٠ .
(٥) ن . م ٢٦٢ .
(٦) ابن سعد / الطبقات جـ ٧ ص ١٦٧ .
(٧) ابن سعد / الطبقات جـ ٧ ص ١٧٦ .
(٨) ابن قتيبة / عيون الأخبار جـ ٢ ص ٣٧٠ .

لا يستطيع المزيد ، فتعجب بقوله « سبحان الله ! ويأكل المسلم حتى لا يستطيع أن يأكل ؟!! »[1] ، فهو يود لو طبق المسلمون الحديث الذى يحض على الأكل دون الشبع الكامل الذى لا يقبل المزيد .

ويتضح هذا المنهج الوسط فى قوله أيضا « إن المؤمن أخذ عن الله أدبا حسنا إذا وسع عليه أوسع ، وإذا أمسك عليه أمسك »[2] ، وهو يعنى بالوسع هنا ، الإنفاق فى أوجه البر ، إذ يقول « وجهوا هذه الفضول حيث وجهها الله عز وجل »[3] . وبالمثل عند صحبة الناس ومعاملتهم ، فهو ينصح بالحب هونا ، والبغض هونا ، لأن الإفراط فى كليهما يؤدى إلى اهلاك[4] .

أما عن كراهيته للإسراف فتتضح من مقارناته بين المسلمين فى عصره والسابقين عليهم . فقد كره التنعم ، وحض على الاكتفاء بحد الكفاف ، لكى يتمكن المسلم من اقتصاد الزائد عن الكفاف ليوم فقره[5] . وكان يحلف بالله « ما عال مقتصد قط »[6] ، ويضرب المثل على ذلك بالصحابة والتابعين الذين لم يتخذوا العقارات والأموال ليركنوا إليها فى الدنيا ولتشتد ظهورهم — وفى هذا الوصف تعريض ظاهر لبعض معاصريه — وإنما كانوا يأخذون مما أتاهم الله من رزق ما يعيشون به بحد الكفاف « وقدموا فضل ذلك ليوم فقرهم وفاقتهم »[7] .

ولكننا نراه ، من ناحية أخرى ، يحض على لفظ الزيادة حتى لا تأخذ بتلابيب المؤمن وتصرفه عن الله تعالى . فيعقد المقارنة بين السابقين ومعاصريه — شأنه دائماً — فقد أدرك أقواماً يعزفون عن أخذ الأموال الحلال خشية على قلوبهم من الفساد[8] .

وقد تحدث إمام البصرة كثيراً عن القلوب ونواياها ، حياتها وموتها . ويبدو أن هذا السبب جعل المتصوفة ومؤرخيهم يجعلونه من أئمة شيوخهم . ولكننا بعرضنا للمعنى الذى يرومه من حديثه فيها ، فاننا سنجد الاختلاف واضحاً بينه وبينهم .

(1) ابن حنبل / الزهد ص ٢٦٨ .
(2) ن . م ص ٢٦٨ .
(3) ن . م ص ٢٦٢ .
(4) ن . م ص ٢٩٦ .
(5) ن . م ص ٢٧١ .
(6) ابن حنبل / الزهد ص ٢٧٤ .
(7) ن . م ص ٢٧١ .
(8) م . ن ص ٢٦٢ / ٢٦٣ .

من الجائز اقترابه من هذا المعنى ، لاسيما عندما نراه ينصح أحد الجالسين فى حلقته — وكان يشكو إليه قسوة قلبه — فأجابه « ادنه من الذكر — أى ممن يذكر »[1] .

وهو يتعجب من ابن آدم — وهو الاسم الذى كثيراً ما يستخدمه فى مواعظه للتقريع — ويتساءل « كيف يرق قلبك وهمك فى آخر ؟! »[2] . ويستشهد بقول مأثور « لسان الحكيم وراء قلبه » فهو دائم الرجوع إلى قلبه يستفتيه قبل أن يتكلم ، بعكس الجاهل الذى يقف فى الطرف المقابل من هذه المقارنة ، فإن قلبه فى طرف لسانه »[3] .

فالقلوب إذا رقت وصلحت استنارت البصيرة ، فعرفت ما ينتظر أصحابها يوم الهول العظيم « لو أن بالقلوب حياة ؟! لو أن بالقلوب صلاحاً ؟! لأبكتكم من ليلة صبيحتها يوم القيامة !! »[4] .

ولكن لا ينبغى أن نستطرد كثيراً فى الاستدلال من عبارات الحسن عن القلوب وأحاديث الإلهام كما حاول متأخرو الصوفية ، أن يفعلوا ، لأن هذا التابعى الكبير كان وثيق الصلة بمدرسة الصحابة حيث كان للنصوص سطوتها الكبرى ، يتدبرونها ويستلهمون معناها ولا يقبلون أمرا يخالفها صراحة أو ضمنا .

ويمكننا أن نستنتج من نقد الحسن البصرى للمتظاهرين بالنسك ، ووقوفه فى وجه المتكلمين — ويسميهم أصحاب الأهواء — ورفضه الانسياق لرأى الخوارج كل هذا يؤدى بنا إلى القول بأنه لم يكن حزيناً حزن الرهبان فى صوامعهم ولبوسهم المسوح ، ولم يؤد به الحزن إلى تسليمه إلى العزلة والترهب ، ولكنه كان متيقظا لدوره كإمام من أئمة المسلمين ، عليه تقع تبعة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومرشداً مخلصا قائما بحفظ السنن والآثار ، فيذهب إلى أن القائم بهذا الدور هم نصحاء لله ، ودورهم يتلخص فى عرض « أعمال العباد على كتاب الله ، فإذا وافقوه حمدوا الله ،

---

(١) ن . م ص ٢٦٦ .
(٢) ن . م ص ٢٥٩ .
(٣) ابن حنبل / الزهد ص ٢٧١ .
(٤) ن . م ص ٢٥٨ .

وإذا خالفوه عرفوا بكتاب الله ضلالة من ضل ، وهدى من اهتدى ، فأولئك خلفاء الله »[1] .

أما تفسير حزنه الدائم ، فهو وليد تدبره لحقيقة الحياة والموت ، إذ يتذكر الموت دائماً لكى يحثه على طاعة الله والخوف منه ، ومما ساعد على سمة حزنه ، انكبابه على التفكير فى المصير المحتوم وانشغاله الدائم فى المقارنة بين الحياة الدنيا ، والحياة الأخرى بعد البعث ، إذ تصدمه دائماً حقيقة انقضاء الأولى ، التى وصفها يوم موت أخيه بالدر المفرقة[2] .

وما الداعى للفرح أو السرور بالحياة بينما فضح الموت الدنيا ؟! « فلم يترك لذى لب فرحا !![3] ، ويؤرقه كثرة ذنوب ابن آدم فهى أكثر من أن يسلم منها ، إلا ما عفا الله عنه »[4] .

ويتخذ الحسن من الذكر الدائم للموت حافزاً على إحسان العمل ، لأن طول الأمل يؤدى إلى العكس ، أى إلى إساءة العمل ، ويذكر إخوانه بما كان يفعله الأوائل ، إذ « كان رجل من المسلمين يبلغه موت أخ من إخوانه فيقول ، إنا لله وإنا اليه راجعون ، كدت والله أن أكون أنا السواد المختطف ، فيزيده الله جدا واجتهاداً[5] .

كذلك فإن للخوف هدفا محدداً ، لأنه يورث تفادى التظاهر والرياء « فبالخوف والحذر يتفقد العبد الرياء »[6] ، فإذا ما سئل عمن يفضل : العلماء الذين يذكرون الناس ويخوفونهم ، أم الآخرين الذين لايفعلون ذلك فيجيب « أنه من خوفك حتى تلقى الأمن خير ممن أمنك حتى تلقى المخافة »[7] .

من هنا أصبح واضحاً غرض إمامنا من التخويف فى خطبه وكلماته فإن جانب الوعظ يقتضى ذلك ، كما أنه — بإحساسه بمسئوليته كإمام للمسلمين — ينبغى أن يكون القدوة ، فأخذ ينكب على قراءة القران ، ويتعلق بالآيات التى تصف النار

---

(١) الشاطبى / الاعتصام جـ ١ ص ٢٧ / ٢٨ .
(٢) ابن سعد / الطبقات جـ ٧ ص ١٧٨ .
(٣) ابن حنبل / الزهد ص ٢٥٨ .
(٤) ابن قتيبه / عيون الأخبار جـ ٢ ص ٣٧٠ .
(٥) ابن حنبل / الزهد ص ٢٦٩ .
(٦) المحاسبى / الرعاية ص ١٣٢ .
(٧) ابن حنبل / الزهد ص ٢٥٩ .

وعذابها ﴿ **إن عذابها كان غراما** ﴾ ( الفرقان / ٦٥ ) قال الحسن « علموا أن كل غريم مفارق غريمه ، إلا غريم جهنم !! »[1] .

أيسمع المؤمن هذه الآية ولا يخاف ؟!

ويقف الحسن أمام قوله تعالى ﴿ **وما تكون فى شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً** ﴾ ( ١٠ : ٦٢ ) ، فيشتد خوفه ، لأن الله عز وجل يرى العبد عندما يبدأ العمل ، وبمعرفة العبد لهذه الحقيقة ، فإنه يستحى أن يقدم على ما يغضب ربه ، لأنه يتذكر اطلاعه عليه فلا يتم ما بدأه « خوفا منه وحياء ، وإجلالا له عز وجل »[2] .

ثم هناك من الآيات الكثير مما يلقى فى قلبه الخوف من عذاب ربه وكان بكاؤه أحياناً لا يخرج عن المألوف عند السابقين عند قراءة القرآن « فيبكى حتى ينحدر الدمع على لحيته »[3] .

ويدعو إمامنا إلى الاقتداء به ، بل إنه فى حضه مداومة قراءة الكتاب كأنه يدعو المسلمين إلى الاستغراق فى نفس الآيات القرآنية التى تذهله رهبة وخشية ، فيحلف بالله « لئن قرأت القرآن ، ثم آمنت به ليطولن فى الدنيا حزنك ، وليشتدن فى الدنيا خوفك ، وليكثرن فى الدنيا بكاؤك »[4]

يمكن إذن تفسير الحزن عند الحسن بأحد عاملين : إما أنه طبيعة خاصة تتفق مع الميل الشخصى للحزن حيث أخذ يلتقط الآيات التى تتفق مع هذا الاتجاه ، كما نظر إلى القرآن نظرة شاملة واتخذ منه — بأكمله — دليلا على دعواه فى الحزن . الاحتمال الثانى ، أنه كان متأثراً دائما بفكرة الموت وحقيقة انقضاء هذا العالم ، وانتقال الإنسان إلى عالم آخر . لقد تأمل مليا فى السنوات والأيام تنقضى وتقرب « ابن آدم » من نهايته المحتومة مما يجعله يستخدم فكرة العدد للدلالة على هذا الانقضاء « ياابن آدم ، أنت عدد !! ، فإذا ذهب يوم فقد انقضى بعضك !! » .

فالأمر جد خطير ، والنهاية محتومة ، والحياة الدنيا موقوتة تنقضى بانقضاء الأيام . فليعمل كل امرىء إذن من أجل الآخرة .

---

(١) ن . م ص ٢٠٨ .

(٢) المحاسبى / الرعاية ص ١٠٥ .

(٣) ابن سعد / الطبقات جـ ٧ ص ١٧٥ .

(٤) ابن حنبل / الزهد ص ٢٥٩ .

وهكذا لا تدهشنا مظاهر الحزن الذى اتسم بها الحسن ، فهى انعكاس إسلامى كما قلنا ، سبقه إليه بالبصرة أبو موسى الأشعرى الذى « صبغ البصرة وحياتها الروحية بصبغته »(١) ، فمن خطبه التى قالها بالبصرة « ياأيها الناس ابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا ، فإن أهل النار يبكون الدموع حتى تنقطع ، ثم يبكون الدماء حتى لو أرسلت فيها السفن لجرت !! »(٢) .

إن حزن إمامنا إذن إسلامى ، قرآنى بحت . وهو الحريص كما قلنا أن يكون القدوة داعياً للمسلمين إلى خوض تجربته الذاتية ، والسير فى نفس الطريق ، بل إنه بواسطة أوامره ونواهيه ، يعبر عن مكنون قلبه وإن لم يصرح بذلك . فكثيراً ما نراه ينسب المعنى إلى الغير . وربما يعنى بذلك نفسه ، ونستطيع أن نلمح ذلك من فلتات لسانه فى تفسير بعض الآيات فى مثل قوله تعالى ﴿ **يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين** ﴾ ، فيفسرها بكلمات قليلة ، فيقول « هو الخوف الدائم » (٣) . كما أنه فى استخدامه لندائه الملازم له فى مواعظه « ياابن آدم » ، نراه أحيانا قد يعنى نفسه ، فقد رؤى يكرر عبارة لنفسه وهو منفردا ثلاث مرات !!(٤) . كما يردد أيضاً « يرحم الله رجلا لم يغره ما يرى من كثرة الناس . ابن آدم ، تموت وحدك ، وتدخل القبر وحدك ، وتبعث وحدك ، وتحاسب وحدك . ابن آدم ، أنت المعنى وإياك يراد »(٥) .

وهل يشك مسلم فى هذه الحقيقة ؟

إنه فقط يذكرنا حتى لا ننسى فى زحمة الحياة الاجتماعية الصاخبة ــ لاسيما فى حياتنا المعاصرة . إن مصيرنا حتما إلى المساءلة الفردية فليحاسب كل منا نفسه قبل أن يحاسب .

---

(١) د . النشار / نشأة الفكر جـ ٣ ص ١٢٥ .
(٢) ابن حنبل / الزهد ص ١٩٩ .
(٣) المحاسبى / الرعاية ص ٥٠ .
(٤) ابن قتيبة / عيون الأخبار جـ ٢ ص ...
(٥) ابن حنبل / الزهد ص ٢٧١ .

## خامساً : الشام

إن وقوع بلاد الشام فى الطرف الشمالى من الجزيرة العربية ، واقترابها من بلاد الروم ، جعل الباحثين من المستشرقين يتخذون من هذه العوامل سببا فى إيجاد المؤثرات المسيحية فى رجال الزهد المسلمين . يصور أستاذنا الدكتور النشار فى سخرية لاذعة خطأ هؤلاء الباحثين حين ادعوا ذلك بقوله « ولكن هؤلاء المستشرقين والباحثين فى الدراسات الإسلامية من الأوربيين يرون أنه حين أتى العرب من أعماق صحرائهم لم يفعلوا شيئاً ، سوى أن قفزوا أيضاً على الأديرة والرهبان ، وفتحوا الكنائس ، يقرأون مافيها من حكمة الروح ، ويعتبرونها قانونهم الأزلى » !![1] .

وسننقب وراء هذه الدعوى فى بحثنا لأفكار شيوخ هذه المدرسة .

أما الاتجاهات الغالبة على الشام — كما يراها ابن تيمية — فكان النصب ، أى العداء لعلى بن أبى طالب — والقدر[2] ، أى القول بنفى القدر .

ولكن أئمة أهل السنة ببلاد الشام ظلوا محبين للخليفة الرابع ، واتخذوا جانب المعاندة للقدرية ، كما سيتضح لنا عند الحديث عن الأوزاعى فقيه الشام بصفة خاصة .

وعلى قمة مدرسة الشام يقف أبو الدرداء . وكنا قد عرضنا للحياة الوجدانية وأعمال القلوب عنده أثناء حديثنا عن زهد الصحابة رضى الله تعالى عنهم جميعا .

أما هنا ، فإننا سنلقى نظرة على أئمة المدرسة الذين سلكوا الطريق بعد الصحابى الجليل ، منذ أبى مسلم الخولانى وبلال بن سعد وعبد الله بن محيريز إلى الأوزاعى والدارانى والتسترى .

ولعل خير ما يعوضنا عن معاودة الحديث عن أبى الدرداء ، هو أن نعرض

---

(١) د. النشار / نشأة الفكر جـ ٣ ص ٣٩٤ .   (٢) ابن تيمية / مذهب أهل المدينة ص ٢٢ .

للزهد عند عمر بن عبد العزيز .

## ١ ــ عمر بن عبد العزيز « ١٠١ هـ = ٧١٩ م » :

لمع اسم عمر بن عبد العزيز كزاهد حتى كاد يخفى سيرة خلافته العادلة ، ويبقى زهده وورعه . ولكن الحق أن سيرة الخليفة الذى يعده أهل السنة والجماعة من سلسلة الخلفاء الراشدين ــ هذه السيرة أبت إلا أن تقرن عدله بزهده ، وكأن خلافته دعمت نظرية الزهد وغذتها ، فأثبت أنه فى الإمكان الجمع بين الخلافة والزهد ــ أعنى بين الرياسة أو امتلاك ناصية الحكم والتصرف فى شئون المسلمين ، وبين الحياة الوجدانية وأعمال القلوب فى إطارها الإسلامى الأصيل الذى يعد عمر بن عبد العزيز أحد الرواد الأوائل فيه ، فأصبح من المألوف أن يعتبره أهل السنة والجماعة خامس الخلفاء الراشدين[١] .

ويبدو أنه أثر فى زهاد الشام تأثيرا كبيرا ، إذ اتخذوا منه قدوة ، فيصفه أبو سليمان الدارانى بأنه أزهد من أويس القرنى ، لأن عمر ملك الدنيا بحذافيرها وزهد فيها ، ثم تساءل عن حال أويس لو ملك ما ملكه عمر كيف يكون ؟ . ويعلق على ذلك بقوله « ليس من جرب كمن لم يجرب »[٢].

والحق أن هذه المقارنة ليست فى موضعها تماماً ، لأن خشية أويس القرنى تتصل بإحساسه بمسئوليته عن نفسه ، أما عمر بن عبد العزيز فقد كان يشتد خوفه لأنه يشعر بعبء مسئولية الرعية بأكملها ، فقد سئل على أثر مبايعته ــ وهو مغتم مهموم ــ عن سبب هذا الهم الظاهر على ملامح وجهه ، فأرجعه إلى أنه ما من أحد من أهل المشارق والمغارب من الأمة ، إلا ويطالبه بحقه ، سواء كتب له أو لم يكتب مطلبه[٣] . لقد أدرك أنه يحمل عبء الأمة كلها على كاهله ، وذكّرنا بموقف مشابه لعمر بن الخطاب رضى الله عنه .

وكان له صلة أيضا بزهاد البصرة ــ وعلى رأسهم الحسن البصرى ــ وكذلك بالمدينة وإمامها حينئذ سعيد بن المسيب ، فقد أصبح هذا المثلث المدعم بثلاثة من التابعين ، سمة بارزة للحياة الوجدانية والمحافظة على القيم الإسلامية المثالية حينذاك ،

---

(١) ألحقه سفيان الثورى بالخلفاء الراشدين ، وعد الخلفاء خمسة ( ابن الأثير / الكامل جـ ٥ ص ٢٦ ) .
(٢) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ٢٠٨ . (٣) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ١٩٨ .

كل فى مجاله .

وتبادل الخليفة مع هذين التابعين الرسائل المتعددة فى مجال الاستمساك بهذه القيم ، بل إن تأثيره تعداهما إلى عامة الناس إبان حكمه لتقليده فى قراءة القرآن والصلاة والعبادة ، فأصبح المسلمون يقلدونه « يلقى الرجل الرجل فيقول . كم وردك ؟ كم تقرأ كل يوم ؟ ماذا صليت البارحة ؟ »[(١)].

وحرص على دوام صلاته بالحسن البصرى ، وكانت رسائل إمام البصرة تصله بصفة مستمرة ، تحمل تحذيراته بكلماته الحادة النبرات التى تلخص مذهب إمام أهل البصرة « أما بعد ، فكأن الدنيا لم تكن ، وكأن الآخرة لم تزل ، وكأن ما هو كائن قد كان ، والسلام »[(٢)].

والظاهر أن مثل هذه الكلمات كانت تؤثر فيه بعمق ، فتكلم عن الموتى والقبور ، واشتد خوفه وفزعه من الموت ، فكان يؤرقه تصور القبر الذى يراه « بيتا تحوم فيه الهوام ، وتخترق فيه الديدان ، ويجرى فيه الصديد ، مع تغير الريح وبلى الأكفان ، بعد حسن الهيئة وطيب الريح ونقاء الثوب »[(٣)].

فهل كان خوفه صادرا فقط عن تصور ما بعد الموت خشية العقاب ؟ أم أنه تأثر بالحسن البصرى فى نظريته التى ملأ بها البصرة عن الخوف ونبع منها بكاؤه المتواصل كأنه كالعائد فى لحظته من تشييع جنازة ؟

الواقع أن الاحتمالين صحيحان ، والمرجح أن التكوين الشخصى للخليفة جعله قابلا لنظرية الخوف منذ نشأته الأولى القرآنية « فإنه جمع القرآن وهو صغير »[(٤)]. فقد كان عمر بن عبد العزيز يرهب الموت ويذكره منذ طفولته ، إذ أثار دهشة أمه فى إحدى المرات لبكائه فسألته عن سبب بكائه فقال « ذكرت الموت !! »[(٥)]. وظل الخوف يصاحبه حتى عندما ولى إمارة المؤمنين ، ولم تنسه أبهة الخلافة هذه الحقيقة اليقينية .

---

(١) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ٢٠٨ .

(٢) أبو محمد بن الحكم ( ٢١٤ هـ ) رواية ابنه أبى عبد الله ٢٦٨ هـ : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٩٠ .

(٣) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ٢٠٤ . (٤) ن . م ص ١٩٢ .

(٥) ن . م ص والصفحة .

ويظهر ذكره للموت والخوف من الحساب بشكل واضح فى خطبه المختلفة . من ذلك قوله « فاتقوا الله قبل القضاء ، وراقبوه قبل نزول الموت بكم »[1]. ولهذا كان يوضع مع الحسن البصرى فى مرتبة واحدة من حيث الخوف والخشية ، حتى قيل « ما رأيت أخوف من الحسن وعمر بن عبد العزيز كأن النار لم تخلق إلا لهما »[2] .

وكثيرا ما كان يبكى وهو يخطب ، فيبكى السامعين حوله وبلغ أحيانا من قوة أثر مواعظه المكتوبة إلى عماله أن بعضهم عزل نفسه[3] ، كما يشتد خوفه إذا ماانفرد بنفسه ، فوصفته امرأته بأنها لم تر أحدا أشد فرقا من ربه منه[4] . والخوف من الآخرة عنده هو باب الأمان والاطمئنان فإنه « لا يأمن غدا إلا من حذر اليوم الآخر وخافة »[5] .

أما تعريفه للدنيا فقد حدد لها صفاتها ، فهى عنده مرادفة لمعانى الفناء والخوف والهلاك والقلة ، ويتعجب ممن يفضلها عن الحياة الآخرة ، فإن من يفعل ذلك يصبح بمثابة « من يبيع فانيا بباق ، ونافدا بما لا نفاذ له ، وقليلا بكثير ، وخوفا بأمان »[6] . إنه يتفق فى هذا التعريف مع باقى الزهاد فى عصره ، فقد سبق للحسن البصرى أن كتب له بناء على طلبه ينصحه ، فوصف له الدنيا بأنها دار مخوفة « تهين من أكرمها وتكرم من أهانها وتفقر من جمع لها ، لها فى كل يوم قتيل » ، ثم نصحه إمام أهل البصرة بقوله « فكن ياأمير المؤمنين كالمداوى لجرحه ، واصبر على شدة الدواء لما تخاف من طول البلاء »[7] .

وكأن بالحسن البصرى يعرف مسبقا منحى الخليفة فى الحياة ، ونظرته للدنيا ومعرفته بالناس حيث وضع لنفسه دستورا فى الحكم والرياسة ، لو اتبعه حكام المسلمين بعده فربما صاروا مثله . وإننا لنتأمل بنود هذا الدستور من سياق أول خطبة ألقاها حيث اشترط لمن يريد صحبته أن يرفع إليه حاجة من لا يستطيع رفعها ، ويعينه على الخير بجهده ، ويدله من الخير على ما يهتدى إليه ، ثم يستطرد فى خطبته

---

(١) ن . م ص ١٩٩ .
(٢) ابن سعد / الطبقات الكبرى جـ ٥ ص ٢٩٨
(٣) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ٢٠٨
(٤) ن . م ص ٢٠٤ والطبقات جـ ٥ ص ٣٦٧
(٥) ن . م ص ١٩٩ .
(٦) ن . م والصفحة
(٧) ابن الحكم / سيرة عمر ص ١٢٣

« ولا يغتابن أحدا ولا يعترض فيما لا يعنيه » . وهنا يعلق ابن الأثير « فانقشع الشعراء والخطباء وثبت عنده الفقهاء والزهاد وقالوا ما يسعنا نفارق هذا الرجل حتى يخالف قوله فعله » [1].

ولكن ظل قوله مطابقا لفعله حتى دفع امرأته للشكوى من جراء الخلافة « يا ليت كان بيننا وبين الخلافة بعد المشرقين فو الله ما رأينا سرورا منذ دخلنا فيها » [2].

وليس أدل على ذلك من شهادة أحد الصحابة المعاصرين له — وهو أنس بن مالك إذ يقول « ما صليت خلف إمام بعد رسول الله ﷺ أشبه بصلاة من إمامكم هذا » [3].

وإننا لنجد صدى تأثر عمر بن عبد العزيز بسيرة أبي بكر الصديق أيضا إذ تكاد تتطابق كلماته مع الخليفة الأول . لقد قام مرة فى مسجد دمشق « ثم نادى بأعلى صوته : لا طاعة لنا فى معصية الله » [4] . وفى مناسبة أخرى ينبه المسلمين إلى دوره الحقيقى فيعلن لهم : « لست بقاض ولكنى منفذ ، ولست بخير من أحد ولكنى أثقلكم .. ولست بمبتدع ولكنى متبع » [5].

ولا جرم أن أمير المؤمنين كان يستمسك بالسنة استمساكا شديدا ، ويعظم منهج الخلفاء الراشدين ، لأن الرسول ﷺ ، وولاة الأمر من بعده سنوا سننا ، هى باختصار « اعتصام بكتاب الله وقوة على دين الله ، ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها ، ولا النظر فى أمر خالفها ، من اقتدى بها فهو مهتد ، ومن استنصر بها فهو منصور ، ومن تركها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيرا » [6] .

هذا هو أمير المؤمنين ، وأمير زهادهم أيضا ، الذى كان يتعشى كسرا وزيتا [7] لأنه يفسر قوله تعالى ﴿ فكلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ بأنها تعنى طيب الكسب لا طيب الطعام [8] .

---

(1) تاريخ الكامل جـ ٥ ص ٢٥ .

(2) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ٢٠٤ .

(3) ابن الحكم / سيرة عمر ص ٢٨ .

(4) ابن سعد / الطبقات الكبرى جـ ٥ ص ٣٤٣ .

(5) ن . م ص ٣٦٨ .

(6) ابن الحكم / سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٣٥ .

(7) ابن سعد / الطبقات الكبرى جـ ٥ ص ٣٧٢

(8) ن . م ص ٣٦٧ .

ولنا بعد ذلك أن نتعجب — كما فعل أستاذنا الدكتور النشار — من انصراف المستشرقين عن عمر بن عبد العزيز ، بينما نسجوا قصة خيالية من إمارة إبراهيم بن أدهم محاولين — فى تعسف مضحك — ليجعلوا منه بوذا الثانى[1]

## ٢ — أبو مسلم الخولانى :

ونعثر من بين الذين عاشوا بأرض الشام على زاهد مشهور ، وهو أبو مسلم الخولانى ، فقد جمعت الأخبار الكثيرة عنه بين الزهد وبين معارضة معاوية رضى الله عنه ، إذ ينقل لنا ابن حنبل كثيرا من مواعظه التى يشتد فيها عليه ، فيوجه إليه أعنف العبارات وأقساها .

من ذلك أنه صاح بمعاوية رضى الله عنه وهو جالس على منبر دمشق فقال له : « يا معاوية ، إنما أنت قبر من القبور » !![2] ، فاستخدم القبر كناية عن الموت . ويشرح بعد ذلك معنى الخلافة بأنها ليست جمع المال وتفرقته ، ولكنها فى رأيه إقامة الحق واتباع العدل وأخذ الناس فى ذات الله ، فقدم لنا نموذجا يقتدى به لموقف العالم الذى يراقب الحاكم ويوجهه لتنفيذ قيم الحق والعدل .

ويسلك أبو مسلم طريق الزهاد فى نبذ الدنيا ، وينعتها بأنها « الخربة » ، فنقرأ له وصفا يشبه ما وصل إلينا من نصوص على لسان زاهدين آخرين يصفون الدنيا بأوصاف مشابهة . فقد أتى خربة فوقف أمامها يتحدث عن أهلها الذين ذهبوا ولم تبق إلا أعمالهم « انقطعت الشهوة وبقيت الخطيئة »[3] .

كذلك يحوم حول المعانى التى تدور حول التوبة ، والخطيئة . ويصيح فى المسلمين يخاطبهم بنداء « ابن آدم » ، كما فعل الحسن فيما بعد بالبصرة ، فيقول « ابن آدم ! ترك الخطيئة أهون من طلب التوبة » !![4] .

ومن النظر فى التشابه فى استخدام هذا الأسلوب ، نستطيع تفسيره بتأثير العلماء فى بعضهم البعض ، ودورانهم حول نفس المعانى ، لما نلاحظه من الاتفاق فى الكلمات والعبارات . ومن المحتمل أن الخولانى كان له دوره فى الحياة الوجدانية

---

(١) د. النشار / نشأة الفكر جـ ٣ ص ٤٢٦ .
(٢) ابن حنبل / الزهد ص ٣٩١ .
(٣) ن . م ص ٣٩٣ .
(٤) ن . م والصفحة .

بالبصرة أيضا قبل أن ينتقل إلى دمشق ، إذ يذكر ابن سعد أنه من أهل البصرة[1] .

وقد أورد ابن حنبل فى كتاب الزهد حديثا نبويا يتصل فى طرفه الأعلى من إسناده بأبى مسلم الخولانى — وهو قول الرسول ﷺ « ما أوصى الله إلى أن أجمع المال وأكن من التاجرين ، ولكن أوصى إلى أن ﴿ **سبح بحمد ربك وكن من الساجدين ، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين** ﴾ [2] .

وتمتزج فى شخصية أبى مسلم ملامح شخصية الزاهد بملامح الشخصية الفعالة فى حياة الجماعة الإسلامية . فهو يستنكر ما يراه من مظاهر لا يرضى عنها ، فيطوف ينعى الإسلام !![3] ولا يخشى معاوية رضى الله عنه عندما يستدعيه ليوضح له جلية الأمر — أى سبب نعيه للإسلام — وإنما يعنفُ فى رده عليه ، ويذكره بأنه إذا عمل خيرا جزى به ، وإن عمل سوءً جزى به ، ثم يصرخ فى وجهه : ( يا معاوية ! لو عدلت على أهل الأرض كلهم ، ثم جرت على رجل واحد لمال جورك بعدلك ) !![4] . وربما أسهمت مثل هذه المواقف الشجاعة فى جعل معاوية رضى الله عنه أعدل ملوك المسلمين قاطبة .

ويضع صاحب ( الطبقات الكبرى ) الخولانى فى مرتبة الطبقة الثانية من التابعين [5] .

## ٣ — عبد الله بن محيريز ( ٩٩ هـ = ٧١٧ م )

وأما ابن محيريز فإن ابن سعد يعده أيضا من الطبقة الثانية للتابعين بالشام[6] ، وهو من الشيوخ الذين تلقى الأوزاعى منهم ، وطالب الأمة بالاقتداء به ، وأوجز صفاته بقوله عنه ( من كان مقتديا فليقتد بمثله ، فإن الله لايضل أمة فيها مثله )[7] .

اشتهر عبد الله بالعبادة ، والإكثار من قراءة القرآن ، واعتزال الفتن وقد ذكر ابن كثير بعد وصفه باعتزال الفتن مباشرة بأنه ( كان لايترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ) ، فقد يظهر التعارض بين الوصفين ، لأن الاعتزال يعنى السلبية ، بينما

---

(١) ابن سعد / الطبقات الكبرى جـ ٧ ص ٤٤٨ . (٢) ابن حنبل / الزهد ص ٣٩١ .
(٣) ن . م ص ٣٩٣ . (٤) ن . م والصفحة .
(٥ ، ٦) ابن سعد / الطبقات الكبرى جـ ٧ ص ٥٤٧ . (٧) ن . م والصفحة .

يطلب مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إيجابية ومجابهة وتصرف إزاء المواقف التى تستلزم تطبيق هذا المبدأ . ولكن ما جاء بترجمة الشيخ بالطبقات الكبرى قد يلقى بعض الضوء على هذا التناقض ما بين العزلة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . فقد أورد ابن سعد نصا على لسان عبد الله قال فيه مستنكراً لأحد أعوان بنى أمية فيما يرجح لأنه يتضمن نقداً صريحا لتصرفاتهم ( يا أبا إسحاق ! عطلتم الثغور ، وأغزيتم الجيوش إلى الحرم وإلى مصعب بن الزبير )[1] . ونصحه السامع بالحذر ، ويبدو أنه سرعان ما أخبر عبد الملك الذى استدعاه ، وأمره بلزوم الصمت ، وظهرت فى لهجته مسحة من التهديد .

ويختتم ابن سعد هذا الخبر بأن ابن محيريز رأى أنه قد غنم نفسه يومئذ [2].

ويحتمل إذن أن عبد الله بن محيريز آثر العزلة بعد هذا الحادث . ولكننا نراه — مع هذا — ينكر لبس الحرير حتى ولو كان بغرض التزين لمقابلة أمير المؤمنين . ويعلق ابن محيريز بقوله ( لا تعدل بخوفك من الله خوف أحد من المخلوقين )[3] إنه استمر إذن فى العمل بمبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى النطاق المستطاع ولم يتركه .

ولكن خوضه فى الحياة العامة لم يمنعه من الاستغراق فى العبادة حتى ( كان يفرش له الفراش فلا ينام عليه ) واشتهر بعبادته بين أهل الشام حتى وصفه أحدهم بأنه ( إن يفخر علينا أهل المدينة بعابدهم ابن عمر ، فإنا نفخر عليهم بعابدنا عبد الله بن محيريز )[4] .

ترابطت إذن حلقات أئمة المسلمين بين الأمصار المختلفة وتبادلت التأثيرات بينها وتألفت منهم مجموعة مزدهرة ، أصبحت عنوانا على الاقتداء السليم بطريقة السابقين الأولين ، ولمعت بالشهرة بين المسلمين كالنجوم تزدان بها حياة الأمصار ، ويهتدون بها فى طريق العلم والعمل والمحافظة على القيم الإسلامية .

ولكن ابن محيريز رفض الآثار المترتبة على هذه الشهرة . فقد ذهب مرة ليشترى ثوبا ، فرفع صاحب المتجر السعر . ولكن عندما أنبأه زميل له بأن الراغب

---

(١) ابن سعد / الطبقات الكبرى جـ ٧ ص ٤٤٧ . (٢) ن . م والصفحة .
(٣) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ١٨٥ . (٤) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ١٨٥ .

فى الشراء هو ابن محيريز ، انصرف مسرعا ورفض الشراء ، وعلّل انصرافه أنه أتى السوق ليشترى بماله لا بدينه !! [1].

ويتضح لنا هنا الحرص على تطبيق المبدأ ، ورفض ما يجنيه من وراء الشهرة من منافع مادية .

### ٤ ــ بلال بن سعد ( ١٢٤ هـ = ١٧٤ م ) :

ومن شيوخ الشام أيضا بلال بن سعد ، الذى كان من الزهاد الكبار والعباد الصوام القوام[٢] . وكان بلال من رجال الحديث الثقات[٣] ووصف بأنه شامى تابعى ثقة[٤] ، وقد جاء ضمن الأقوال التى نقلها لنا ابن حنبل فى ( كتاب الزهد ) سلسلة الإسناد التالية : ابن المبارك عن الأوزاعى عن بلال بن سعد[٥] .

فتح عينيه على حال المسلمين فى عصره ، وأحزنه أن يرى الفارق بينهم وبين السابقين فيقول ( لقد أدركت أقواما يشتدون بين الأغراض ــ كناية عن النشاط ــ ويضحك بعضهم إلى بعض ، فإذا غشيهم الليل كانوا رهبانا )[٦] .

وأثر بلال فى الأوزاعى الذى كان يكتب ما يقوله ويصفه ( ما رأيت واعظا قط مثله )[٧] . ولهذا نقل لنا عنه كثيرا من مواعظه التى تتشابه مع مواعظ الحسن البصرى فى حدة النبرات ، وانتقاء الكلمات التى تؤدى إلى الهدف من أقصر طريق . إنه يصرخ فيهم بهذه الأوصاف لكى يهز فيهم الوجدان ، ويحيى فيهم موات النفوس ، منبها إياهم بأن زاهدهم راغب ، وعالمهم جاهل ، وعابدهم مقصر[٨] ، ويحذر أصحاب الشهرة من الزهاد الذين يدعون الولاية لله بينما هم أعدائه فى السر ، ويظهرون للناس خشية الله ، بينما قلوبهم فاجرة[٩] .

لذلك حاول بلال بن سعد التمسك الشديد فى تصرفاته بالاستغراق فى العبادة

---

(١) ن . م ص ٩ ص ١٨٦ .
(٢) ن . م جـ ٩ ص ٣٤٨ .
(٣) ابن سعد / الطبقات جـ ٦ ص ٧ .
(٤) ابن كثير / البداية جـ ٩ ص ٣٤٨ .
(٥) ابن حنبل / الزهد ص ٣١٥ .
(٦) ن . م ص ٣٨٥ وابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ٣٤٩ .
(٧) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ٣٤٨ .
(٨) ابن حنبل / الزهد ص ٣٨٥ .
(٩) ابن كثير / البداية جـ ٩ ص ٣٤٨ وابن حنبل / الزهد ص ٣٨٥ .

لكى يصبح قدوة حقيقية ويحض المسلمين على المحافظة بما كان عليه السابقون . فكان يقوم الليل ، فإذا نعس فى الشتاء ألقى بنفسه فى الماء البارد !! ولما عاتبه البعض أجاب ( إن ماء البركة أهون من عذاب جهنم )[1] .

ويقول فى تحذيرهم أيضا ( رب مسرور مغبون ولا يشعر ، يأكل ويشرب ويضحك ، وقد حق له فى كتاب الله أنه من وقود النار )[2] .

ويطول هذا التحذير قليلا من مصدر آخر ، إذ يكمل العبارة بكلمات رنانة نرى فيها تشابها مع تحذيرات الحسن البصرى ، إذ ينتقل فيها إلى التخصيص ، وكأنما يحدث كل شخص على حدة ( فيا ويل لك روحا ! يا ويل لك جسداً ! فليبك ، وليبك عليك البواكى لطول الأبد !! )[3] .

وقد مر بنا تعريف أحد المسلمين الأوائل للذكر . ولاشك أنهم فهموه على هذا النطاق الواسع ، فهو أوسع شمولا من الاقتصار على الذكر باللسان ، وجعلوا منه مفهوما حيا متفاعلا مع المسلمين فى حياتهم اليومية ، وفى علاقتهم بعضهم ببعض . وأيد بلال هذا المعنى فى تعريفه للذكر ، فالذكر ذكران ( ذكر الله بلسان حسن جميل ، وذكر الله عندما أحل وحرم أفضل )[4] . ويعنى بذلك العناية بالفقه .

وهنا نرى الذكر يقترن بالفقه ، بل يفضل ابن سعد فى هذا النص الفقه صراحة . إنه ينظر إلى التراث الإسلامى كوحدة ، ويدمج أحكام الظاهر والباطن فليس النظر فى أحكام الحلال والحرام إلا بواسطة الفقهاء .

أما عن تفسيره الآيات القرآنية ، فقد نفث فيها من اتجاهه الوجدانى بجلاء . وهو يختار كلام الله تعالى يحذر عباده ، فى مثل قوله تعالى ﴿ **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون** ﴾ ؟

يتلقى بلال هذه الآية القرآنية ويتجه بها إلى المسلمين منبها لهم ومعنفا إياهم ( أترغبون فى طاعة الله لدار معمورة بالآفات ؟ ولا ترغبون وتنافسون فى جنة أكلها دائم ، وعرضها عرض الأرض والسموات ؟!! )[5] ثم يعمق من معنى التهديد ، فيرى

---

(١) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ٣٤٨ .
(٢) ابن حنبل / الزهد ص ٣٨٦ .
(٣) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ٣٤٨
(٤) ن . م ص ٣٤٩ .
(٥) ن . م والصفحة .

أنه وإن كان الله تعالى يغفر الذنوب للتائب منها ، فإنه ( لايمحوها من الصحيفة حتى يوقف العبد عليها يوم القيامة )[1] ، ألا ينبغى بعد هذا للعبد أن يخجل ؟ عليه أن لا ينظر إلى صغر الذنب بل عليه أن ينظر إلى من عصى ![2].

وبالرغم من صيحاته العنيفة الغاضبة آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر ، فقد أحبه أهل دمشق ولجأوا إليه يستقون . فوقف فيهم يطلب منهم أولا الإقرار بالذنوب !! فلما أقروا بذنوبهم دعا ربه ( اللهم إنك قلت : ما على المحسنين من سبيل .. وقد أقررنا بالإساءة فاعف عنا ، واغفر لنا ) ، فسقوا يومهم هذا[3].

وينبهنا بلال إلى فكرة خلود الإنسان ـــ باعتبار الحياة الأخرى ـــ فيذكرنا بالانتقال من الأصلاب إلى الأرحام ، ثم إلى الدنيا ، فالقبور فإلى الموقف .. ( ومن الموقف إلى الجنة أو النار )[4].

ولعل فى المقارنات التى يعقدها هؤلاء الأئمة بين أجيالهم التى عاصروها ، وبين الأجيال السابقة عليهم ، تجعل لهم دورا جديدا فى محاولة التمسك بالاقتداء بالسلف وما قاموا به من أعمال وما استمسكوا به من قيم إسلامية رفيعة ، فعارض الاتجاهات الطارئة التى تحمل فى طياتها معالم التأثيرات الأجنبية التى من شأنها تبديل المعالم التى شبوا عليها ورأوها . وكان بلال بن سعد قد رأى الاتجاه نحو الكلام المبتدع فى الدين بدأ يزحف على المسلمين فأزعجه ترك المسلمين للأعمال الصالحة كالصلاة وفعل الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهو شأن الناس الذين أدركهم وكانوا يتحاثون عليها ، ثم يقول ( أما أنتم اليوم ، فتحاثون على الرأى )[5]. لقد خشى على المسلمين بعد انصرافهم عن الأعمال الجادة المثمرة وتحولهم إلى الجدل الذى لا طائل وراءه .

## ٥ ـــ الأوزاعى ( ١٥٧ هـ = ٧٧٣ م ) :

هو عبد الرحمن بن عمرو بن محمد شيخ الإسلام وعالم أهل الشام[6]

---

(١) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ٣٥٠ . (٢) ن . م ص ٣٤٩ .
(٣) ن . م والصفحة .
(٤) ن . م والصفحة وابن حنبل / الزهد ص ٣٨٥ . (٥) ابن حنبل / الزهد ص ٣٨٤ .
(٦) الذهبى / سير أعلام النبلاء مجلد ٦ قسم١ ورقة ٣٠ .

اشتهر بأنه فقيه أهل الشام ، كما وضع فى مجال الزهد بالمقارنة بسفيان الثورى فقيل إنه مع تساويهما فى المرتبة ، إلا أن الأوزاعى ( كان رجل عامة وأما الثورى فكان رجل خاصة نفسه )[1] .

وسلك الأوزاعى سبيل الزهد فى حياته أيضا فلم يمسك شيئاً من نصيبه فى بيت المال ، بل كان ينفقه فى سبيل الله وفى الفقراء والمساكين ، ولم يقتن شيئا من العقار . وقد رفض تولى القضاء حين عرض عليه[2] .

وعاصر فقيهنا عهدى بنى أمية وبنى العباس ، ودرات مناقشة بينه وبين عبد الله بن على عم السفاح ، يهمنا أن نستشف من خلالها أسلوب علماء السلف فى الرد والمناقشة . ولعله نفس الأسلوب الذى تمسك به ابن حنبل بعده .

إن الخليفة طلب رأى الأوزاعى فى أمور ثلاثة : إزالة حكم بنى أمية وهل يدخل فى دائرة الجهاد والرباط فى سبيل الله ؟ ومدى إحلال دمهم وأموالهم .

أجاب الأوزاعى عن السؤال الأول بالحديث الذى نصه ( إنما الأعمال بالنيات .. ) . وقدم رأيه عن السؤال الثانى من خلال الحديث الذى ينص على أنه ( لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الزانى ، والتارك لدينه المفارق للجماعة ) . أما عن أموالهم ، فأجابه بصراحة قاطعة : إن كانت فى أيديهم حراما ، فهى حرام عليك أيضا ، وإن كانت حلالا فلا تحل لك إلا بطريق شرعى[3] .

وهكذا يؤدى دور العالم الذى يجعل من نفسه مراقبا للحاكم لا منافقا له .

ونرى أيضا من إجابات هذا الفقيه تمسكا شديداً بالعلم النبوى بالرغم من أنه كان يوجس خيفة من عبد الله أثناء الحديث بينهما ( وكان ينتظر رأسه ان تسقط ) لأن حراس الخليفة على جانبيه معهم السيوف مصلتة[4] . ولكن خشيته لم تمنع مجاهرته بصريح رأيه ، مستندا على النص الصحيح المنقول . ثم إن هذا الموقف يكشف عن منهجه ، فهو الذى ينصح بالوقوف حيث يقف السلف ومتابعة آثارهم

---

(١) ن . م ورقة ٣٧ .

(٢) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ١٠ ص ١٠٨

(٣) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ١٠ ص ١١٨ .

(٤) ن . م والصفحة .

وإن رفض الناس . وحذر من أقوال الرجال وإن زخرفوه وحسنوه[1] . لهذا فإن من الخطأ — فى رأى الذهبى — ما ذهب إليه إسحق بن راهويه حين قال ( إذا اجتمع الثورى والأوزاعى ومالك على أمر فهو سنة )[2]. لأن الأوزاعى نفسه يرفض ذلك وينادى باتباع العلم الذى جاء عن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . وقد اعترض الذهبى على هذا الرأى لأن السنة ما سنه الرسول والخلفاء الراشدون من بعده ، ويستطرد قائلا ( وإنما مراد إسحق أنهم إذا اجتمعوا على مسألة فهو حق غالباً )[3].

وكان دأب الأوزاعى القيام بالوعظ . وبلغ من عمق وعظه حداً كان يبكى الناس معه ، ويحرص على أن يصبح قدوة إذ يقول ( كنا قبل اليوم نضحك ونلعب ، أما إذا صرنا أئمة يقتدى بنا ، فلا نرى أن يسعنا ذلك ، وينبغى أن نتحفظ )[4] . ولهذا كان كثير العبادة ، قليل الضحك ، لم ير مقهقها قط ، طويل الصمت شديد الاجتهاد فى العبادة .

واقتدى بالسلف فى عباداته ، متبعا لما سمع منهم ، فإذا صلى الصبح أخذ يذكر الله حتى تبزغ الشمس ، لأن السلف دأبوا على ذلك ثم يتذاكرون الفقه والحديث بعدها . وقد فسر الآية ﴿ **ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا ، إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا** ﴾ .

إن إطالة القيام فى صلاة الليل تهون عن صاحبها طول القيام يوم الساعة .

كذلك عرف فقيهنا بكثرة البكاء فى صلاته حتى يبتل مكان سجوده .

وارتباط الأوزاعى بالسلف جعله يحض على السنة وسلوك طريقها والصبر عليها ، حاثا على أخذ العلم عن أصحاب محمد ﷺ وطرح ما عداه ناهياً عن الجدل المفضى إلى إعاقة العلم والعمل .

ويبدو أن فقيهنا تضمخ بطابع الحزن أيضاً ، فمن النصوص التى أوردها ابن

---

(١) ن . م ص ١١٧ .

(٢ ، ٣) الذهبى / سير أعلام النبلاء مجلد ٦ قسم ١ ورقة ٣٨ .

(٤) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ١٠ ص ١١٩ .

كثير نراه يخوف سامعيه من المصير المنتظر ، ويحذرهم من لقاء الله والقيام بين يديه ، وهو المصير المحتوم لهم جميعاً . كما ينبه القوم إلى حقيقة الرحيل من هذا العالم ، كما فعل أصحاب القرون الخالية ، الذين مضوا من قبل تطويهم السنين طيا ، مستخدما الأساليب القرآنية فى التشبيه ، مستعيرا من الآيات ما يخدم هذا الغرض . إنه يصف السابقين الذين نسوا الموت والعمل للآخرة ( .. فخردوا الجبال ، وجابوا الصخر بالواد ، وتنقلوا فى البلاد ، مؤيدين ببطش شديد ، وأجساد كالعماد )[1] . ثم أصبحوا بعد ذلك عبرة . وينهى السامعين عن خداع الأمل فى الحياة الدنيا ، ويحض على العمل للعالم الآخر .

أما عن موقف الأوزاعى إزاء القدرية — أى نفاة القدر — فإن من السهل أن نتثبت من صحة رأى ابن تيمية الذى قال فيه إن إمام الشام كان معانداً لهم ، وفى هذا الصدد ، نعثر على نص هام أورده أبو بكر بن عبد الله ( ٤٥٣هـ = ١٠٦١ م ) صاحب كتاب ( رياض النفوس ) نستدل منه على أن الشيخ عالج موضوع ( الأمر والإرادة والاختلاف بين الاثنين )[2] ، وذلك قبل السالمية بوقت طويل .

وفى خلال المناقشة التى دارت بين القدرى والأوزاعى . سأله الأوزاعى ثلاثة أسئلة وهى ( هل علم أن الله عز وجل قضى بما نهى عنه ؟ وأنه حال دون ما أمر به ؟ وأنه أعان على محرم ؟ ) . وقد أجاب القدرى إنه لا علم له بهذه الحالات الثلاث ، بل وقف مشدوها فى كل مرة يسأله فيها الأوزاعى .

أما الإجابة عن الأسئلة الثلاثة — كما يراها فقيهنا — فهى أن الله تعالى ( نهى آدم عن أكل الشجرة وقضى عليه بأكلها ، وأنه أمر إبليس بالسجود لآدم وحال بينه وبين ذلك ، وأنه تعالى حرم الميتة وأعان المضطر على أكلها )[3] .

---

(١) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ١٠ ص ١١٩ . وينقل ابن كثير مادته من ابن أبى الدنيا صاحب كتب الرقائق والزهد .

(٢) د. النشار / نشأة الفكر جـ ١ ص ٦٤٤ ط ١٩٦٦ .

(٣) أبو عبد الله المالكى / رياض النفوس .

### ٦ ـــ أبو سليمان الدارانى ( ٢١٥ هـ = ٨٣٠ م ) :

إنه من المحدثين أيضاً ، ولكن ابن الجوزى يذكر أنه اشتغل بالتعبد[١] . ويقول صاحب الحلية إنه أسند القليل ، ومن مفاريده حديث القوم الذين تخلقوا ببعض أخلاق حميدة من الجاهلية . فأقرهم الرسول ﷺ[٢]. كما سيأتى فى السياق .

إنه من المطبقين لمبدأ قطع كل علاقة تصرف العباد عن الله فيقول ( كل ماشغلك عن الله عز وجل من أهل ، ومال ، وولد فهو عليك شؤم[٣] . من أجل ذلك ، فإن أقرب ما يتقرب به إلى الله أن ينزع العابد من قلبه ما يشغله من متاع الدنيا ونعيم الآخرة ، إلا هو عز وجل[٤] .

والدارانى ممن عانى كثيراً من المجاهدات ، متهجدا بالليل قواما ، ويرى فى طاعة الله لذة لا يجدها أهل اللهو بلهوهم[٥] ، ولكنه متبع للسلف فى مجاهداته ، فلا يقبل منها إلا ما شهد بصحته الكتاب والسنة ، ويسعى إلى رزقه أولا فيحصل على لقمة العيش ، ثم يتعبد ؛ مستنكفا ممن ينتظر الطعام من إنسان آخر . وهو يرجو عفو الله عن خطاياه فيكره الموت آملا أن يمتد به العمر لاحتمال توبته . ولهذا فإنه يغلب عليه محبة الله عن الخوف منه لأنه لا يمكن للحبيب أن يعذب أحبابه[٦] .

ومن الواضح من واقع أقواله التى أوردها الأصفهانى أنه يرى التوفيق للطاعة فضل من الله تعالى ، وعارض القدرية لأنه يعد العمل ـــ عمل العابد ـــ نعمة من الله ، فلا ينبغى للعبد أن يعجب بعمله ويقول ( فأما من زعم أنه مستعمل فبأى شىء يعجب ؟! )[٧] .

وهو ممن يرى إخفاء العبادة عن الغير وعدم الإفصاح ، عنها لأنها سر بين العبد وربه ، فلا ينبغى أن يعلن عنها ويجاهر بالذى بينه وبين ربه ، الأمر الذى جعله يكره لبس الصوف ، لأنه نوع من التظاهر وأجاز لبسه فى حالتين فقط هما :

---

(١) ابن الجوزى / صفة الصفوة جـ ٤ ص ٢٠٦ .
(٢) ابن نعيم / الحلية جـ ٩ ص ٢٧٩ .
(٣) ابن الجوزى / صفة جـ ٤ ص ١٩٨ .
(٤) ن . م ص ٢٠٧ .
(٥) ن . م والصفحة .
(٦) ن م ص ٢٠٤ / ٢٠٥ .
(٧) أبو نعيم / حلية الأولياء جـ ٩ ص ٢٦٣ .

الاضطرار بسبب الفقر وأثناء السفر[1] ، وإننا لنعثر فى رأيه هذا على نوع من النقد للصوفية . كما يعطينا دليلا على أن الزهاد السلفيين — وهو إمام من أئمتهم — كرهوا الإعلان عن الزهد واتخاذ السمات البارزة لإظهار الزهد الحقيقى فى القلب ( ولا يجوز لأحد أن يظهر للناس الزهد والشهوات فى قلبه )[2]. ويفضل الدارانى لبس القطن ليستر به أبصار الناس عن الزهد ، لأنه إذا أعلنه للناس بلبس الصوف فكأنه يبدى لهم صالح عمله ويبارز بالقبيح من هو أقرب إليه من حبل الوريد !![3] .

ولئن كان الدارانى من أبرز شيوخ الشام ، إلا أنه كان له دوره فى التأثير فى الجنيد شيخ بغداد ، فنرى الثانى ينقل عنه بعض أقواله مستحسنا لها ، ولا سيما آراءه فى تفضيل الاشتغال بالله عن الناس ، وحثه على طلب الدنيا حلالا دون أن يكون مفاخراً ومكاثراً ، بل بغرض الاستغناء عن المسألة والناس وتعريفه للغنى بأنه فى القناعة وليس فى طلب المال وجمعه . ورأيه فى الراحة حيث تكمن فى القلة — وليس فى الكثرة ، وإن مصدر الكرامة هو التقوى وليس الخلق ، وأخيراً فى التنعم الحقيقى ليس فى الملابس الرقيقة أو الطعام الطيب أو المسكن المنيف ( وإنما هو فى الإسلام والإيمان والعمل الصالح والستر والعافية وذكر الله )[4] .

ونرى التطابق فى عبارتى أبى سليمان والجنيد فى إعلانهما عن منهجهما فى التمسك بالكتاب والسنة ، فقد نقل الجنيد عنه قوله ( ربما يقع فى قلبى النكتة من نكت القوم ، فلا أقبلها إلا بشاهدين عدلين : الكتاب والسنة )[5] .

وتتلخص نظرية الدارانى فى الزهد فى ارتباط الخشية من الله بمحبته .

حقا لقد أعلن تمسكه بنظرية الحب ، والعفو ، والكرم الإلهى التى تنجيه من عذاب الله عز وجل إذ يقول فى دعائه ( وعزتك وجلالك لئن طالبتنى بذنوبى لأطالبنك بعفوك ، ولئن طالبتنى ببخلى لأطالبنك بكرمك ، ولئن أمرت بى إلى النار لأخبر أهل النار أنى أحبك )[6] !!

ولكنه مع هذا الاطمئنان لحب الله وعفوه وكرمه ، ويرى أن ( أصل كل خير

---

(1) ن . م ص ٢٧٥ .
(2) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٢٥٨ .
(3) ابن الجوزى / صفة جـ ٤ ص ٢٠٦ .
(4) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٢٥٧ .
(5) ن . م ٢٥٥ وصفة ص ٢٠٤ .
(6) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٢٥٧ .

فى الدنيا والآخرة الخوف من الله عز وجل )[1] . ويتخذ من الخوف وسيلة لتربية القلب وإصلاحه . ولهذا ينبغى أن يغلب العبد عامل الخوف على عامل الرجاء لأنه ( إذا غلب الرجاء على الخوف فسد القلب )[2].

ويمضى فى شرح نظريته الأخلاقية فيعبر عن ثقته الشديدة بقوة إيمانه التى تساعده على قمع هوى النفس وتعمق إخلاصه فإذا ( أخلص العبد انقطعت عنه الوساوس )[3] . واستطاع أن يتغلب على الشيطان ، ويقول ( ما خلق الله خلقاً أهون على من إبليس ، فلولا أن الله أمرنى أن أتعوذ منه ما تعوذت منه أبداً ولو تبدى لى مالطمت إلا صفحة وجهه )[4] !! . ولكن ليس معنى هذا غرورا بل تعبير عن اليقين لأنه يخبرنا عن نفسه بأنه لو اجتمع الناس كلهم على أن يضعوه كاتضاعه عن نفسه ما أحسنوا[5] .

أما عن رأيه فى الدنيا والآخرة فإننا نراه يؤكد ضرورة العمل لهما معا ونعنى به مطالبته بالتفاعل بين الدارين ، فلا يترك الدنيا ويهملها وإنما يعمل فيها من أجل الآخرة . وقد مر بنا رأيه فى تفضيله الكسب عن الحاجة للناس وسؤالهم . ويؤيد هذا المعنى قوله ( ليس العبادة عندنا أن تصف قدميك وغيرك يفت لك ، ولكن أبدأ برغيفيك فاحذرهما ثم تعبد )[6]

أما عن نظرته إلى طبيعة العمل فى ذاته فهو يقول ( ما أحسب عملا لا يوجد له فى الدنيا لذة يكون له فى الآخرة ثواب )[7] ، فيتضح من ذلك رأيه فى التفاعل والالتحام فى الصلة بين الدارين ، ويؤكده بقوله أيضاً ( ليس الزاهد من أبقى غم الدنيا واستراح منها . أما الزاهد من ألقى غمها وتعب فيها لآخرته ) .

ويبدو أن الدارانى اهتم كمحدث — سمع من سفيان الثورى وغيره[8] بأحاديث الرقاق والقيم المثالية ، فقد انفرد بالحديث الذى يصف قوما اتصفوا وقت

---

(١) ن . م ص ٢٥٦ .

(٢) ن . م والصفحة وابن قتيبة / عيون الأخبار جـ ٢ ص ٣٥٧ .

(٣) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٢٥٧ . (٤) ن . م والصفحة .

(٥) ابن نعيم / حلية الأولياء جـ ٩ ص ٢٧٣ وابن الجوزى / صفة جـ ٤ ص ٢٠٣ .

(٦) ن . م ص ٢٠٤ والحلية جـ ٩ ص ٢٦٤ . (٧) الحلية جـ ٩ ص ٢٦٨ .

(٨) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٢٥٥ .

الجاهلية بخمس خصال هى ( الشكر عند الرخاء ، والصبر عند البلاء ، والصدق فى مواطن اللقاء ، والرضا بمر القضاء ، والصبر عند شماتة الأعداء ) . واستكمالا للحديث ، ينقل لنا فيها رأى الرسول ﷺ فيهم حيث يقول ( علماء حكماء ، كادوا من صدقهم أن يكونوا أنبياء ) . ويذكر أبو نعيم أن هذا الحديث من مفاريده ، وتفرد به عنه تلميذه أحمد بن أبى الحوارى[1] .

وهكذا نرى الدارانى المحدث بعد أن تبين لنا استمساكه بهذه القيم الإسلامية العالية .

الأصل إذن هو الإسلام ، وقد حرص على تطبيقه بعناية ، فأين المؤثرات المسيحية فى كل هذا لمن يزعم التأثر بالرهبان ؟

لقد كان الدارانى يرقب الرهبان حبا فى الاستطلاع ، إذ يبحث فى أحوالهم ويقارن بين طريقتهم فى الزهد وطريقة زهاد المسلمين . وكان قد أحس بهذه الفرحة التى سقناها فى حديثه عن القلب . فإذا ما قارنها مع أحوال الرهبان ، رأى أنهم قاموا على ماهم فيه — من انقطاع وتعبد — لشيء يجدونه هم أيضا فى قلوبهم لأنه قد يعجل لهم ثوابهم فى الدنيا ( وليس لهم فى الآخرة ثواب )[2] .

فإذا قارنا بين فرحة القلب وخشيته وخوفه ، نعثر من بين أقواله على عبارة غامضة تتناول القلب أيضا ، ولكنه فى مجال الخشية والخوف والروعة أو الرعدة على مايبدو . وننقل هنا العبارة بنصها حيث سئل : أيأتى على القلب ساعة لا يرتاح ؟ فأجاب ( لا أعرفه ، إلا من حدة فكرة ! قفز القط على السطح — يعنى قلب ابن آدم — يقول : لابد من روعة !! )[3].

ونسأل بدورنا : هل هى روعة المحبة أو روعة الخشية ؟

ربما كان الدارانى لا يفصل بين الروعتين ، لأنه أدمج دائرة المحبة بدائرة الخوف ، فهو يبكى إذا جن الليل وهدأت العيون وأنس كل خليل بخليله[4] . ويمضى .

---

(١) ن م ص ٢٧٩ وصفة جـ ٤ ص ٢٠٨ .
(٢) أبو نعيم / حلية الأولياء جـ ٩ ص ٢٧١ .
(٣) أبو نعيم / حلية الأولياء جـ ٩ ص ٢٦٥ .
(٤) ابن قتيبة / عيون الأخبار جـ ٢ ص ٢٩٧ وابن الجوزى / صفة جـ ٤ ص ٢٠٤ .

فيصور لنا كيف جرت دموعهم على خدودهم متخيلا إشراف الجليل عليهم ، يسألهم عن سبب بكائهم ( هل أخبركم أحد أن حبيبا يعذب أحباءه ؟ ) . ونفهم من هذا أن شيخنا يميل إلى ترجيح نظرية المحبة الإلهية ، فإن قلبه يخلو من محبة غير الله فيقول ( وما فى الأرض أحد أجد له محبة ، ولكن رحمة ) !!(1) . من أجل هذا ، لما شكى له تلميذه ابن أبى الحوارى شغله بامرأته ، أجابه ( إن علم الله من قلبك أنك تريد الفراغ له فرغك ، وإن كنت إنما تريد الراحة منها تستبدل بها ، فهذه حماقة ) !!(2) .

ويجمل الدارانى مذهبه فى الأخلاق فى هذه العبارة الموجزة التى يصف فيها جلساء الرحمن يوم القيامة الذين استحقوها بخصال باقية فيهم وهى ( الكرم ، والحلم ، والعلم ، والحكمة والرحمة ، الرأفة والفضل والصفح والإحسان والعطف والبر واللطف )(3) .

ولقد وضح لنا بعد عرضنا للأفكار والقيم الأخلاقية عند الدارانى وغيره ارتباط علماء المسلمين بالأصول العامة ، لأن النصوص فجرت عندهم أذواقا ومواعيد متشابهة . ومن العجب أننا نجد ابن تيمية — وبينه وبين الدارانى عدة قرون — يردد العبارة التى تعبر عن الإحساس بالمتعة من العبادة نفسها . فقد وجد ابن تيمية فى عبادة الله لذة تقربه من الإحساس بلذات أهل الجنة ، ونجد عبارة تكاد تتشابه عند الدارانى بقوله ( أنه يستمد بالقلب أوقات يرقص فيها طربا فأقول : ( إن كان أهل الجنة فى مثل هذا ، إنهم لفى عيش طيب ) !!(4) . ثم أنه يكرر أيضا نفس السبب الذى من أجله حرص السابقون على البقاء فى الدنيا ( فلولا قيام الليل ما أحببت البقاء فى الدنيا ، وما أحب الدنيا لغرس الأشجار ولا لكرى الأنهار ، وإنما أحبها لصيام الهواجر وقيام الليل )(5) .

ويرى أستاذنا الدكتور النشار أن أبا سليمان الدارانى أول من استخدم مصطلح « أهل الليل » لكى يضعه مقابلا لأهل اللهو (6) ، وهذا اتجاه يعبر به الدارانى عن رغبته فى دعوة أهل اللهو لتجربة طريقته فربما يجدون فيها من اللذات ما

(1 ، 2) ابن قتيبة / عيون الأخبار جـ 2 ص 357 و ص 363 .
(3) أبو نعيم / حلية الأولياء جـ 9 ص 266 .
(4) ابن كثير / البداية والنهاية جـ 10 ص 257 .
(5) ن . م ص 257 .
(6) د. النشار / نشأة الفكر جـ 3 ص 431 .

يصرفهم عن لهوهم إلى حياة أخرى ، حياة العبادة التى عرف مذاقها وأخذ يدعو لها . إن الدارانى هنا يطبق قاعدة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بأسلوب جديد

**٧ ــ أما تلميذه أحمد بن أبى الحوارى « ٢٤٠ هـ أو ٢٤٦ هـ = ٨٥٤ أو ٨٦٠ م » ،**

فقد تابع شيخه فى كثير من آرائه ونقل لنا معظم أقواله ، وهذا يعنى أنه كان يلازمه فى معظم الأوقات فتأثر به وحفظ أقواله وآراءه .

وقد تظهر لنا مواضع الاختلاف فى الأفكار من خلال المناظرات التى كانت بينهما . منها المناقشة فى تفسير الحديث « أول زمرة تحشر إلى الجنة الحمادون لله على كل حال » وقد فهم ابن أبى الحوارى منه الاقتصار على الحمد باللسان ، فأنبه شيخه « ويحك ! ليس هو أن تحمده على المصيبة وقلبك معتصر عليها ، فإذا كنت كذلك فأرج أن تكون من الصابرين ، ولكن أن تحمده وقلبك مسلم راض ! ! » [١] . وأنبه شيخه مرة أخرى عندما تنهد أمامه ، قال « إنك مسئول عنها يوم القيامة ، فإن كانت على ذنب سلف فطوبى لك ، وإن كانت على فوت دنيا ، أو شهوة ، فويل لك » [٢] .

وفى رواية أخرى ، يظهر تفرد التلميذ عن شيخه فى المفاضلة بين الصبر والرضى إذ كان من رأى ابن أبى الحوارى أنه الرضى ، فصرخ الشيخ وأغمى عليه ، فلما أفاق قال « إذا كان الصابرون يوفون أجورهم بغير حساب ، فما ظنك بالأخرى ، وهم الذين رضى عنهم ! » [٣] .

أما آراءه التى عبر بها عن نفسه فهو نظرته إلى القرآن الحكيم . أنه يعده المنبع الأصلى للخوف ، وكما ينبغى أن يكون باعثا للفرح أيضا لأن حافظه يحمل فى صدره كلام الله عز وجل . ثم يبدى عجبه من حفاظ القرآن الذين يشتغلون بأمور الدنيا ، ويستطيعون النوم ، بينما يتلون كلام الله ! ! [٤] .

ولعل وصف الجنيد له بأنه « ريحانة الشام » [٥] تدلنا على انفراده بعد وفاة

---

(١) أبو نعيم / حلية الأولياء جـ ١٠ ص ١٠ .
(٢) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٢٥٨ .
(٣) ن . م . ص ٢٥٦ .
(٤) ابن الجوزى / صفة الصفوة جـ ٤ ص ٢١٢ .
(٥) ن . م . والصفحة .

الدارانى بالأولوية فى مجال الحياة الوجدانية بالشام .

وقد التقى ابن أبى الحوارى بالإمام أحمد بن حنبل ودار بينهما الحديث عن تفسير قول الدارانى « إذا اعتادت النفوس على ترك الآثام جالت فى الملكوت وعادت إلى ذلك العبد بطرائف الحكمة من غير أن يؤدى إليها عالم علما ! ! » (١) وتعجب الإمام أحمد من هذا القول . ويبدو أنه طلب ما يدعمها ، وحاول أن يتذكر حديثا بهذا المعنى وهو « من عمل بما يعلم ورثه الله علم ما لم يعلم » ، فسر ابن حنبل وأيد صدق المعنى (٢) .

ونستطيع أيضاً الاستنتاج من هذه الواقعة ، تبادل الآراء بين الزهاد والمحدثين والتقاء بعضهم ببعض فإن الدارانى سمع الحديث من سفيان الثورى وغيره « وروى عنه أحمد بن أبى الحوارى وجماعة » (٣) . ووصف الأخير أيضاً بأنه ثقة (٤) ، وكان معظما للسنة فيقول « من عمل عملا بلا اتباع سنة رسول الله ﷺ فباطل عمله » (٥) .

## ٨ ــ سهل التسترى « ٢٨٣ هـ = ٨٩٦ م » :

ارتبط سهل التسترى أيضاً بأصحاب الحديث ارتباطاً وثيقاً إذ كانوا موضع إعجابه ، لأنه يرى أن من يريد الدنيا والآخرة ، عليه بكتابة الحديث . وينصحهم بألا يلقوا الله إلا ومعهم المحابر ! ! أى يظلوا طلابا للحديث ، كتّابا له حتى موتهم : ولما سئل عن العمر الذى ينبغى للرجل أن يتوقف فيه عن كتابة إجابته « حتى يموت ويصب باقى حبره فى قبره » ! ! (٦) .

إن هذا التمسك من أحد أصحاب الأحوال والكرامات ــ والذى يعد من

(١) أبو نعيم / حلية الأولياء جـ ١ ص ١٤ .

(٢) ن . م . والصفحة ويقول أبو نعيم بشأن الحديث أعلاه « ذكر أحمد بن حنبل هذا الكلام عن بعض التابعين عن عيسى بن مريم عليه السلام ، فوهم بعض الرواة أنه » ذكره عن النبى ﷺ فوضع هذا الإسناد ــ وهو عن يزيد بن هارون عن حميد الطويل عن أنس بن مالك ــ لسهولته وقربه » وهذا الحديث لا يحتمل بهذا الإسناد عن أحمد ابن حنبل .

(٣) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٢٥٥ .

(٤) ابن حجر العسقلانى / تهذيب التهذيب جـ ١ ص ٤٩ .

(٥) الرسالة القشيرية ص ١٧ .

(٦) ابن العماد / شذرات الذهب جـ ٢ ص ١٨٢ .

أكبر مشايخ القوم كما يصفه ابن العماد — يفسر لنا حرص المدرسة السلفية على وضعه فى نسق أصحاب المواجيد الذين تعتز بانتسابهم إليها . وكان ابن تيمية يشيد به .

لقد أقام المذهب على طريقة الاقتداء ، وأعلن أن منهج المسلم فى الحياة يجب أن يقوم على سبعة أسس فى « التمسك بكتاب الله ، والاقتداء بسنة رسول الله ﷺ ، وأكل الحلال ، وكف الأذى ، واجتناب الآثام والتوبة ، وأداء الحقوق » (١) . والنص يوضح كيف ربط بين العقيدة وقواعد الأخلاق والقيم الإسلامية فى صورتها النقية .

ويرى التسترى فى منهج الاقتداء السلامة من اتباع الهوى ، لأن « كل فعل يفعله العبد بغير اقتداء طاعة كان أو معصية ، فهو عيش النفس ، يعنى باتباع الهوى » (٢) . وهو يقصد بمنهج الاقتداء هنا السنة ، لأنه فى تفسيره لقول الله تعالى ﴿ **ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً** ﴾ [ ٢٦٩ / البقرة ] قال سهل « الحكمة إجماع العلوم وأصلها السنة » (٣) . وكذلك وقف فى عنادٍ ضد أهل الأهواء والبدع المخالفين للسنة (٤) .

ويتضح مذهبه الأخلاقى بصفة خاصة عند حديثه عن التوكل ، حيث يفوض الأعمال كلها لله ، لأنها تتم بتوفيقه عز وجل ، مفتاح التوفيق الدعاء والتضرع (٥) ، ثم يردد « أمس قد مات ، واليوم فى النزع ، وغداً لم يولد » (٦) .

كذلك يفسر قوله تعالى ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجا** ﴾ [ الطلاق / ٢ ] بأن العبد ينبغى ألا يدعى الحول والقوة ، بل يتبرأ منهما ويجعلهما لله تعالى وحده . أما الآية ﴿ **ومن يتوكل على الله فهو حسبه** ﴾ [ الطلاق / ٣ ] فقال « لا يصح التوكل إلا لمتق ، ولا تتم التقوى إلا لمتوكل لقوله تعالى ﴿ **وعلى الله فتوكلوا أن كنتم**

---

(١) ن . م ١٨٣ والشاطبى / الاعتصام جـ ١ ص ١١٤ .
(٢) الاعتصام ص ١١٤ .
(٣) التسترى / تفسير القرآن العظيم ص ٣٣ . (٤) ن . م ص ٥٧ .
(٥) ابن العماد / شذرات الذهب جـ ٢ ص ١٨٣ .
(٦) ابن الجوزى / المنتظم جـ ٥ قسم ٢ ص ١٦٣ وصفة جـ ٤ ص ٤٨ .

**مؤمنين** ﴾ [ المائدة / ٢٣ ، ] [1] .

ولكن ، إلى أى مدى يؤيد شيخنا هذا التوكل ؟ هل هو التواكل الذى يؤدى إلى السلبية ويحض على القعود عن التكسب ؟

إنه سرعان ما يعود إلى السنة يستجلى منها الأمر ، ثم يربط فى قاعدة محكمة بين الكتاب والسنة فى هذا المبدأ ، فيقول « من طعن فى التوكل فقد طعن فى الإيمان ، ومن طعن فى التكسب فقد طعن فى السنة » [2] .

ويمضى سهل التسترى ناظراً إلى الآيات القرآنية ، باحثاً فيها ، مستخرجا منها تفسيراته التى يجعل منها أصولا وقيما كبرى ، فلا معين إلا الله ولا دليل إلا رسول الله ﷺ[3] ، ووسيلته إلى ذلك القلوب عن طريق قبول الوحى المنزل ـــ أى آيات الكتاب . فالإنسان يستمد الحول والقوة والمشيئة والإرادة من الله عز وجل . أما أصحاب القلوب القاسية ، فويل لهم ، لأنهم حرموا الانشراح الذى يتحقق بقول الوحى ﴿ **فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله** ﴾ [ الزمر / ٢٢ ] ، وهم ( المدعون الذين يدعون الحول والقوة والمشيئة والإرادة ، ويدعون الاستغناء عن الله )[4] .

وللتسترى تعريف ينفرد به عن الحب الإلٰهى إذ أن الحب عنده هو ( الخوف لأن الكفار أحبوا الله فصار حبهم أمنا ، وصار حب المؤمنين الخوف )[5] . والنص يشير إلى الرغبة والرهبة ، أو الحب الذى يدفع إلى العمل اتقاء غضب الله وخوفا من عذابه ، لأن الصيغة الغالبة على أفكاره تدور حول المحبة والخشية والتقوى ـــ أى جانب المجاهدات التى يقصد بها الجانب العبادى متبعا فيها سبل السابقين . أما درجة المعرفة ، فلم تكن فى الغالب من نتاج مذهبه ، ولكن الكلاباذى افتعل الاصطلاح ـــ كشأنه مع شيوخ السلف من الزهاد الأوائل ـــ ليرقى من شأن الصوفية محاولا إيجاد الجذور لهم بانتسابهم إلى الأجيال السابقة .

إن النظرة الموضوعية المقارنة بين شخصية التسترى المستقاه من ( الحلية ) أو ( تفسير القرآن العظيم المنسوب له ) ، ونفس هذه الشخصية التى يحاول الكلاباذى

---

(١) أبو نعيم / حلية الأولياء جـ ١٠ ص ١٩٢ .

(٢) أبو نعيم / حلية الأولياء جـ ١٠ ص ١٩٥ .

(٣) أبو نعيم / حلية الأولياء جـ ١٠ ص ١٩٨ .

(٤) ن م . ص ٢٠٦ .

(٥) أبو نعيم / حلية الأولياء جـ ١٠ ص ٢٠٥

تقديمها ، تبرهن على ما نقول ، وتجعلنا نميل إلى استبعاد التعريف الذى أورده الأخير على لسان سهل فى تعريفه لأهل المعرفة ، والتى يذهب فيها إلى أنهم ( كأصحاب الأعراف ، يعرفون كلا بسيماهم ، أقامهم مقاما أشرف بهم على الدارين ، وعرفهم الملكين )[1] .

ولعل أشد هذا النموذج وضوحا ، ما أتى به الكلاباذى على لسان سهل فى قوله ( أنا منذ ثلاثين سنة أكلم الله ، والناس يتوهمون أنى أكلمهم ) !![2] .

وقد يفهم من النص اتجاه إلى مذهب الحلول الذى لم يعرفه سهل ولم يتطرق إليه . وتتدخل الأسطورة فى حياة سهل أيضا لكى يتم الإطار الصوفى المحكم لها بواسطة القشيرى ، فيجعله من أصحاب الكرامات المشهورين ، فيرى عمن دخل قصر سهل ، فرأى فيه بيتا كان الناس يسمونه ( بيت السباع ) لأنها كانت ( تجىء إلى سهل وكان يدخلهم هذا البيت ويضيفهم ويطعمهم اللحم ) !![3] .

إن أهل السنة والجماعة لا ينكرون الكرامات . ولكننا نستطيع أن نتخذ من النص السالف مثلا لطرق دعاة التصوف فى الدعوة إلى المذهب والتعصب له ، إذ القصة تجعل من سهل صاحب قصر أولا ، وهو يتسع بطبيعة الحال لبيوت كثيرة منها بيت السباع . ولا شغل لزاهدنا إلا إطعام السباع ، دون أن تفسر لنا الأسطورة الأهداف الدنيوية أو الأخروية التى تدعوه إلى ذلك !!

وترجع الآفة فى كتب التصوف إلى عدم تحرى الدقة فى النقل وضبط الأقوال والوقائع المروية . وها هو المكى يوضح منهجه فى مقدمة كتابه فيقول :

( جميع ما ذكرناه فى هذا الكتاب من الأخبار عن النبى ـ ﷺ ـ ثم عن الصحابة وعن التابعين وتابعيهم رسمناه حفظا وسقناه على المعنى إلا يسيرا اتفق وجوده فى أيدينا وقرب تناوله منا من أخبار فيها طول ، فإننا نقلناها من مواضعها وما بعد علينا فلم نفقه ولم نشغل همتنا به ) .

---

(١) التعرف ص ١٩٣ . (٢) ن . م ص ١٤٤

(٣) الرسالة القشيرية ص ١٦٢ .

## سادسا : بغداد

ازدهرت بغداد فى خلافة الدولة العباسية ، بعد أن انتقلت إليها عاصمة الخلافة وأصبحت تجمع رجال الفقه والحديث والعلماء على اختلاف مراتبهم « وسكنها من أفشى السنة بها ، وأظهر حقائق الإسلام مثل أحمد بن حنبل وأبى عبيد وأمثالهما من فقهاء أهل الحديث » (١) .

إن انتقال الخلافة إليها هو أحد العوامل التى أدت إذن إلى إفشاء السنة ، وليس الأمر — كما يرى كل من أرنولد وجيوم (٢) — كان داعيا للاحتكاك بالحضارات السابقة ومن ثم التأثير على المسلمين . وسيتضح ذلك عند عرضنا لمواقف العلماء والزهّاد فى بغداد حينذاك ، إذ سيتبين لنا كيف وقف شيوخها فى وجه المخالفين للسنة ، لاسيما دور ابن حنبل فى المحنة ، ونقده للحارث المحاسبى باعتبار أن الغلو فى الحديث عن الخطرات والوساوس هو نوع من البدع ، وكذلك معارضة عمرو بن عثمان المكى للحلاج ونبذه إياه .

ومن الظواهر التى تعد هامة بهذه المدرسة ، أن الشيوخ المعاصرين للإمام أحمد كان أغلبهم من الزهاد المنتمين للمنحى السلفى — فيما لو تغاضينا عن الحارث المحاسبى — للأسباب التى سنوضحها ، وأن نظرة فاحصة لكتاب « طبقات الحنابلة » للقاضى أبى يعلى ، أو لكتاب « تاريخ بغداد » للخطيب البغدادى لتدلنا على أن أهل الحديث اهتموا بأعمال القلوب أيضا ، وهم أشد اهتماما من غيرهم باتباع طريقة الاقتداء .

وسيتضح لنا من دراستنا لأبرز شيوخ هذه المدرسة ، كيف عبّروا عن حياة وجدانية لا تقل أصالة عن غيرهم ، على عكس مايُشاع عنهم خطأً ، مما جعل

---

(١) ابن تيمية / مذهب أهل المدينة ص ٣٣

(٢) The Legacy of Islam

الدكتور عبد الرحمن بدوى يخلع عنهم نبضات قلوبهم ونوازعهم الروحية ، ويوسمهم بالتحجر والجمود ! ! [1] وسنثبت للقارىء أن هذا الحكم مخالف تماما لحقيقتهم :

## أ ــ أحمد بن حنبل :

اشتهرت مدرسة بغداد بالحارث المحاسبى ، وبشر الحافى وغيرهما ، من أهل الزهد المعاصرين للإمام أحمد بن حنبل ، فاختفت معالم الحياة الوجدانية عن الإمام وراء شهرته كفقيه ومحدث ، إلى جانب اقتران اسمه بمشكلة خلق القرآن التى خاض فيها الباحثون قديما وحديثا . يصف لاوست إمامنا بأنه من أعظم الشخصيات حيوية فى الإسلام ، ويقول « وقد أثر ابن حنبل فى التطور التاريخى للإسلام وفى نهضته الحديثة ، وأسس أحد المذاهب السنية الأربعة الكبرى وهو المذهب الحنبلى ، وكان عن طريق تلميذه ابن تيمية ، الجد الأول للوهابية ، وقد أوحى أيضا ــ إلى حد ما ــ بحركة الإصلاح المحافظة للسلفية » (٢) .

ولكن لاوست يعود فيستنتج من الوقائع التاريخية المتصلة بمنع الإمام من تدوين آرائه ، أنه لم يقصد تأسيس مذهب ، ويستطرد قائلا « وإن كان من المحقق أنه حذر سائله من تدوين آرائه ، إذ يحتمل فى هذه الحالة أن تحل محل قواعد السلوك التى مرجعها إلى القرآن والسنة » (٣) .

ولقد سبق لابن تيمية توضيح رأيه فى هذه المسألة مؤكدا أن الإمام أحمد « كان ينهى فى حال حياته عن كتابة كلامه ليجمع القلوب على المادة الأصلية العظمى ، ولما توفى استدرك أصحابه ذلك الأمر الكبير ، فنقلوا علمه وبينوا مقاصده وشهروا فوائده فانتصرت طريقته » (٤) .

وكادت تختفى إذن شخصية الإمام الزاهد الورع وراء الاهتمام بنتاجه العلمى فى الحديث والفقه وردوده على المتكلمين ، فيما عدا النصوص المنقولة عنه بواسطة

---

(١) د . عبد الرحمن بدوى / مقدمة كتاب « شخصيات قلقة فى الإسلام » صفحة « د »

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ، مادة أحمد بن حنبل بقلم لاوست

(٣) ن . م

(٤) ابن تيمية / مجموعة نصوص باسم « مجموعة علمية » ص ١٥٢

ابن أبى الدنيا بمؤلفاته التى تعد فى حكم الضائعة (١) إلى جانب الإشارة إلى زهده فى معظم المصادر التى أرخت لحياة الإمام ، إذ اتفقت أيضا على وضعه كتاب « الزهد » .

والحق أن لابن حنبل من الآراء فى الزهد ما يضعه فى مصاف الزهاد الذين يعبرون عن التيار السلفى أصدق تعبير ، إذ لا يغرب عن بالنا أن من بين مؤلفاته كما قلنا ، كتاب « الزهد » . الذى يعد أحد المصادر الهامة لموضوعنا ، وقد وصفه ابن كثير بأنه « لم يسبق إلى مثله ، ولم يلحقه أحد فيه » (٢) . وقد عالج فيه موضوع الزهد عند الأنبياء عليهم السلام ثم الصحابة فالتابعين فمن يليهم .

إن العبارة التى أوردها صاحب « البداية والنهاية » فى معرض حديثه عن الكتاب توجه الباحث إلى طريقة الحياة الوجدانية العميقة التى عاشها الإمام . يقول ابن كثير « والمظنون — بل المقطوع به — أنه إنما كان يأخذ بما أمكنه منه ، رحمه الله » (٣) ، أى بعبارة أخرى ، نستطيع أن نستنتج أن الإمام تمثل بحياة الزهاد الذين أوردهم بكتابه ، وتأثر بنظرياتهم ، ومال إليها ، بل إن حرصه على تدوينها يحمل معنى تأييدها .

إن دائرة الاهتمامات المتعددة لإمامنا فى الحديث والفقه والرد على المتكلمين والزهد تفتح الباب لدراسات متشعبة حول ابن حنبل .

وربما يصح الآن أن نتساءل : أى هذه العلوم كان الجدير بحفظ التراث الإسلامى ؟ وهل وقع عبء حفظه على عاتق الفقهاء والمحدثين أم بواسطة الزهاد والصوفية ؟

ويحسن بنا إذاً أن نناقش القول بأن التصوف هو « الثورة الروحية فى الإسلام » ، فإن هذا القول يعد من العبارات التى تعطى مدلولا أضخم بكثير من

---

(١) يقول القاضى أبو يعلى فى حديثه عن ابن أبى الدنيا « ٢٨١ هـ » :

« وقد حدث فى عدة من تصانيفه عن رجال عن أحمد . حدث فى كتاب « الجائعين » وفى كتاب « القناعة » وفى كتاب « إصلاح المال » وفى كتاب « البكاء » عن البرجلانى عن أحمد . وفى كتاب « مداراة الناس » ، وفى كتاب « المنام » عن الحسن بن الصباح بن البزار عن أحمد وحدث فى كتاب « الأضاحى » عن أبى بكر الأثرم عنه » . طبقات الحنابلة ج ١ ص ١٩٣

(٢) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٣٢٩ (٣) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٣٢

المعنى الحقيقى لها .

لقد أفاض الدكتور أبو العلا عفيفى فى كتابه « التصوف ـــ الثورة الروحية فى الإسلام » فى القول بأن التصوف هو الثورة الروحية التى تشبع العاطفة وتغذى القلب . وأن التصوف كان انقلابا عارما على الأوضاع والمفاهيم الإسلامية التى حددها الفقهاء والمتكلمون والفلاسفة .

ولا نجد بهذا الصدد إلا رد أتباع المدرسة السلفية ، فهم يدعون ببساطة إلى اتباع السلف الصالح ، بدلا من افتعال هذه الثورة ، واستخدام منهجهم فى معرفة الإسلام كما عرفوه ، لأن الإسلام نفسه كان بمثابة ثورة ـــ إن صح التعبير ـــ على المعتقدات الباطلة المحرّفة والأوضاع السياسية والاجتماعية السائدة فى الجزيرة العربية قبله .

وإذا جاز استخدام الاصطلاحات السياسية فى ميدان العقائد ، فإن معنى الثورية الذى يقصده أستاذنا ، قد يشير إلى قصور المناهج الأخرى غير الصوفية لاسيما منهج السلف . وهنا نرى دأب البعض ـــ وخاصة بعض المستشرقين على تشويه نظريات شيوخ السلف ، ومن ذلك أيضاً تشويه « فكرة المسلمين عن الحركة الوهابية »[١]فى العصر الحديث . وأصبح من المألوف أحياناً أن توسم الحركة السلفية بالرجعية ، وهو وصف لا يتفق مع الحقائق التاريخية ، ولامع الموازنة الموضوعية الأمينة بينها وبين غيرها من الحركات والمذاهب .

لقد قدم الاتجاه السلفى نماذج ممتازة لشخصيات ثورية ، كانت تثور ـــ بدافع إخلاصها لمنهجها ـــ على كافة مظاهر السلطة المنحرفة ، وتحارب الجمود والتخاذل ومظاهر الكهنوت والبدع ، ولا تخضع لأسباب الخنوع والمذلة .

إن الحركة السلفية تعادى البدع الممثلة فى « بقايا الوثنية ، وما ابتدعه الأجيال المتأخرة ، وتسللات الحضارة الدخيلة »[٢] .

لهذا يحسن بنا أن نقف قليلا عند الاتجاه الذى يعد ثوريا لابن حنبل . إن

---

(١) د . محمود قاسم / الإسلام بين أمسه وغده ص ٣٥

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ـــ مادة أحمد بن حنبل ـــ بقلم لاوست

ثوريته تتمثل فى رفضه البات الحاسم الذى كلفه صنوفا من الآلام والعذاب لا تطاق فى سبيل الدفاع عن عقيدته ومنهجه السلفى ، فى مواجهة الفقهاء والمتكلمين المعارضين الذين ساندتهم الدولة العباسية حينئذ بالقوانين المعنوية والمادية معاً ، « ولقد ابتليت السنة الإسلامية فى شخصه ، فكان فى صبره — لو صبر — فوزها ونهوضها ، وفى ضعفه — لو فتن — سقوطها وخذلانها »(١) .

وبوسعنا أن ننظر إلى النتائج المحتملة التى كانت ستترتب على انهياره وتسليمه ، بتأثير القوة والجبروت ، على مذهب أهل السنة والجماعة برمته . يقول باتون « وإنا نعتقد بأن الإبقاء على السنة وصيانتها ، قد أتى بخير النتائج وأعظمها فائدة . ويمكن أن نتجاوز ذلك إلى القول بأن الإسلام ، إذا كان يبغى المحافظة على جوهره وطابعه ، ليظل إسلاما ، فما من سبيل يبلغ به هذه الغاية أفضل من سبيل المحافظة على السنة والاستمساك بعراها »(٢) .

وسنعرض فيما يلى لجانب الزهد فى شخصية الإمام أحمد بحيث نبدأ بعلاقة بالحارث المحاسبى ، ثم ببشر الحافى ، وأخيراً نوضع جوانب الزهد عنده .

### أ — علاقته بالحارث المحاسبى:

يرجح البيهقى ( ٤٥٨ هـ = ١٠٦٥ م ) أنه كره ما اشتغل به المحاسبى من علم الكلام . أما ابن كثير فإنه يرجح أن ما فى كلامه — هو وأصحابه — من التقشف وشدة السلوك والمحاسبة الدقيقة ، التى لم يأت بها الشرع . ويبدو أن الإحتمالين صحيحان ، إذ أننا نعثر ضمن النصوص التى أوردتها المصادر المختلفة ما يؤيد ذلك .

فقد ورد على لسان الإمام ابن حنبل « أنه يكره الكلام فى الوساوس والخطرات ، لأنه لم تتكلم بها الصحابة والتابعون »(٣) . وإمامنا هو أحرص الناس على التقيد بالسنة وأقوال الصحابة ، لأن منهجه يستند على هذا الأساس ، ولكنه يخشى هذا التعمق الذى يؤدى إلى الاختلاف ، مادام لم يأت به النقل ، وهو نفسه

---

(١) ولتر م . باتون / أحمد بن حنبل والمحنة ص ٣٥ (٢) ولتر م . باتون / أحمد بن حنبل والمحنة ص ٣٥ .
(٣) النابلسى / مختصر طبقات الحنابلة ص ٧٣ .

قد جرب هذه المحاولة وأفصح عن صعوبتها ، إذ سئل عما إذا كان قد تعلم العلم لله ــ يردون بذلك توافر النية فأجاب « هذا شرط شديد » ، أى أنه وجد صعوبة فى تحقيقه إذ يقول « أما لله فعزيز ، ولكن حبب إلى شىء فجمعته »[1] .

أما قصة سعى ابن حنبل لحضور جلسة المحاسبى مع أصحابه فى الخفاء وإعجابه بحالهم ، ثم نهيه عن صحبتهم ، فإنها ربما تعد من قبيل محاولة التوفيق بين مكانة الشيخين ، وإن كان ابن الجوزى يفسر موقف ابن حنبل فيها بالتمسك بالسنة والنهى عن البدعة فيقول « وقد كان الإمام أبو عبد الله أحمد بن حنبل لشدة تمسكه بالسنه ، ونهيه عن البدعة ، يتكلم فى جماعة من الأخيار إذا صدر منهم ما يخالف السنة ، وكلامه ذلك محمول على النصيحة للدين »[2] .

ولكن المحاسبى ــ من جهة أخرى ــ كان يحمل التقدير لابن حنبل ، مؤيدا موقفه من المحنة ولأن « أحمد بن حنبل نزل به مالم ينزل بسفيان الثورى والأوزاعى »[3] .

## ب ــ صلته ببشر الحافى :

يبدو أن التعاطف بين ابن حنبل وبشر الحافى كان مبنيا على أسس حقيقيه بسبب الاتفاق فى الآراء والاتجاهات ، ولا ترجع إلى الصبغة الغالبة على تآلف القرن الثالث الهجرى ، التى بدأت تنسج خيوط الود بين بعض الفقهاء والزهاد . ودليلنا على التعاطف الحقيقى بين الشيخين نلتمسه فى اتفاقهما من حيث بعض الآراء فى الزهد ، فضلا عن كونهما محدثين . فمن الثابت أن بشر الحافى طلب الحديث فى البداية ، ثم أقبل على العبادة واعتزل الناس[4] . وقد عده ابن حبان من الثقات ، كما وثقه أيضا الدارقطنى ( ٣٨٥ هـ = ٩٩٥ م ) وقال عنه « إنه لا يرى إلا حديثا صحيحا وربما تكون البلية ممن يروى عنه »[5] . وهكذا أعطاه رجال الجرح والتعديل حقه ووثقوه .

---

(١) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٣٣٠ وأبو يعلى / طبقات الحنابلة جـ ٢ ص ٣٠٧ .

(٢) ابن الجوزى / مناقب الإمام أحمد بن حنبل ص ١٨٥

(٣) ن . م ص ١٢١

(٤) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٢٩٧

(٥) ابن حجر / تهذيب جـ ١ ص ٤٤٥

ولكن المصادر لم تفصح عن سبب تركه رواية الحديث ، وسبب كراهيته للرواية « ودفن كتبه لأجل ذلك »[1] .

ويعطينا ابن عساكر تفاصيل أكبر عن بشر ، فيصفه بأن الزاهد المعروف بالحافى ، ويذكر أنه قدم الشام واجتاز جبل لبنان . أما عمن حدث عنهم ، فهم مالك بن أنس ، وفضيل بن عياض ، وعبد الله بن المبارك وآخرين[2] .

ولعل هذه السلسلة من المحدثين هى التى دفعت بشرا إلى تدوين كتاب « الزهد » الذى أشار إليه صاحب « الفهرست » والذى نقرأ منه شذرات فى كتاب « الزهد » لابن حنبل ، مما يؤكد لنا ميل الإمام له وتأييده لأفكاره .

ولكن مما يلفت نظر الباحث ، أنه مع تعاطف بشر مع الإمام أحمد ، إلا أنه اختار مذهب الثورى « فى الفقه والورع جميعا »[3]. أما النص الوارد بنفس هذا المعنى بتاريخ ابن عساكر فهو « أن بشر تأدب بمذهب سفيان الثورى ففاقه ، غير أن سفيان له السبق فى السن والعلم »[4] .

ومثل هذه المقارنة تعطينا الشواهد على وقوف هؤلاء المشايخ فى صف واحد ، تضمهم حلقات الحديث والفقه والزهد ، فهم أئمة يقتدى بهم فى هذه المجالات . لقد أوجد المنهج السلفى ارتباطا وثيقا بينهم ، وخلق الوحدة فى نظرياتهم بالرغم من اختلاف البلدان التى أقاموا فيها . فإن بشرا الحافى من أبناء خراسان[5] ، ولكنه اشتهر بانتمائه للبغداديين لإقامته ببغداد مدة طويلة[6] ، وظل انتماؤه لمدرسة بغداد هو الغالب ، إذ يذهب إبراهيم الحربى .. أحد تلاميذ الإمام أحمد — فى وصف رجاحة عقله بقوله « لو قسم عقله على أهل بغداد لصاروا عقلاء ، وما نقص من عقله شيء »[7] . ولكن هذا لا يمنعه من الاسترشاد بآراء سفيان فقيه الكوفة وزاهدها : من ذلك أننا نراه يستشهد بقول الثورى فى مسألتين :

---

(١) ن . م والصفحة (٢) تاريخ ابن عساكر جـ ٣ ص ٢٢٨
(٣) ابن حجر / تهذيب التهذيب جـ ١ ص ٤٤٥ (٤) تاريخ ابن عساكر جـ ٣ ص ٢٣٣
(٥) ابن حجر العسقلانى / تهذيب التهذيب جـ ١ ص ٤٤٥ .
(٦) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٢٩٧ . (٧) ن . م ص ٢٩٨ .

أحدهما عن الرجل إذا مر بمن يلعب الشطرنج ، هل يسلم على اللاعبين أم لا ؟ . فأجاب مستندا إلى قول سفيان الثورى « يسلم ويأمر » أى يأمر بالترك ، عملا بقاعدة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

والمسألة الثانية التى يذهب فيها إلى قول الثورى أيضاً هى « كل من تخوفت من طعامه أن يفسد عليك فلا تجبه » !![1] تأكد بذلك ضرورة تحرى الطعام الحلال التى سنرى ابن حنبل يضعها أساسا « لاطمئنان القلوب » .

وهكذا كان التجاوب بين الزهاد الثلاثة : الرأى لسفيان الثورى يؤيده بشر الحافى ، ويسجله لنا ابن حنبل فى كتابه « الزهد » . ثم يؤيده أيضا ويضع له الأساس النظرى من آيات الكتاب .

ولم يكن بشر يقبل من أحد شيئا سوى من السرى السقطى ، لأنه يرى فى السرى الزاهد الحقيقى ، فهو « يفرح بخروج الشىء من يده ، ويتبرم ببقائه عنده ، فأكون أعينه على مايحب » !! [2].

ومن هذه العبارة نفهم رأى بشر فى الزهد واتفاقه مع ابن حنبل فى تحرى الأكل من المصدر الحلال ، والتحرز الشديد من الشبهات ، وتفضيل البذل عن الجمع . ونقف هنا برهة لنسأل أنفسنا : أين نحن الآن من مثل هذه القيم ؟ كذلك نظر الشيخان إلى الفقر كعامل يقوم عليه الزهد ، لأن الغنى يفتن ، بينما يستدعى الفقر الصبر على الحرمان . يقول ابن حنبل « ما أعدل بالفقر شيئا ، ما أعدل بالفقر شيئا ، أنا أفرح إذا لم يكن عندى شىء »[3]، ويستمد إمامنا هذه النظرة من إحساسه بمدى المعاناة التى يتكبدها الفقير فى صبره على الفقر ، فيتساءل « أتدرى الصبر على الفقر أى شىء هو ؟ » ويقارن بينه وبين الغنى الذى توافرت له أسباب الحياة المترفة ويقول « كم بين من يعطى من الدنيا ليفتتن ، إلى آخر تزوى عنه ! »[4].

---

(١) ابن حنبل / الزهد ص ٢٧٥ . (٢) المكى / قوت القلوب جـ ٢ ص ١٩٩ .
(٣) أبو يعلى / طبقات الحنابلة جـ ١ ص ١٠ وابن الجوزى / مناقب ص ٢٧٣ .
(٤) ابن الجوزى / مناقب الإمام أحمد ص ٢٧٣ .

إذن هو لا يسعى إلى الفقر لذاته ولكنه يحذّر من فتنة الغنى والإكثار من المال .

ولكن بشر الحافى لا يفصح عن سبب تفضيله الفقر على الغنى ، فيسرد المقارنات سرداً ، دون الاستناد إلى سبب مقنع كالمعاناة التى يراها ابن حنبل سببا لتفضيله الفقر — فيقول مثلا « العبادة لا تليق بالأغنياء » !! ويشبه الغنى المتعبد كالروضة المطلة على مكان إلقاء القمامة ، بينما العبادة للفقير كالعقد الجوهر فى جيد الحسناء[1] . إلا أنه يعود فيتلمس السبب فيراه فى الورع ، فيذكر أن « التقوى لا تحسن إلا فى الفقر »[2].

ومن أن الشيخين وقفا فى وجه تيار الترف فى عصرهما ، واتخذا من الزهد أداة للمعارضة والنقد .

وكان الإمام أحمد يصف بشراً بأنه ليس له نظير إلا عامر بن قيس ولكنه ظل يأخذ عليه عزوفه عن الزواج فيقول « ولو تزوج لتم أمره »[3]. وكان لموضوع الزواج أخذ ورد سنعود إليه حالاً .

كما نلمح التقدير المتبادل أيضا بين الشيخين من العبارة التى وردت على لسان بشر عندما طلب منه أصحابه أن يعلن تمسكه بعقيدة الإمام أحمد التى امتحن فيها — وهى مسألة خلق القرآن — فأجاب متسائلا فى تعجب يحمل معنى التقدير الكبير « أتريدون أن أقوم مقام الأنبياء ؟ » !! ثم دعا له « حفظ الله أحمد من بين يديه ومن خلفه »[4].

ويلح علينا هذا الود العميق الذى يكنه الإمام أحمد لبشر ، إذ جاءت النصوص التى تدل على مبادلة التعاطف بين الشيخين . فإلى جانب ما نقرأه على لسان بشر الحافى يصادفنا نص آخر يحمل توافق الآراء . فإن ابن حنبل فى وصفه لبشر يقول فى موضوع الشهرة وكراهيته لها « ليتنا نترك ! الطريق ما كان عليه بشر

---

(١) المكى / قوت القلوب جـ ٢ ص ١٩٣ .　　(٢) ن م والصفحة .
(٣) ابن عساكر / التاريخ جـ ٣ ص ٢٣٣ وابن كثير / البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٢٩٧ .
(٤) الذهبى / ترجمة الإمام أحمد ( منتقاة من تاريخ الإسلام ) ص ١٨ .

بن الحرث »[1] . وسنعود إلى هذا النص بعد قليل ، لأنه يكشف عن حرص الإمام أحمد عن البعد عن الشهرة وذيوع الصيت .

ومن المرجح أن البغداديين كانوا يضعون الشيخين فى مرتبة واحدة ، ويجدون حرجا فى ترجيح كفة أحدهما عن الآخر ، وإن كان لابد من وصف كل منهما على حدة ، فإن ابن حنبل يوصف بأنه « تفخر النساء أن تلد مثله » أما بشر « فمملوء عقلا من قرنه إلى قدمه »[2] .

وقد أفاض المكى فى عقد المقارنات بين الإمامين على سبيل المقارنة ، كما أورد نصا لبشر يجعل فيه ابن حنبل أفضل منه بسبب أمور ثلاثة فيقول « فضل على بثلاث بطلب الحلال لنفسه ولغيره وأنا أطلب الحلال لنفسى ، واتساعه للنكاح وضيقى عنه ، وقد جعل إماما للعامة وأنا أطلب الوحدة لنفسى »[3] .

ونلمح فى عبارة زاهدنا ما يشبه إقراره بالخطأ لأنه لم يتزوج ، ولكننا سرعان ما نجده يدافع عن نفسه أيضا فى هذه النقطة ، إذ لما بلغه أن الناس يتحدثون عن عزوبته وينقدونه بسبب تركه للسنة ، دافع عن نفسه محتجا بأنه مشغول بالفرض عن السنة ، ولما ازداد العتاب نحوه ، عثر فى الكتاب على آية يتخذ منها سنداً فى ترك الزواج وهى ﴿ **ولهن مثل الذى عليهن** ﴾ [ آية ٢٢٨ سورة البقرة ] أى أنه خشى ألا يتمكن من أداء حقوق الزوجية عليه فانصرف عن الزواج لهذا السبب . ثم يورد عبارة قالها الإمام ابن حنبل تختلف تماما عما أسلفنا الإشارة إليها ــ الواردة فى تاريخ ابن عساكر ــ إذ يتضح فيها أن ابن حنبل يرفع من شأن الحافى لهذا السبب ، فبعد أن كان يتمنى أن يتم له الأمر بالزواج يقول هنا « وأين مثل بشر ؟ أنه قعد على مثل حد السنان ! »[4] .

ومع هذا ، فالظاهر أن الروايات الصوفية لما أخفقت فى الإقناع بترك بشر الحارث للزواج ، ومخالفته بذلك السنة ، عادت تتلمس طريقها فى إطار اختلاق الرؤيا المعتادة ، إذ يرى بشر فى المنام ، ويسأل عن الدرجة التى بلغها عند ربه عز وجل

(١) الذهبى / ترجمة الإمام أحمد ص ٢٦ .
(٢) ابن عساكر / التاريخ الكبير جـ ٣ ص ٢٣٣
(٣) المكى / قوت القلوب : ٢ ص ٢٤١ .
(٤) المكى / قوت القلوب جـ ٢ ص ٢٤١

فيجيب « رفعت سبعين درجة فى عليين ، وأشرف بى على مقامات الأنبياء ، ولم أبلغ منازل المتأهلين »!!(١) .

والذى يعنينا من كل هذا هو القول بأن ترك بشر الحافى للزواج لم يكن بسبب مسيحى ، أى تقليده للرهبان ، فإنه لم يتخذ منهم مثالا يقتدى به ، ولكنه ظل يعتذر طوال حياته بسبب ترك السنة ويحاول أن يجد المبررات . فإما أن يتلمس العذر من عدم استطاعته الوفاء بحقوق الزوجة عليه كما نصت الآية ، أو أنه ظل آسفا لهذا التقصير ، إذ وجد فى عزوبته ما يستدعى الاعتذار ، وفضل على نفسه صاحب العيال . فقد قصده رجل فقير يطلب منه الدعاء ، فنصحه بأن يتحين الفرصة عندما يخبره أولاده بنفاذ الدقيق والخبز ، ثم يدعو الله « فى ذلك الوقت ، فإن دعاءك أفضل من دعائى » !!(١) .

## الإمام ابن حنبل :

قلنا فى مستهل حديثنا إن شخصية ابن حنبل العلمية قد جمعت بين الحديث والفقه وأعلن تمسكه بمنهج النقل . وظل الإمام أحمد معظماً عند مفكرى المسلمين من أهل السنة ، وكان موضع إجلال كبير بصفة خاصة بواسطة شيوخ الأشاعرة ، وعلى رأسهم إمام المذهب أبى الحسن الأشعرى ، الذى أورد عقيدة أهل الحديث كاملة فى « مقالات الإسلاميين .. » ، وأعلن فى ختامها تأييده لها فقال : « فهذه جملة ما يأمرون به ويستعملونه ويرونه وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول ، وإليه نذهب ، وما توفيقنا إلا بالله ، وهو حسبنا ونعم الوكيل وبه نستعين وعليه نتوكل وإليه المصير »(٣) . وكذلك فعل فى كتابه « الإبانة » .

وقد تعددت المصادر التى وصلتنا تحمل أدق تفاصيل حياة الإمام ابن حنبل ومذهبه وآرائه(٤) . ويبدو أن الإمام رأى أن يوضح وجهة نظره فى المسائل التى طغت على ثقافة العصر واتجاهاته المختلفة . وأن يدعم المنهج النقلى ، فأخرج على هذا الأساس ــ ضمن مؤلفاته ــ روائعه الثلاثة : وكلها تحفظ لنا نظريات السلف

---

(١) ن . م جـ ٢ ص ٢٤١ . (٢) ن . م جـ ٢ ص ١٩٣ .

(٣) أبو الحسن الأشعرى / مقالات الإسلاميين ص ٢٩٧ .

(٤) ينظر ثبت المؤلفات التى عددها عبد العزيز عبد الحق فى ترجمته لكتاب أحمد بن حنبل والمحنة ص ٢٦٥ وما بعدها .

وآرائهم وسط التيارات المختلفة السائدة فى العالم الإسلامى حينذاك ، فإن « المسند » عنى بحفظ الحديث ، وكتابه « الرد على الجهمية والزنادقة » يتضح فيه حجاجه العقلى فى أجلى وأدق صوره تكشف عن الاستعداد العقلى الممتاز . ثم مؤلفه فى « الزهد » الذى اتخذه وثيقة يدافع بها على طريقة الاقتداء . ويمكننا أن نستنتج أن الدافع الأساسى هنا هو الرد على الحارث المحاسبى وأتباعه ، الذى كره ما « فى كلامهم من التقشف وشدة السلوك التى لم يرد بها الشرع ، والتدقيق والمحاسبة الدقيقة ، البليغة ، ما لم يأت بها أمر » (١).

ثم أن هناك سببا جانبيا ، من المحتمل أنه كان له أثره كأحد دوافع الإمام أحمد فى كتابة مؤلفه فى الزهد ، فإن من الشيوخ الذين اعتز بهم وهو أبو زرعة ( ٢٦٤ هـ = ٨٧٧ م ) ـــ الذى ترك ابن حنبل فى أحد الأيام أداء نوافله لكى يتفرغ لمذاكرته ـــ وكان يدعو له فى دبر كل صلاة (٢). كان أبو زرعة يصف كتاب « الرعاية لحقوق الله » بأنه بدعة ، ويحث على اتباع ما كان عليه مالك والثورى والأوزاعى والليث (٣).

فإذا ما عرضنا لأعمال القلوب والقيم الأخلاقية ، فإن غرضنا تأكيد الفكرة التى نحاول البرهنة عليها ، وهى إن هؤلاء الأئمة ـــ كالثورى وابن المبارك والأوزاعى وابن حنبل ـــ كانت حياتهم مكتملة الحلقات . وكانت إمكانياتهم العقلية واهتماتهم الثقافية متعددة النواحى ، بلغت حدا من الخصوبة يصعب معها على الباحث إبراز جانب دون آخر . ولقد كان ابن تيمية واعيا لهذه الحقيقة عندما سمى شيوخ السلف بأنهم « مشايخ أهل الكتاب والسنة »(٤) ، أى بعبارة أخرى ، أنهم الشيوخ الذين لم يخرجوا من مذاهبهم ـــ سواء كفقهاء أو مفسرين أو أصحاب قلوب وأرباب سلوك ـــ عما خطه الكتاب والسنة . لقد قاموا « بحقائق الدين علما ، وحالا ، وقولا ، وعملا ، ومعرفة ، وذوقا » !!(٥) ، وظلوا حريصين على ذلك طوال العصور والأزمنة ، يتلقونه جيلا عن جيل بمنهج ثابت لا يحيدون عنه . فالدين ـــ كما يروى

(١) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٣٣٠ .
(٢) ابن الجوزي / مناقب الإمام أحمد بن حنبل ص ٢٨٦ و ٢٨٩ .
(٣) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٣٣٠ (٤) ابن تيمية / كتاب التصوف ص ٢٣٣ .
(٥) ن . م ٥٧٢ .

الإمام أحمد ـــ هو « كتاب الله عز وجل وآثار وسنن وروايات صحاح عن الثقات بالأخبار الصحيحة القوية المعروفة ، يصدق بعضها بعضا ، حتى ينتهى ذلك إلى رسول الله ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم والتابعين وتابعى التابعين »[1] .

ولعل هذا النص يوضح لنا أيضا أحد الأسباب التى دعت ابن حنبل فى غمار الحياة الوجدانية ، والكتابة فى الزهد . فقد مر بنا أنه كتب « المسند » ، ولما سئل عن سبب كتابته له بالرغم من كراهيته لوضع الكتب أجاب « عملت هذا الكتاب إماما ، إذا اختلف الناس فى سنة رسول الله ﷺ رجعوا إليه »[2] .

ومن اليسير أن نستنتج أنه لنفس السبب حرص على الكتابة فى الزهد الذى كتبه على نمط رواية الحديث ، أى نقل بالأسانيد أقوال السابقين فى الموضوع .

والظاهر أنه استرشد أيضاً بعبد الله بن المبارك الذى كتب فى الزهد قبله[3] ، أى أنه عثر فى مضمون كتاب ابن المبارك على التيار السلفى الصحيح ، مقابل الاتجاه الصوفى فى عصره الذى يتزعمه الحارث المحاسبى ، فكان يحض على كتب ابن المبارك ، وينصح بقراءتها « حسبك بها ، ولا تبال بسماع غيرها »[4] ، لأن مؤلفها تتبع طريقة النقل الصحيح الصادق . ونرى الإمام يغضب لمن يتهم ابن المبارك بالكذب فيقول « من كذب أهل الصدق فهو الكاذب »[5] .

وكان الإمام أحمد بن حنبل إذن فى زهده لا يخرج عن دائرة السابقين ، كما حرص على الاقتداء فى سلوكه الشخصى بصفة خاصة بالحسن وابن سيرين وإبراهيم بن أدهم[6] . كذلك أراد ـــ سواء فى آرائه أو سلوكه ـــ أن يعارض المظاهر التى اتخذها الصوفية . فلم يكن « لثوبه رقة تنكر ، ولا غلظ ينكر »[7] أى أنه توسط فى ملبسه . فيصفه من رآه بقوله « فإذا رأيته تعلم أنه لا يظهر النسك ، ورأيت عليه نعلا لا يشبه نعل الفقراء »[8] .

---

(1) أبو يعلى / طبقات الحنابلة جـ ١ ص ٣١ .
(2) ن . م جـ ١ ص ١٨٤ .
(3) ابن النديم / الفهرست ص ٢٢٨ .
(4) النابلسى / مختصر طبقات الحنابلة ص ١٦١ .
(5) ن . م ص ١٧٠ .
(6) ابن الجوزى / مناقب الإمام أحمد ص ٢٤١ .
(7) ن . م ص ٢٥٤ .
(8) ن . م ص ٢٨٢ .

ويعلق ابن الجوزى على ذلك ، فيذهب إلى أنه أراد بهذا ترك التزين بزى الفقراء كى يزيل عن نفسه ما يشتهر به(١) .

والظاهر أن الصوفية أثاروا موضوع السعى لكسب الرزق ، فكان من رأى ابن حنبل لزوم السوق ، أى الاشتغال بالتجارة ، حيث تعين على صلة الرحم فيقول « التجارة أحب إلى من نحلة بغداد »(٢) .

وكان يأمر أولاده أن يختلفوا إلى السوق للاشتغال بالتجارة(٣) ، وكره للرجل الجلوس فى بيته منتظرا المنح ، مفضلا خروجه للاحتراف(٤) . وتعجب من أمر رجل صاحب عيال ممتنع عن التكسب محتجا بأن نيته لم تصح لهذا الغرض إذ يرى الإمام أنه مادام عليه نفقة عياله « فمن النية صيانتهم » !!(٥) .

ومن هذا نرى كراهية ابن حنبل للتكلف فى الخطرات ، وتشدد البعض فى تحقيق النية والقعود عن طلب الرزق ، إذ يفسر خروج الرجل للتكسب — أى هذا التصرف الظاهر الدلالة — يعبر عن نية توفير القوت للأولاد . وهذا يكفى لصدق نيته ، لأنه لاشك يقصد بسعيه حفظهم من الهلاك جوعا .

إذن ، ماالداعى لتشدد إمامنا فى تحقيق الكسب الحلال فى المطعم — بهذه القيمة الإسلامية الكبرى — وجعلها أساس تزكية القلوب ، مع أننا نراه لا يلزم تحقيق النية للساعى لطالب الرزق لأولاده ؟

كذلك ممايثير دهشة الباحث فى هذه الصدد أيضا أن لفظ « الحنبلى » مازالت تتردد حتى وقتنا هذا ، دليلا على التمسك الشديد بأحكام الحلال والحرام . ومن هذه النقطة ظهر الأساس النظرى لزهد الإمام ، فإنه فى تفسيره لتزكية القلوب كما رأينا قال « بأكل الحلال » ، وأيده بشر بن الحرث .

وسرعان ما تتضح لنا الحقيقة ، إذا ما تأملنا احوال العصر من تزايد فى اقتناء الأموال ومظاهر الثراء والغنى بين المسلمين . وكأن ابن حنبل قد رأى أن وراء هذه

---

(١) ن . م والصفحة
(٢) ابن حنبل / الورع ص ١٣ .
(٣) ن . م والصفحة .
(٤) ن . م ص ١٤ .
(٥) ن . م والصفحة .

المظاهر تخطيا لأحكام الحلال . ولعل ترديد الإمام للقول بتفضيله الفقر عن الغنى يكشف أيضا عن دوره فى الميدان الإجتماعى . لقد انضم إلى جماهير المسلمين الغفيرة لكى يشد أزرها ، أما محبته للفقر ، وتفضيله إياه ، فلأنه يساعده على نبذ « المادة » فتقوى لديه حياة « الروح » .

ثم إن تحرى الدقة المتناهية فى الحلال من الطعام هو المظهر الحقيقى للورع — وهو قيمة أخرى من القيم الإسلامية — إذ يعبر عن الخوف العملى من الله سبحانه وتعالى . وأنه لمن المعقول أن نفترض انزعاجه الشديد من إقبال الفقراء على موائد الأمراء والحكام والأثرياء ، فكان يرقبهم عن كثب ويعلن رأيه فيهم « عزيز على أن تذيب الدنيا أكباد رجال وعت صدورهم القرآن !! »[1] . وينقل لنا ابن الجوزى ثلاثة وقائع تدل على محاولة الإمام تطبيق فكرة الحلال تطبيقا شديدا[2] .

وربما لوصف « الحنبلى » تفسير آخر يكشف عن المحاربة العنيفة التى لقيها الإمام أحمد من خصومه العتاة ، فاستطاعوا بما لهم من نفوذ سياسى أن يسيئوا إلى الشيخ الكبير بالتشهير به على نطاق واسع ، لكى يمحوا تأثير موقفه المعاند لهم من قلوب جماهير المسلمين الذين اتخذوه إماماً . ونعثر فى هذا الصدد على عبارة قالها أحد أولئك الذين حاولوا شد أزره فى المحنة ، قال له « وإنك رأس الناس اليوم ، فإياك أن تجيبهم إلى ما يدعونك »[3] . ولا شك أن الإمام كان يعبر بموقفه عن الضمير الجمعى لأهل السنة والجماعة حينذاك .

خشى إذن أصحاب السلطة مكانة الإمام على أنفسهم فابتدعوا هذه الفرية ، وأصبحت كلمة « الحنبلى » علامة على التشديد المتناهى ، لأنه رفض الاستجابة لهم بالقول بخلق القرآن . وظلت الكلمة تتردد ، بينما الإمام المظلوم برىء مما وسموه به . فمن الثابت أنه فى اجتهاداته الفقهية أكثر يسرا من المذاهب الأخرى فى المعاملات ثم أن إمامنا كان موضع تبجيل واحترام بواسطة الأغلبية العظمى من معاصريه ، إذ يقول أبو نعيم « فيمن لا أحصيهم من أهل العلم والفقه ، يعظمون أحمد بن حنبل

---

(١) ابن الجوزى / مناقب الإمام أحمد ص ٢٠٠ . (٢) ن . م . ٢٦١ وما بعدها .

(٣) ابن كثير / البداية . جـ ١٠ ص ٣٣٢ .

ويوقرونه ويبجلونه ويقصدونه للسلام عليه »[1] . فليست هذه الفرية إذن إلا من جانب خصومه المقربين لذوى السلطان ، وأخذوا يرددونها فاستقرت خطأ فى الأذهان بغير وعى ، وتقرّب لنا أدوار أجهزة الإعلام فى عصرنا الحاضر التى كثيرا ما تجعل الباطل حقا والعكس كذلك !

أما علاقة ابن حنبل بالصوفية — ولا يفوتنا أن نذكر أنه استعمل لفظ الصوفى — فيبدو أنه ، فيما عدا معارضته لبعض المظاهر ، فإنه كان يتدخل لتوضيح آراءه فيما يثيرونه من مسائل . من ذلك مثلا ، أنه لما سئل « كيف أكلك ؟ كيف نومك ؟ كيف جماعك ؟ » أجاب إجابة مختصرة ، ولكنها تشمل كثيرا من الانحرافات التى كان الصوفية سببا فى ظهورها ، فقد قال « ليس أنا بحصور ولا روحانى » !![2] .

ولكننا نلاحظ أنه آثر أن يضع لكتابه اسم « الزهد » لا « التصوف » ، فإذا ما أضفنا إلى ذلك عبد الله بن المبارك وبشر الحافى قبله ، الذين وضعا مؤلفين فى الموضوع بنفس الاسم ، فإن المغزى يشير إلى تفضيلهم إياه ، وربما يدل على أنهم وجدوا فى التصوف من دخيل التيارات وغريب الثقافات ما نأى بهم عنه ، فآثروا الخوض فى الحياة الزاهدة الإسلامية الأصل والمنبع ، والتى عثروا عليها عند السلف فسجلوها وخاضوا فيها متابعين لها ومقتفين أثرها .

أما الرواية المشهورة عن سؤاله لأبى حمزة الصوفى « ما تقول فيها يا صوفى ؟ » فإنه لم يكن يهدف بسؤاله الاستفسار عما يجهله بقدر ما يود تصحيح الرأى الذى يذهب إليه هذا الصوفى . وهذا ما ذهب إليه القاضى أبو يعلى فى تعليقه على الخبر فيقول « أراد — والله أعلم — بسؤاله إن أصاب أقره عليه ، وإن أخطأ بينه له »[3] .

وفى تعريف الإمام للزهد ، تقيد بطريقة أهل الحديث ، فنقل رأى أحد السابقين وهو الزهرى « ١٢٤ هـ = ٧٤١ م » ، قال « حدثنا سفيان عن الزهرى — أن الزهد فى الدنيا قصر الأمل »[4] . ويضيف إلى هذه العبارة أبو طالب

(١) ابو نعيم / الحلية جـ ٩ ص ١٧١ .
(٢) ابن الجوزى / مناقب الإمام ص ٢٢٣ .
(٣) أبو يعلى / طبقات الحنابلة جـ ١ ص ٢٦٨ .
(٤) أبو يعلى / طبقات الحنابلة جـ ١ ص ١٠٧ .

المشكانى ــ صاحب الإمام الذى نقل عنه مسائل كثيرة ــ « ٢٤٤ هـ = ٨٥٨ م » ما سمعه فيقول « وسئل أحمد ، وأنا شاهد ما الزهد فى الدنيا ؟ قال : قصر الأمل والإياس مما فى أيدى الناس »[١] .

ولم يخرج ابن حنبل فى نظريته فى الزهد عن الإطار التقليدى للقيم التى حملها السلف ، ويمكن ترتيب رءوس الموضوعات التى صاغ حولها آراءه بحيث تنحصر فى تناوله لعلاقة الإنسان بالله تعالى التى تحكمها نظرية الإخلاص وتوفر النية والتقوى ، وحياة الإنسان فى الدارين ــ الدنيا والآخرة ــ ثم حديثه عن حياة القلوب أو المحبة والرضى .

يرى ابن حنبل أن قيمتى الصدق والإخلاص هما سبب الرفعة[٢] ، ويعرف التوكل بأنه الاستشراف باليأس من الناس ، ويحتج على ذلك بالخليل إبراهيم عليه السلام عندما وضع فى النار[٣] .

ويلخص مذهبه الأخلاق فى عبارة موجزة ، إذ ينصح بأن « كل شىء من الخير نهتم به فبادر به قبل أن يحال بينك وبينه »[٤] .

وقد حرصنا على الإتيان بهذه العبارة عقب رأيه فى التوكل مباشرة لأن المقارنة بينهما تفسح لنا مجال الحديث عن تفضيله للوحدة أو العزلة . فليست هذه الوحدة من النوع الذى خاض فيه الصوفية ، لأن تحقيق الخير لا يتم فى صورته الكاملة إلا فى المجتمع ، فما السبب إذن فى حضه على الإياس مما فى أيدى الناس ؟!

إن متابعة حياة ابن حنبل تفصح عن كراهيته التامة للشهرة ، إذ كان يتعجب من التفاف الناس حوله ، ومشيهم وراءه ، ويرى أنه بلى بالشهرة ، ويفضل عليها خمول الذكر ، ويغضب لمن يقول له « لا يزال الناس بخير ما من الله عليهم ببقائك » ويرجو من قائل ذلك ألا يردد قوله مرة أخرى ، ويتساءل متعجباً « ومن أنا فى الناس ؟! »[٥] . فليست وحدته نوع من الكبر والتعالى على الناس ، ولكنه كان

---

(١) النابلسى / مختصر طبقات الحنابلة ص ١٨ .
(٢) ابن الجوزى / مناقب الإمام أحمد بن حنبل ــ ص ١٩٥ .
(٣) ن م ١٩٨ .
(٤) ابن الجوزى / مناقب الإمام أحمد بن حنبل ص ١٩٩ .
(٥) ابن الجوزى / مناقب الإمام أحمد بن حنبل ص ٢٧٦ .

يخشى فى الواقع الأثر النفسى لتعظيمهم لشأنه . وهو يعبر لنا عن خشيته بقوله « أخاف أن يكون هذا استدراجا ، أسأل الله أن يجعلنا خيراً مما يظنون ، ويغفر لنا ما لا يعلمون » !![1] . ثم أنه فى عبارات أخرى ، يفصح عن نفسه الرقيقة التى تكره صحبة الناس لوحشة الفراق[2] ، فالفراق بعد المعاشرة والألفة عسير على نفسه التى رقت بالعاطفة والود .

وفى تأملنا لحديثه عن العزلة أو الخلوة ، نرى إيجابية موقف الإمام إذ يفضل الخلوة لأنها أروح لقلبه[3] . كما أن العزلة تتيح له فرصة التزود من المعرفة والعلم[4] . وفى الوقت نفسه لم يحض على العزلة السلبية — عزلة الصوفية بدعوى أداء النوافل — إذ لما سئل عن أى العملين أفضل : العمل بالسيف والرمح والفروسية أو صلاة التطوع ؟ أجاب « إذا كان هاهنا — يعنى ببغداد — فينال من هذا وهذا ، وإذا كان بالثغر ، فاشتغاله بذلك أفضل من التطوع »[5] ، مستنداً فى ذلك إلى قوله تعالى : ﴿ وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ﴾ .

أما رأيه فى مجال المقارنة بين الدنيا والآخرة فإنه يرى فى الأولى أن قليلها يجزى ، وكثيرها لا يجزى[6] .

وكان يطبق هذا المبدأ على نفسه . فقد رفض عطاء الخليفة المتوكل .

وإن تقشفه وكراهيته لكثرة الأموال ناجم عن فكرته هذه ، فالقليل منها يعاون على أن يستمر فى أداء رسالته فى الحياة ، وهذا هو المقصود بقوله « إنما هو طعام دون طعام ، ولباس دون لباس ، وأيام قلائل »[7] !! وكان يتعجب من أمر القراء الذين استهلكت قلوبهم الدنيا كما أسلفنا .

وأصبحت مناعته فى مقاومة فتنة الأموال موضع إعجاب بشر الحافى الشديد ، إذ يرى هذا الزاهد أن الإمام أحمد قام مقام الأنبياء ، لأنه امتحن بالضراء

---

(١) ن . م ص ٢٧٧ .
(٢) أبو يعلى / طبقات الحنابلة جـ ١ ص ١٨٦ .
(٣) ابن الجوزى / مناقب ص ٢٨٠ .
(٤) ن . م ص ٢٨١ .
(٥) أبو يعلى / طبقات الحنابلة جـ ١ ص ٢٤٧ .
(٦) ن م . ص ١٠ وابن الجوزى / مناقب ص ١٩٧ .
(٧) ن . م والصفحة وابن الجوزى / مناقب ص ٢٤٨ .

على يد المأمون والمعتصم والواثق ، الذين تداولوه بالضرب والحبس والإخافة والترهيب ، فلم يضعف بل حافظ على سلامة عقيدته .

كذلك امتحن بالسراء بواسطة المتوكل ، حيث أنعم عليه بالأموال فرفضها ![1] .

وسئل الإمام أحمد عن الحب فى الله ، فأجاب « أن لا يحبه لطمع الدنيا »[2] وما أحوجنا إلى إعادة الحياة لهذه القيمة التى كاد المسلمون ينسونها — وهى قيمة عظمى تعبر عن مثالية العلاقة بين المسلمين — بسبب قيم العصر المادية .

ولعل أبرز ما يوضح لنا آراء ابن حنبل المتفاعلة مع حياته ، والتى تشكل نظرته الجامعة لعلاقة الإنسان بالغير ، ومع ربه والتى نختم بها حديثنا عن مضمون الحياة الوجدانية العميقة عنده ، وهى عبارة عن إجابته لمن سأله كيف حالك ؟

أجاب « كيف أصبح من ربه يطالبه بأداء الفرض ؟ ونبيه — ﷺ — يطالبه بأداء السنة ؟ والملكان يطالبانه بتصحيح العمل ؟ ونفسه تطالبه بهواها ؟ وإبليس يطالبه بالفحشاء ؟ وملك الموت يطالبه بقبض روحه ؟ وعياله يطالبونه بالنفقة ؟ »[3] .

## ٢ — معروف الكرخى « ٢٠٠ هـ = ٨١٥ م » :

إن حلقات الشيوخ التى تربط مدرسة بغداد بعضها ببعض ، تجعل معالم نظرياتهم للحياة الوجدانية شديدة التماسك ، لا تكاد تختلف فى ملامحها إلا من حيث المنازع الشخصية والانطباعات الفردية الضئيلة . أما الطابع العام لها فهو التمسك بنصوص الكتاب والسنة ، ويشكلون وحدة مترابطة تدافع عن الطارىء من الآراء والنظريات . وسيظهر من خلال عرضنا لآرائهم دور كل منهم فى هذا الميدان .

---

(١) ن . م ص ٢٦٥ .

(٢) ابن الجوزى / مناقب ص ١٩٥ وطبقات جـ ١ ص ٥٧ .

(٣) ابن الجوزى / مناقب ص ٢٨٤ وطبقات الحنابلة جـ ١ ص ٥٧ .

ومن شيوخ بغداد ، معروف الكرخى ، الذى اشتهر « بالزهد والعزوف عن الدنيا ، يغشاه الصالحون ، ويتبرك بلقائه العارفون ، وكان يوصف بأنه مجاب الدعوة ، ويحكى عنه كرامات »[1] .

وكان شيخا لشيوخ آخرين — منهم تلميذه السرى السقطى — « والسرى خال الجنيد كما هو معروف » . فمن الخطأ إذن أن نربط مدرسة بغداد فى الزهد بالحارث المحاسبى وحده وننسى أثر الإمام أحمد بن حنبل ، وقد تبادلوا الصلات معه ، أو نقلوا عنه بعض المسائل كمعروف والجنيد .

وإذا نقبنا فى قصة إسلام معروف الكرخى ، فهل نستدل منها على تأثير نصرانى ؟

الواقع أن سبب إسلامه — لو صح — يؤيد أن الدين الجديد كان المسيطر على قلب هذا الزاهد ، لأنه منذ طفولته رفض عقيدة التثليث الذى حاول مؤدبه أن يلقنه إياها ، وأجاب فى حزم وقطع « بل هو الله أحد »[2].

ومضى فى العمل الذى يحض عليه الكتاب والسنة فيقول « طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب ، وانتظار الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور وارتجاء رحمة من لا يطاع جهل وحمق »[3] .

والعبارة واضحة الدلالة على الحث على العمل والتعلق بالأسباب ، وهو المبدأ الذى حرص على اتباعه زهاد السلف عملا بالاقتداء ونبذ لما طرأ من أفكار . وفى نص آخر نرى معروف الكرخى يذم الجدل وأصحابه بقوله « إذا أراد الله بعبد شرا ، أغلق عنه باب العمل وفتح عليه باب الجدل »[4] .

أما عن رأيه فى التوكل ، فقد استمده من الحديث ، إذ لما سئل عن المصدر الذى استقى منه دعاءه ، قال سمعت أن النبى ﷺ كان يدعو بهذا الدعاء — وذكر أسانيده — وكان دعاؤه « اللهم إن قلوبنا ونواصينا بيديك لم تملكنا منها

---

(١) البغدادى / تاريخ بغداد جـ ١٣ ص ١٩٩ وأبو يعلى طبقات جـ ١ ص ٣٨١

(٢) ابن العماد / شذرات الذهب جـ ١ ص ٣٦٠ . (٣) ن . م والصفحة .

(٤) الذهبى / سير أعلام النبلاء / المجلد ٧ قسم ١ ورقة ٨٩ / ٩٠ .

شيئا ، فإذا فعلت بها فكن أنت وليها واهدها إلى سواء السبيل »[١] .

ولكنه لا ينفى جانب المسئولية الفردية ، إذ يرى أن السبب فى أداء سجدتى السهو ، هو لعقاب القلب لأنه اشتغل وغفل عن الصلاة[٢] .

وكان معروف موضع إعجاب الإمام أحمد بن حنبل لأنه يمثل عنده العلم الصحيح ، الذى ينبغى تحصيله بالعبارة التى وردت فى أكثر من مصدر وهى « إيراد من العلم إلا ما وصل إليه معروف ؟! »[٣] .

وهنا ، يحتمل أحد أمرين : الأول ، وهو أن الإعجاب كان متبادلاً حقيقة بين الشيخين ، فإن القاضى أبا يعلى يذكر أن معروفا وصف الإمام أحمد بعد أن رآه بأنه « فتى عليه آثار النسك »[٤] . أما الاحتمال الثانى ، فإنه مما يلفت نظر الباحث كثرة الروايات التى تعبر عن المودة المتبادلة بينهما ، والتى قد تعزى إلى رغبة كلا الجانبين ــ الصوفية من ناحية ، والفقهاء من ناحية أخرى ــ إلى تضييق شقة الخلاف بينهما .

ولكن الاتجاه السلفى الأخير ينقد بشدة بعض النصوص الواردة عن معروف الكرخى ، إما لأنها تتضمن أقوالا تخالف الأحاديث ، أو تحتوى على أحد مظاهر الشرك كوصف قبر معروف بأنه « الترياق المجرب »[٥] .

ومن طريق ما ينقل عن معروف فيما يتصل بدوامه العمل ، ولو فى نطاق الذكر باللسان ــ ما نقرأه فى « سير أعلام النبلاء » ــ حيث يقول الذهبى « وقص إنسان شارب معروف ، فلم يفتر من الذكر ، فقال : كيف أقص ؟ فقال : أنت تعمل وأنا أعمل »[٦] !!

---

(١) البغدادى / تاريخ بغداد جـ ١٣ ص ١٩٩ . (٢) ن . م ص ٢٠٠ .

(٣) ن . م والصفحة وأبو يعلى / لطبقات الحنابلة جـ ١ ص ٣٨٢ والذهبى / سير أعلام النبلاء مجلد ٧ قسم ١ ورقة ٨٩ .

(٤) أبو يعلى / طبقات الحنابلة جـ ١ ص ٣٨١ .

(٥) تعليقة ١ من نفس المصدر ص ٣٨٢ . (٦) الذهبى / سير أعلام النبلاء مجلد ٧ قسم ١ ورقة ٩٠ .

## ٣ ـــ السرى السقطى « ٢٥٦ هـ أو ٨٦٩ م »

كان السرى تلميذ معروف الكرخى ، وهو خال أبى القاسم الجنيد[١] أى أنه ينتمى إلى الحلقة البغدادية فى الحياة الوجدانية ، كما تضخمت صلته التأثيرية القوية بالإمام أحمد بن حنبل فى ترديده لضرورة تحرى الحلال ، ومناداته بوجوب التحرى الدقيق للتأكد من تحقيقه فى الطعام والشراب ، ولهذا اشتهر السرى بخصائص ثلاثة ، طيب الغذاء ، وتصفية القوت ، وشدة الورع[٢]، وكان ابن حنبل يعرفه بالصفة الأولى خاصة ، أى أنه « الشيخ الذى يعرف بطيب الغذاء »[٣].

كذلك كان السرى من أوائل الذين تكلموا فى محبة الله ، وبلغ الغاية القصوى منها ، إذ يخبرنا عن نفسه ( لو قلت أن هذه الجلدة يبست على هذا العظم من محبته لصدقت[٤] ، كما ينشد الشعر مصورا حبه العميق لله عز وجل فى أدق معنى وأقواه فى قوله :

من لم يبت والحب حشو فؤاده ‏ ‏ ‏ ‏ لم يدر كيف تفت الأكباد[٥]

فهو إلى جانب اهتمامه بتنفيذ واجب تحرى الحلال ، فإن موضوعات تصفية القلوب وشدة الورع استأثرت بالقمامة ، ولعله من أوائل الزهاد الذين تحدثوا أيضا عن التفرقة الدقيقة بين الرضا والصبر ، فنراه فى تعريفه للصبر يقول ( أن تكون مثل الأرض تحمل الجبال ، وبنى آدم ) ، ومع هذا ، فإنها ـــ أى الأرض ـــ لا تشكو ولا تئن ( ولا تسميه بلاء ، بل تسميه نعمة وموهبة من سيدها !! )[٦] .

وتبدأ نظريته فى الحياة من حيث الزهاده فى الدنيا ، والعزلة والوحدة ، لأن ( الدنيا كلها فضول ، إلا خمس خصال : خبز يشبعه ، وماء يرويه ، وثوب يستره ، وبيت يسكنه ، وعلم يستعمله )[٧]. ولكنه فى الوقت نفسه يحرص على الجمعة والجماعة[٨] وذلك اتباعا للسنة بحذافيرها ( لأن قليل فى سنة خير من كثير فى بدعة )[٩] .

---

(١) ابن خلكان / وفيات الأعيان جـ ١ ص ٢٨٢ . (٢) أبو نعيم / حلية الأولياء جـ ١٠ ص ١٢٦

(٣) ن . م والصفحة وابن الجوزى / صفة ص ٢١٣ . (٤) ابن خلكان / وفيات جـ ١ ص ٢٨٢ .

(٥) أبو نعيم / حلية الأولياء جـ ١٠ ص ١١٩ . (٦) ن . م ص ١٢٠ .

(٧) ن . م ص١١٩ . (٨) ابن الجوزى / صفة جـ ٢ ص ٢١٦ .

(٩) ن . م ص٢١٢ .

وتمسكه هنا بالسنة ــ إلى جانب التعاطف الشديد مع الإمام أحمد بن حنبل ــ يظهر لنا التيار السلفى الذى برز بمدرسة بغداد لكى يغذى الحياة الوجدانية بدعائم إسلامية ثابتة ، بعيدة تماما عن تأثير الثقافات الأجنبية . فالسرى يحرص على الجمعة والجماعة ، ويتحرى طيب الغذاء فيقول ( أشتهى أن آكل أكلة ليس لله فيها على تبعة ، ولا أحد على فيها منة ، فما أجد إلى ذلك سبيلا )[1] . فهو فى هذه العبارة يتفق مع ابن حنبل تماما فى تحرى الحلال والتمسك بهذا المبدأ ، واعتباره أساس الزهد وتزكية القلوب ، تمثلا بأهل الورع السابقين ، إذ لما ( ضافت عليهم الأمور فزعوا إلى التقلل )[2] .

كذلك يتضح تأثره بابن حنبل فى تعظيمه للحديث النبوى ، إذ يجعل منه مرحلة ضرورية يبدأ منها الزاهد فإذا ( ابتدأ الإنسان ثم كتب الحديث فتر ، وإذا ابتدأ يكتب الحديث ثم تنسك نفد )[3] . ويكاد يتفق مع الإمام أحمد فى تعريفه التوكل الذى وصفه ابن حنبل بأنه الاستشراف من الناس ، فإن السرى يذهب إلى معنى قريب من هذا ، لأن التوكل عنده هو ( الانخلاع من الحول والقوة )[4] .

ولعل اتفاق السري مع ابن حنبل فى مثل هذه القيم الأخلاقية العليا ، جعلت الزهاد يضعونه فى مصاف الإمام أحمد وبشر الحافى[5] .

وأن هذه المقارنة تشير إلى تمسك الثلاثة بمنهج واحد فى الزهد ، وهو بلا شك الطريق السلفى الذى مكنهم من الوقوف فى وجه التيارات الغريبة عن الإسلام . وهاهو السرى يعترض على نظرية تقسيم العلم إلى ظاهر وباطن ، ويصرح فى جلاء بأن ( من ادعى باطن علم ينقض ظاهر حكم فهو غالط )[6] ،

ويستمد السرى مذهبه الأخلاق من أسس إسلامية بحتة ، فإن الخصال الأربعة التى تقع مع العبد هى ( العلم والأدب والعفة والأمانة )[7] .

---

(١) ابن خلكان / وفيات جـ ١ ص ٢٨٣ وابن كثير / البداية جـ ١١ ص ١٣ والحلية جـ ١٠ ص ١١٦ .
(٢) أبو نعيم / الحلية جـ ١٠ ص ١١٦ . (٣) ن . م ص١٢٥ .
(٤) ن . م ص١١٩ . (٥) ن . م ص١٣٦ .
(٦) أبو نعيم / حلية الأولياء جـ ١٠ ص ١٢١ . (٧) ن م ص ١٢٠ .

## ٤ ــ الجنيد ( ٢٩٧ هـ ) .

يعد الجنيد سيد طائفة الصوفية كما يذكر القشيرى[(١)]. وكان التصوف فى عصره قد اقترب من المرحلة التى أصبح فيها منهجا للمعرفة ، وبدأت معالم الكشف تتخذ أحد الصور الخطيرة بادعاء بعض الصوفية سقوط التكاليف . ووقف الجنيد فى وجهها بعنف وأعلن ( إن الذى يسرق ويزنى أحسن حالا من الذى يقول هذا ، وهو عندى عظيمة ) [(٢)].

لقد اتخذ الجنيد هذا الموقف لأنه بدأ فقيهاً : وكان يفتى وهو ابن عشرين سنة[(٣)] . ، كما أسند الحديث ونقل عن الإمام أحمد بعض المسائل[(٤)] .

ويمثل الجنيد أحد المراحل التى ظهر فيها بداية تأثر الزهاد بالتصوف . فقد لاحظنا أن الاتجاه الغالب للزهاد لايقترب صوب ( علم المعرفة ) ، ولم يتخذوا اسم ( العارفين ) أى كانوا يسلكون الطريق الوجدانى المعتاد الذى غلب عليه اسم الزهد من اتباع الورع والحض على التقوى ، والحديث عن العقيدة الدينية التى تتناول الدنيا والآخرة ، وكانت الدائرة التى ينحصر فيها طريقتهم فى الحياة متداخلة بين المجاهدة للنفس وترك الشهوات ، والحث على تقوية الوازع الدينى فى إطار إسلامى بحت أى انحصرت فى الاتجاه العملى الأخلاق . فهل اضطر الجنيد إلى استخدام أسلوب العصر فى مجابهة تيار التصوف الفلسفى الذى بدأت تتضح معالمه ؟

للإجابة على هذا السؤال ، يقتضى البحث أن ننظر أولا فى المصطلحات التى استخدمها فى التعبير عن آرائه . إنه تكلم عن القديم والمحدث ، أى استعمل اصطلاحات المتكلمين والفلاسفة . وقد يبدو لأول وهله أنه تأثر بالمحاسبى الذى كان يذهب إلى منزله ويدعوه للخروج معه ، وبالرغم من أن الجنيد كان فى بداية الأمر ينزعج من الخروج إلى الطرقات والتعرض بذلك للآفات والشهوات كما يخبرنا عن نفسه ــ إلا أنه سرعان ماكان يستجيب للصوفى المتكلم ويغرقه فى أسئلته المتعاقبة[(٥)] .

---

(١) الرسالة القشيرية ص ١٨ . (٢) ن م ص ١٩ .

(٣) ابن الجوزى / المنتظم جـ ٧ ص ١٠٥ .

(٤) أبو يعلى / طبقات الحنابلة جـ ١ ص ١٢٧ والنابلسى / المختصر ص ٨٩ .

(٥) أبو نعيم / حلية الأولياء جـ ١٠ ص ٢٥٥ / ٢٥٦ .

ولكن هذه القصة التى يذكرها صاحب ( حلية الأولياء ) تضع الجنيد فى صورة الكاره لصحبة المحاسبى الذى يضطر تحت الإلحاح إلى إجابته إلى طلبه . بعبارة أخرى فإن المحاسبى هو الذى يسعى لها وليس الجنيد ، ثم يقول أبو نعيم ( ثم اشتغل بالعبادة )[1] . ونفهم من هذه العبارة أن الجنيد انصرف عن مصاحبة الحارس المحاسبى . وكانت له آراؤه الخاصة جعلته سيد الطائفة .

واتخذ الجنيد موقف الخصومة من الكلام المبتدع فى الدين فهو القائل ( أقل مافى الكلام سقوط هيبة الرب من القلب ، والقلب إذا عرى من الهيبة لله عرى من الإيمان )[2] .

كذلك خاض فى الموضوعات الطارئة التى لم يعرفها الزهاد من قبل ، منها دعوى سقوط التكاليف التى عارضها الجنيد بعنف كما قلنا ، ومنها ظهور مايسمى بمقام المشاهدة الذى بدأ يتسرب إلى الفكر الصوفى يتخذ منه نظرية معرفة ، إن هذه الفكرة كانت تلح على المحيطين بالجنيد ، فيسألونه عنها ( هل عاينت أو شاهدت ؟ ) !! ونعثر فى إجابته على دحضه لنظرية الكشف الصوفى التى يروج لها الصوفية المتأخرون ، إذ يجيب ( لو عاينت تزندقت ، ولو شاهدت تحيرت ) !! ، ثم يؤكد العجز التام فى هذا الصدد بقوله فى نهاية العبارة الآنفة الذكر ( ولكن حيرة فى تيه ، وتيه فى حيرة )[3] .

أما حديثه عن الصفات الإلهية ، وتفرقته بين القديم والحديث ، فيبدو أنه تكلم فيها للرد على نظرية الحلول التى روج لها الحلاج . ومعاصرته للحلاج تؤذن بالعثور على العلاقة بين آراء الحلاج فى الحلول ، وبين تمسك الجنيد بالتفرقة بين القديم والمحدث .

ولا شك أنه رأى أحد مقومات العقيدة السلفية يهتز من أساسه بتأثير فتنة الحلاج ، فأراد أن يعيد الصوفية مرة أخرى إلى العقيدة الصحيحة ، فأعلن أن ( مذهبنا إفراد القديم عن المحدث[4] . وفى تعريفه للتصوف يؤكد فكرة ( الاثنينية )

---

(١) أبو يعلى / طبقات الحنابلة جـ ١ ص ١٢٧ .

(٢) السيوطى / صون المنطق والكلام ص ٧٤ تحقيق د . النشار ط الخانجى ١٣٦٦ هـ ١٩٤٧ م .

(٣) أبو نعيم / الحلية جـ ١٠ ص ٢٧٤ .

(٤) ابن العماد / شذرات الذهب جـ ٢ ص ٢٢٨ .

ليدحض نظرية ( الحلول ) ، ويميز بين الله تعالى ومخلوقاته فيعرف التصوف بأنه ( صفاء المعاملة مع الله )[1]، ثم أوضح أن طريق الخيرات كلها مفتوح لمن اقتفى أثر الرسول ﷺ واتبع سنته[2] فأعاد بذلك أهل القلوب وأصحاب الإرادات من جديد إلى سبيل السنة ، ولهذا أصبح شيخهم المعبر عن أحوالهم ومواجيدهم . ولما لجأ إليه ابن كلاب ليسأله عن التوحيد ، أجابه باصطلاحات الصوفية . قال عندئذ ابن كلاب ( هذا كلام لا يمكن فيه المناظرة )[3].

وقد تلقف التيار السلفي هذه الآراء للجنيد ليضعه فى مصاف الشيوخ الذين دافعوا عن العقيدة فى أحد المراحل التى كانت معرضة فيها لمخاطر الآراء الأجنبية ويعجب به ابن تيمية ويستشهد بآرائه فى نظرية الفناء .

وأخيراً ، تقابلنا الرواية المعتادة التى تكرر عن موت كل شخصية هامة فى المذاهب المختلفة ، وهى الرؤى التى يراها المريدون والأتباع لشيوخ المذهب . فإذا سئل الجنيد فى هذه القصة التقليدية ، فلابد أن يجيب بلسان المذهب أيضاً !!

وتتلخص إجابته فيما اكتشفه بعد الموت من أن مظاهر التصوف من الإشارات ، والعبارات ، والعلوم ، والرسوم قد غابت كلها وفنيت « وما نفعنا إلا ركيعات كنا نركعها فى الأسحار »[4]. أى بعبارة أخرى تعبر عن المذهب السلفى أصدق تعبير : لقد ذهبت الوساوس والخطرات هباء منثوراً لا قيمة لها ولا نفع ، وبقيت الفاعلية للعمل وحده الذى كان الجنيد معظماً لشأنه أثناء حياته ، إذ فسر قوله تعالى « ودرسوا ما فيه ــ الأعراف : ١٦٩ » بأنهم تركوا العمل به[5].

## ٥ ــ عمرو بن عثمان أبو عبد الله المكى « ٢٩٧ هـ = ٩٠٩ م »

يذكر ابن الجوزى أنه ولى قضاء جدة فهجره الجنيد لأنه رأى أن قبوله تولى القضاء يعبر عن الاتساع فى طلب الدنيا ! ، ثم ينتهى فى ختام ترجمته له أنه توفى ببغداد[6] .

---

(١) أبو يعلى / طبقات الحنابلة جـ ١ ص ١٢٨ . (٢) الحلية جـ ١٠ ص٢٥٧ .

(٣) أبو العماد / شذرات الذهب جـ ٢ ص٢٢٩ .

(٤) أبو يعلى / طبقات الحنابلة جـ ١ ص ١٢٩ وأبو نعيم / حلية الأولياء جـ ١٠ ص ٢٥٧ .

(٥) أبو يعلى / طبقات الحنابلة جـ ١ ص ١٣٨ . (٦) ابن الجوزى / المنتظم جـ ٦ ص ٩٣ .

ويبدو أنه نشأ بالحجاز إذ يلقب بـ « بالمكى » نسبة إلى مكة ، ثم أن توليه القضاء بجدة يدلنا على أنه مكث بأرض الحجاز ، ولكننا لا نعرف الوقت الذى انتقل فيه إلى بغداد ، وربما ذهب إليها رغبة فى التنقل والترحال الذى اعتاده الصوفية ، إذ يورد أبو نعيم فى ترجمته له أنه « ساح فى البلاد »[(1)].

ولعل ما لفت نظر ابن تيمية إليه ليضعه فى مصاف أهل الزهد السلفيين ، ما ينقله لنا من نصوص كتاب له يسمى « التعرف بأحوال العباد والمتعبدين » ، الذى ضمنه عقيدة السلف فى الصفات ، مع إضفاء الطابع الروحى الذى نلمسه فى مثل تفسير قوله تعالى ﴿ **وجاء ربك والملك صفا صفا** ﴾ بأن المجىء بصفة لا تلحقه الكيفية ولا التشبيه فيستحسر العقل ، وتنقطع النفس عند إرادة الدخول فى تحصيل كيفية المعبود[(2)].

كما يورد النصوص المثبتة لصفات العلو ، فى تفسيره لقول الله تعالى ﴿ **أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور ، أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا ؟!** ﴾ .

يوضح المكى تفسير الآيتين بأن الله تعالى وتقدس أقرب فى قربه من حبل الوريد ، وأنه عز وجل البعيد فى علوه من كل مكان بعيد ، ثم يقول « تعالى وتقدس أن يكون فى الأرض كما هو فى السماء ، جل عن ذلك وعلا علواً كبيرا »[(3)].

ثم نرى هذا الطابع ظاهراً بصفة خاصة عند تفسيره للآيتين اللتين يرى شيوخ السلف أنهما يتضمنان الحجة فى إثبات صفات الله دون تشبيه أو تمثيل أو تعطيل وهما ﴿ **ليس كمثله شىء** ﴾ ــ [ الشورى / ١١ ] وقوله عز وجل ﴿ **ولم يكن له كفوا أحد** ﴾ ــ [ سورة الإخلاص ] .

ويحيط المكى تفسيره لهما بما ينفعل به وجدانه من الإجلال والمحبة لله فيقول « واعلم ــ رحمك الله ــ أن كل ما توهمه قلبك ، أو رسخ فى مجال فكرتك ، أو خطر فى معارضات قلبك ، من حسن أو بهاء أو إشراف أو ضياء أو جمال أو شبح

---

(١) أبو نعيم / الحلية جـ ١٠ ص ٢١١ .

(٢) ابن تيمية / الرسالة الحموية الكبرى ( مجموعة نفائس ) ص ١٢٨ .

(٣) ابن تيمية / الرسالة الحموية الكبرى ( مجموعة نفائس ) ص ١٢٨ .

مائل أو شخص متمثل ، فالله بخلاف ذلك كله »[1] .

ويكاد يتطابق هذا الوصف مع عبارة مشابهة وردت على لسان ابن تيمية فى مجال الصفات يقول فيها « ولكنا نعلم أن ما اختص به الله وامتاز به عن خلقه ، أعظم مما يخطر بالبال ، أو يدور فى الخيال !! »[2].

ونعود إلى تفسير المكى ، الذى نلمح فيه التأثير الوجدانى غالباً . فهو ليس تفسيراً رمزياً ــ مثل تفسير « لطائف الإشارات » للقشيرى مثلا ــ بحيث ينأى بالمعنى المصرح إلى معنى آخر رمزى ، ولكنه هنا ، حيث حياة القلوب وانفعالات النفوس ، يجعل الآيات تنبض بالوجد والمحبة ، فتجعلنا نحس تذوق المكى للمعانى بمنهج أصحاب الأحوال والمقامات .

وأول المقامات عنده هو مقام التوكل ، إذ يهرب العبد فزعا إلى الله ، متخلصاً من حيرة الهوى « إذ لا قابض ولا باسط ولا نافع ولا ضار ولا معين ، ولا ناصر ولا عاصم ، ولا عاضد إلا الله وحده لا شريك له فى سمائه وأرضه »[3].

ويستمد معنى المراقبة من قوله تعالى ﴿ **إن الله كان عليكم رقيبا** ﴾ [ النساء / ١ ] التى تستلزم الإخلاص والورع . وتفقد القلوب بالأعمال والنيات فى كل الأحوال والأعمال والحركات والسكنات ، إن حياة القلوب والضمائر عنده هى الأصل ، وهى المحرك للجوارح ، فإذا دامت حالة المراقبة لله فى القلوب ، فشا الحياء فيها ، فأعظمت حركات الله حياء من جلال الله . فإذا ما تمكنت المراقبة فى القلوب ازداد الحياء من الله .

ولا يمضى شيخنا فى هذا التفسير الوجدانى إلى مداه ، إلا بعد أن يستهدف منه تحقيق أوامر الشريعة ، واجتناب نواهيها . فالغرض من المراقبة لا يعنى الانحباس فى دائرة المحبة والوجد ، بل بيان تأثير ذلك على المراقبة ، فإذا ما عظمت مراقبة الله فى القلوب ، أصبحت أكثر حياء إذ « دوام الحياء يوجب عن القلوب إعظام حرمات الله »[4].

---

(١) أبو نعيم / حلية الأولياء جـ ١٠ ص ٢٩١ .

(٢) ابن تيمية / الرسالة التدمرية ( مجموعة نفائس ) ص ١٩ .

(٣) أبو نعيم / حلية الأولياء جـ ١٠ ص ٢٩١ . (٤) ن . م ص ٢٩٥ .

كذلك يفعل المكى فى نظرته إلى النفس والتنقيب عن أحوالها ، وأخذها بالمجاهدة لينتقل بها من التوبة والاستغفار ، إلى التقشف والتعب والنصب ، إلى المحاسبة والتوقيف على كل لحظة وخطرة وهمة وشهوة وإرادة ، ويمضى فى هذه الأحوال ، لينقل النفس إلى أحوال جديدة تتحقق عندها تذوق المحبة والسرور والراحة ( فذلك كله من صفة الحياة التى دعا الله إليها ، ونبه قلوبهم عليها بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ **استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم** ﴾[ **الأنفال** / ٣٤ ](١) .

هذا هو الهدف الذى يسعى وراءه الشيخ من تفسيره الآيات : أى تعظيم أوامر الله ، واجتناب نواهيه ، وتعميق الحياة الوجدانية عند المسلم لتحقيق معنى الحياة التى تنص عليها الآية .

إلى جانب هذا ، نلاحظ أسلوبه الأخاذ فى التفسير الذى لا يخلو أحيانا من الإسراف فى استخدام المحسنات اللغوية ، والاعتماد على إيقاع الكلمات المترادفة فى تأكيد المعانى التى يريدها . ففى تفسيره لقول الملائكة ﴿ **لا علم لنا إلا ما علمتنا** ﴾ [ البقرة / ٣٢ ] يصفهم بأنهم « خشوع ، خضوع ، خنوع فى حجرات سرادقات العرش محبوسون أن يتأملوا ساطع النور الأوهج ، فهم يضجون حول عرشه بالتقديس ضجيجا ويعجون بالتسبيح عجيجا ، باهتون ، راهبون ، خائفون ، مشفقون وجلون لما بدا لهم من عظيم القدرة ، ولما أيقنوا به وسلموا له من شموخ الرفعة »(٢) .

والحق أن التفسير الذوق يحتاج أيضا ، إلى جانب تأكيد أوامر الشريعة ونواهيها ، توضيح هذه الصورة الأخاذة التى تأخذ بمجامع القلوب فتكون أدنى لقبول العظة . وهذا فيما يبدو ما كان يهدف إليه عمرو المكى .

أما اهتمامه بآيات الصفات ، فمرده إلى رغبته فى الدفاع عن العقيدة الصحيحة ، ليعاند أفكار الحلول أو الاتحاد التى كان الباطنية وأتباع الحلاج قد بثوها بين صفوف الصوفية .

إننا نرى تأكيده على التثبت بالعقيدة السلفية من حيث إعلانه تأييده لصفات الله تعالى ، دون تعطيل أو تشبيه أو تمثيل ، فى مثل قوله ( تعالى وتقدس ؛

---

(١) أبو نعيم / حلية الأولياء جـ ١٠ ص ٢٩٥ . (٢) ن . م ص ٢٩٢ .

أن يحل بجسم ، أو يمازج بجسم ، أو يلاصق به ، تعالى عن ذلك علوا كبيرا )[1] .

ولهذا نجد المكى ينضم إلى أصحاب الحديث . وبينما المسائل المتشابكة ، وفى وسط حلقات المرجئة والمعتزلة والخوارج ، كان لأصحاب الحديث دورهم فى التمسك بعقيدة السلف ، فتقفوا النصوص ، وحرصوا على منهج النقل . ثم كان موقفهم الذى أعلنه زهادهم للرد على أصحاب أفكار الحلول والاتحاد ، لا سيما وأن المكى عرف الحلاج وصحبه فى أحد أدوار حياته ، ولما اكتشف محاولته تقليد القرآن عنفه واشتد عليه ، ثم نبذه . يقول المكى « كنت أماشيه — يقصد الحلاج — فى بعض أزقة مكة ، وكنت أقرأ القرآن ، فسمع قراءتى فقال : يمكننى أن أقول مثل هذا ، ففارقته »[2] .

ولقد نقل لنا هذه الواقعة مصدران من مصادر الصوفية اللذان يتخذهما الصوفية حججا لا سبيل للطعن فيهما ، ونعنى بهما « رسالة القشيرى » و « اللمع » للطوسى .

فقد أورد القشيرى أن المكى لما رأى الحسن بن منصور — أى الحلاج — يكتب شيئا سأله عما يكتبه ، فأجاب « هو ذا أعارض القرآن » ويعلق القشيرى على ذلك قوله « فدعا عليه وهجره . قال الشيوخ إن ما حل به بعد طول المدة كان لدعاء ذلك الشيخ عليه »[3] .

أما الطوسى فقد ذكر هذه الواقعة أيضاً بشكل مختلف ، فأرجع غضب المكى على الحلاج إلى أخذه منه كتاب فى شيء من العلوم الخاصة ، وهروبه به ، فلما علم بذلك قال « سوف يقطع يديه ورجليه ويضرب رقبته »[4] .

---

(١) ابن تيمية / الرسالة الحموية الكبرى ص ١٢٨ .
(٢) البغدادى / تاريخ بغداد جـ ٢ ص ١٢١ .
(٣) الرسالة القشيرية ص ١٥١ .
(٤) الطوسى / اللمع ص ٤٩٩ .

## سابعاً : خراسان

من الدعاوى التى تستحق النظر فى أبحاث المهتمين بالدراسات الإسلامية من بعض المستشرقين محاولة إيجاد الصلة المبكرة بين زهاد المسلمين الأوائل بخراسان ، وبين البوذية . والمثال على ذلك قول نيكلسون « إن البوذية سادت خراسان قبل الفتح الإسلامى بألف عام ، كما سادت فى فارس الشرقية عموماً ، ومن هنا كان لابد أن تؤثر فى نمو الصوفية فى هذه الأصقاع »[1] .

ولكنه يعود فيناقش نفسه عندما يذهب إلى أن عامة المسلمين ينظرون بكراهية إلى أتباع بوذا لأنهم وثنيون ، ومن ثم « فليس من الغريب ، ولا من المحتمل أن يعقدوا معهم أواصر صلة » !![2]

فإذا كان هذا الحكم يصدق على عامة المسلمين كما يرى ، فما باله بعلماء خراسان الكبار من الزهاد الأوائل مثل الفضيل بن عياض وعبد الله بن المبارك وغيرهما ، الذين وقفوا بالمرصاد لكافة البدع — وهو اصطلاح يعنى به أى تسلل لتأثير أجنبى . كان الفضيل يقول « أدركت خيار الناس كلهم أصحاب سنة ينهون عن أصحابَ البدع ، وصاحب سنة وإن قل عمله فإنى أرجو له ، وصاحب بدعة لا يرفع الله عملا وإن كثر »[3] ، وكان ينهى من مخالطة أهل البدع كما سيأتى .

كان تأثير الإسلام إذن قويا فى نفوسهم . وهذا ما أقره المستشرق نولدكه الذى رأى « أن الحركة الهلينية لم تمس من الحياة الفارسية إلا السطح والقشور ، بينما استطاع الدين العربى — وهو يقصد الإسلام — والحياة العربية أن ينفذا إلى قرارة الحياة الإيرانية ولبابها »[4] .

---

(١) نيكلسون / الصوفية فى الإسلام ص ٢٤ — ترجمة شريبة .

(٢) نيكلسون / الصوفية فى الإسلام ص ٢٣ — ترجمة شريبة .

(٣) ابن بطه ٣٨٧هـ / الشرح والإبانة ص ٣٢ .

(٤) براون / تاريخ الأدب فى إيران ص ١٣ .

وأيده براون المستشرق الإنجليزى ، ولكنه كان يهدف بتأكيده هذا المعنى إلى نفث روح العداء بين المسلمين — من العرب وغيرهم — وهى دعوى شعوبية « كان غايتها القضاء على الروح الإسلامية فى إيران وفصلها سياسيا عن المجموعة العربية »(١) .

ثم تلقف جولد تسهير فكرة السياحة وحاول إرجاعها إلى الرهبانية ويذهب إلى أن « الكلمتين مترادفتين تماما »(٢) . وهو يعنى الزهاد الذين ساحوا فى البلاد ولم يتنبه إلى أن المعنى الصحيح للسياحة هو طلب العلم . قال عكرمة « ١٠٧ هـ = ٧٢٥ م » — وهو مولى ابن عباس وأحد التابعين والمفسرين المكثرين : السائحون هم طلبة العلم (٣). ثم إن أوائل السائحين فى الإسلام — كما يرى أستاذنا الدكتور النشار « لم يكونوا زهاداً . بل كانوا محدثين ، تفتيشاً وراء الحديث ، وتحريا لمواطنه ولصحة رواته »(٤) . وسنرى كيف أفنى عبد الله بن المبارك عمره فى الأسفار حاجا ومجاهدا ، وتاجرا ، وطالبا للحديث(٥) .

وفى عرضنا لحياة الزهد فى مدرسة خراسان ، سنبحث فى آراء أربعة شيوخ بها وهم :

إبراهيم بن أدهم « ١٦١ / أو ١٦٢ هـ = ٧٧٧ / أو ٧٧٨ م » .

الفضيل بن عياض « ١٨٧ هـ = ٨٠٢ م » .

عبد الله بن المبارك « ١٨١ هـ = ٧٩٧ م » .

أبو عثمان الحيرى النيسابورى « ٢٩٨ هـ = ٩١٠ م » .

## ١ — إبراهيم بن أدهم :

**إذا كانت قصة اتجاه ابراهيم بن أدهم إلى حياة الزهد والعزلة واختيار الانسلاخ عن الإمارة بمحض إرادته قد سيقت على نمط قصة بوذا ، فإننا لانستطيع الإغضاء عن التأثير القوى المباشر للشيوخ الذين عاش معهم ، وحدث عنهم وحدثوا عنه .**

---

(١) د . النشار / نشأة الفكر الفلسفى جـ٣ ص ٥٣٥ .

(٢) جولد تسهير / العقيدة والشريعة ص ١٤٨ . (٣) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ٢٨٤ .

(٤) د . النشار / نشأة الفكر جـ ٣ ص ٥٣٧ . (٥) الذهبى / تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ٢٥٠ .

ولو افترضنا صحة التحول الذى طرأ على حياته ، فإن الافتراض الأكثر صحة وهو انطواؤه تحت لواء الجماعة الزاهدة المسلمة التى أسست المذهب فى إطار آيات الكتاب ، وتقيدت بالمبادىء الإسلامية البحتة .

فإبراهيم بن أدهم ممن اشتهروا بطيب المطعم[1] ، ووضع فكرة الحلال أساساً للنبل ــ التى قد تكون مقدمة لفكرة الفتوة ــ فيقول لم ينبل عندنا من نبل بالحج والجهاد وإنما نبل من كان يعقل مايدخل جوفه ، يعنى الرغيفين ، من حله )[2] .

والدراسة التحليلية لأفكاره فى الزهد لاتخرج عن الإطار العام الذى اتسم به أصحابه ، مما أوجد نوعا من توارد الخواطر أو القبول المشترك بينهم . من ذلك أن من آرائه تفضيل العزلة لأنه يكتفى بالله صاحبا[3] . فإنه يردد أصداء نفس الاتجاه الذى يميل إليه الفضيل بن عياض أيضاً ، فإذا ماسمع من يفضل العزلة عن الجماعة يتساءل ( سمعتم كلاما أحسن منه ؟! )[4] .

والذى يجعل من قصة تشبهه بهذا أثراً باهتا ليس له مفعول يذكر ، بجانب الأصول الإسلامية ، إنه كان يفضل الحصول على قوته بنفسه ، فيعمل فى مواسم الحصاد[5] ويرى أن الأغنياء أكثر حسابا عند الله فى اليوم الآخر ، فهم عنده ( المساكين ) لأنهم سيسألون عن الزكاة والحج والجهاد وصلة الرحم ، بينما الفقراء لا يسألون عن ذلك كله[6] .

أما الغنى فليس معناه الإكثار من المال ، ولكنه ينصرف عنده إلى عدم التطلع إلى المزيد منه ، فقد رغب أحدهم فى إهداء جبة له ، فلم يمتنع ابن أدهم عن قبولها ولكنه اشترط أن يكون غنيا لكى يقبلها منه ، ثم تأكد قبل قبولها من غنى الرجل فسأله : كم عندك ؟ فأجاب الرجل بأنه يمتلك ألفين ، فعاد يسأله : ( فيسرك أن تكون أربعة آلاف ؟؛ قال نعم ، ، قال : أنت فقير ، لا أقبلها ) !![7] .

وكان ابن أدهم يكثر من زيارة القبور لكى يتخذ من الموت عظة وعبرة ، ثم ينصح أصحابه ( إخوتى ، عليكم بالمبادأة والجد والاجتهاد وسارعوا وسابقوا )[8] وهو

---

(١) ابن قتيبة / عيون الأخبار جـ ٢ ص ٢٦٠ .
(٢) ابن الجوزى / صفة جـ ٤ ص ١٢٩ .
(٣) ابن قتيبة / عيون الأخبار جـ ٢ ص ٣٦٠ .
(٤) ن . م والصفحة .
(٥) ابن الجوزى / صفة جـ ٤ ص ١٢٧ .
(٦) ابن الجوزى / صفة جـ ٤ ص ١٢٩ .
(٧) ابن قتيبة / عيون الأخبار جـ ٢ ص٣٦٢ .
(٨) ابن الجوزى / صفة جـ ٤ ص ١٢٨ .

دائم الذكر لله فى جوف الليل ، فكلما استيقظ صاحبه وجده فى ذكره ! فينظر إلى نفسه فيغتم ، لأنه لايستطيع مسابقة ابن أدهم فى ذكره الدائم ، ولكنه سرعان مايتذكر الآية التى تطبق على الزاهد﴿ **ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء** ﴾ [ المائدة / ٥٤ ][1] .

ولم يستحوذ الخوف وحده على قلب إبراهيم بن أدهم ، بل كانت تتملكه أيضا محبة الله والشوق إليه ، فإذا ماأحس بهذه الخواطر قال ( يارب ، تهت فى حبك فلم أدر ماأقول ) !![2] .

من هذا يتضح أن حياته الوجدانية كانت فى الدائرة الإسلامية ، كما أنه ــ كما يذكر نيكلسون ــ لم ينتقل من حدود الزهد إلى حدود التصوف لأن مذهبه فى الزهد لا يخرج عن ( الإعراض عن الدنيا ، وتأديب النفس )[3] .

ثم تلتف الأسطورة بعد ذلك حول زاهدنا ، فتعدد كراماته ، وهذا لا بأس به . أما أشد صور هذه الأساطير تطرفاً ، فهى التى تصور إبراهيم بن أدهم وعليه فرو ، فلا يميز من يراه بين شعره وبين القمل لكثرته !![4] .

وأما أشد هذه الصورة بعداً عن حقيقة سلوك المسلم ، الذى فرض عليه الوضوء ، وتحقيق النظافة فى بدنه وملبسه ؟! فهو يعى جيدا القواعد التى دعى إليها الإسلام ، ولا يكتفى بترديد العظات والكلمات ، وإنما يحققها ويدعو إلى العمل بها . قيل له إن الله لا يستجيب لدعائنا وهو القائل ﴿ **ادعونى أستجب لكم** ﴾ [ غافر / ٦٠ ] ، فأجاب ( ماتت قلوبهم فى عشرة أشياء : أولها عرفتم الله فلم تؤدوا حقه . والثانى ، قرأتم كتاب الله ولم تعملوا به . والثالث ، ادعيتم حب رسول الله ﷺ وتركتم سنته . والرابع ، ادعيتم عداوة الشيطان ووافقتموه . والخامس ، قلتم نحب الجنة وما تعملون لها .. )[5] .

ويمضى النص بعد ذلك متضمنا مبادىء الإسلام ، ويغلب عليه طابع السلوك كما قلنا . من أجل هذا ، فإن القول بأن إبراهيم بن أدهم سلك سبيل الصوفية قول

---

(١) ن . م ص ١٣٠ . (٢) ابن الجوزى / صفة جـ ٤ ص ١٣٢ .

(٣) دائرة المعارف الإسلامية / مادة إبراهيم بن أدهم ــ بقلم نيكلسون .

(٤) القشيرى / الرسالة القشيرية ص ٧٠ .

يحتاج إلى دليل ، إذ يذهب الدكتور أبو العلا عفيفى إلى أنه هو صاحب الحركة الصوفية فى خراسان(١)

أما الحق فإن ابن أدهم سلك سبيل الزهاد ( وكانت حياته إسلامية بحتة .. رابط كما رابط غيره من الزهاد .. واتبع السنة )(٢) .

## ٢ ــ الفضيل بن عياض : ( ١٨٧ هـ = ٨٠٢ م )

لن نحاول التعرض لمدى صحة الرواية التاريخية التى تتردد فى أغلب المصادر عن سابق حياة الفضيل بن عياض ، حيث كان شاطرا يقطع الطريق . ولكننا نميل إلى القول بأنها تحمل فى طياتها حبكة فنية ، يحتمل معها تعمد الوضع بواسطة الصوفية ، لاسيما وهى تصوره وهو ينصت للآية ﴿ **ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ومانزل من الحق** ﴾[ سورة الحديد / ١٦ ] ، فيرتدع عن قطع الطريق على المسافرين ، وبعد أن ينصت إليهم وهم يعبرون عن خوفهم منه ، يستيقظ من غفلته على أصواتهم وهم يتشاورون فيم يفعلون لاتقاء شروره !! وهنا يعلن توبته ( اللهم إنى قد تبت إليك ، وجعلت توبتى مجاورة البيت الحرام )(٣) .

وربما وجدت هذه القصة آذانا صاغية ، لأنها تتفق فى السياق مع ما اشتهر به الفضيل من شدة خوفه وبكائه كلما أنصت إلى آيات الله تتلى عليه .

والذى يعنينا ــ مع افتراض صحة هذه الواقعة ــ هو دراسة مذهبه فى الزهد ، لأنه احتل مكانا بارزا بين الشيوخ السلفيين ، إذ يصفه ابن تيمية بأنه ( سيد المسلمين فى وقته )(٥) .

ووصفه ابن حجر العسقلانى ( ٨٥٢هـ = ١٤٤٨ م ) بأنه الزاهد الخراسانى . **فنشأته إذن كانت بخراسان ، ويقول ابن كثير بأنه قدم الكوفة وهو كبير(٦) . فهل مال إلى الطابع الخراسانى ؟؟ أم غلبت عليه سمة الكوفيين ؟. سينجلى الأمر أثناء بحثنا .**

---

(١) د . أبو العلا عفيفى / الملامتية والصوفية وأهل الفترة ص ٣٠ .

(٢) د . النشار / نشأة الفكر جـ ٣ ص ٤٧١ .

(٣) ابن حجر العسقلانى / تهذيب التهذيب جـ ٨ ص ٢٩٤ .

(٤) ابن تيمية : التصوف ٦٠٠ (٥) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٠ ص ١٨٩ .

سمع الفضيل الحديث بالكوفة بعد أن انتقل إليها من مسقط رأسه خراسان ، وتدل الأقوال الكثيرة التى أوردها ابن حجر العسقلانى أن رجال الحديث عدوه من الثقات ، واتفقوا على أنه كان فاضلا عابدا ورعا . كما نقل لنا نصا على لسان عبد الله ابن المبارك يصفه فيه بأنه أورع الناس ، وأنه مابقى على ظهر الأرض أفضل عنده من الفضيل بن عياض(١) .

وكون الزاهد الكبير من رجال الحديث يدلنا على تمسكه بالسنة ، ونهيه بشدة عن الأخذ من أصحاب البدع أو الاختلاف بهم . يقول الفضيل ( صاحب بدعة لا تأمنه على دينك ، ولا تشاوره فى أمرك ، ولا تجلس إليه ، فإنه من جلس إلى صاحب بدعة ورثه الله العمى )(٢) !! .

وهو يقصد بأهل البدع الطوائف المخالفة للسنة ، ومنها المرجئة الذين قالوا بأن الإيمان إقرار بالعمل ، فيعتبر ذلك منهم مخالفة للأثر . حيث ينص الحديث على أن ( الإيمان بضع وسبعون شعبة ، أفضلها لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان )(٣) فهو يستند فى دفاعه عن الأثر ، ويتمسك بنص الحديث ، ويخشى على المسلمين من عقيدة المرجئة المشجعة على ترك الأعمال .

وإذا كان الفضيل قد اتصف ( بالورع الدائم والخوف الوافر والبكاء الكثير )(٤) فإن ذلك لايعدو كونه ارتباطاً بالأئمة السابقين . فإن ظاهرة الخوف واضحة عند الخلفاء الراشدين وعند أمثال أبى الدرداء وأويس القرنى وحسن البصرى ، بسبب الخشية من الله ، وتذكرهم الدائم للموت والمنتظر بعده فليس الفضيل إذاً بدعاً حين نراه إذا ماخرج فى جنازة يعظ ويذكر ويبكى ، حتى يصل إلى المقابر ( فيجلس مكانه من الموتى ، من الحزن والبكاء حتى يقوم وكأنه رجع من الآخرة ) !!(٥) .

هذا هو التفسير الأقرب للصحة لشدة حزنه ، إذا أن الفترة الزمنية التى عاش فيها ، تسبق بكثير عصر ظهور الملامتيه فى خراسان . ثم أن الفضيل — كمحدث — كان يرتبط بالزهاد من أهل الحديث أوثق ارتباط كسفيان الثورى الذى

---

(١) تهذيب التهذيب جـ ٨ ص ٢٩٤ . (٢) ابن بطة : الإبانـة .. ص ٣٦ .
(٣) عبد الله ابن حنبل / كتاب السنة ص ١٠٠ . (٤) ابن حجر / تهذيب التهذب جـ ٨ ص ٢٩٦ .
(٥) الذهبى / سير أعلام النبلاء مجلد ٦ قسم ٢ ورقة ٢٥٩ .

روى عنه[1] ، وصحبته لكل من سفيان بن عيينه[2] وعبد الله بن المبارك[3] . ولا ننسى المصدر الإسلامى الأول ، وهو القرآن الكريم ، الذى انعكس أثره عليه بعمق عند بداية اتخاذه طريق التوبة ، فقد استجاب لوقع الآيات القرآنية فى نفسه ، ومضى متأثراً بها فى أطوار حياته ، فلم يتخل عن الخوف والرهبة كلما سمع القرآن يتلى عليه ، فإذا ماأنصت إلى الآية ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾ [ الذاريات / ٥٦ ] أصابته الرعدة ، وأرقته الخشية من التقصير فى أداء حق ربه عليه فيقول ( فالويل لى إن سألنى ، والويل لى إن ناقشنى ، والويل لى إن لم ألهم حجتى !! )[4] . واستقر الخوف من الله فى قلبه فكان ( إذا ذكر الله ، أو ذكر عنده ، أو سمع القرآن ، ظهر به من الخوف والحزن ، وفاضت عيناه . وبكى حتى يرحمه من يحضره )[5] .

ولكن الحزن لم يستغرقه كله ـــ كشأن الملامتيه فى خراسان فيما بعد ـــ لأنه تحدث عن المحبة التى تربط العبد بربه ، ومن علاماتها التقرب إليه بالنوافل ، وقيام الليل بصفة خاصة ، فهو يعبر عن ذلك بما يرويه ، أو يتصور أنه كذلك حديثاً عن الله ، يقول الله تعالى فيه « كذب من ادعى محبتى ، وإذا أجنه الليل نام عنى أليس كل حبيب يحب خلوة حبيبه ، ها أنذا مطلع على أحبائى ، إذا أجنهم الليل جعلت أبصارهم فى قلوبهم ومثلت نفسى بين أعينهم »[6] .

ويلخص نظرية المحبة الإلهية فى عبارة أخرى موجزة فيقول ( أوثق عرى الإسلام الحب فى الله ، والبغض فى الله )[7] فيصبح الحب خالصا لله لا لغرض آخر ، وعلى العكس ، يكون البغض بسبب المعاصى التى يبغضها الله ، لابسبب التنافس على متاع الدنيا .

ولما رسخ فى قلبه هذا العمل الفريد من أعمال القلوب ، أى الحب فى الله

---

(١) عبد الله ابن حنبل / السنة ١٠١ .
(٢) ابن الجوزى / صفة جـ ٢ ص ١٣٥ .
(٣) ابن حجر / تهذيب التهذيب جـ ٨ ص ٢٩٧ .
(٤) ابن الجوزى / صفة جـ ٢ ص ١٣٩ .
(٥) الذهبى / سير أعلام النبلاء مجلد ٦ قسم ٢ ورقة ٢٩٩ .
(٦) ابن قتيبة / عيون الأخبار ص ٣٠٠
(٧) ابن بطة /.... الإبانة ص ٣٦ .

والبغض فى الله ، تجاسر على الوقوف أمام الرشيد آمرا بالمعروف ، ناهيا عن المنكر غير هياب ولا وجل .

فإن للفضيل موقفاً مع الرشيد ، حيث يعظه ويؤدى فيه دور الآمر بالمعروف الناهى عن المنكر فى صيغة ساخرة ، ولكنها ذات دلالة عميقة .

قال له الرشيد : ( ماأزهدك ) !! فأجابه الفضيل بقوله ( أنت أزهد منى ، لأنى أنا زهدت فى الدنيا التى هى أقل من جناح بعوضة ، وأنت زهدت فى الآخرة !! )[1] .

ونراه هذه المرة ينقد الخليفة بكياسة ، وبأسلوب صريح ولكنه لين يحمل فى طياته الكثير من المعانى .

وفى مرة أخرى ، حينما استدعت المصارحة ألا يختفى وراء الأسلوب اللين فى المخاطبة ، كان شديداً فى حديثه للرشيد ، فقال له ( إن الله لم يجعل أحدا من هؤلاء فوقك فى الدنيا . فاجهد نفسك أن لا يكون أحد منهم فوقك فى الآخرة )[2] ثم يحثه بالكدح لنفسه ، والعمل فى طاعة ربه . ويشتد أيضا فى إحدى المرات عليه حتى يُبكيه !![3] .

وهكذا قام بدور فعال لمراقبة الخليفة الحاكم محققا أثرا يعادل ــ بل ربما يفوق ــ أثر مجلس كامل من المجالس النيابية المعاصرة ، ولا عجب لأن الطرفين يشتركان فى اعتناق القيم الإسلامية نفسها ــ مع الحرص على تطبيقها ، فلا يحتاج الأمر إذن إلا لمجرد طلب الشورى من جانب والتذكرة من جانب آخر !

وكان القرآن الكريم هو المعين الذى يغترف منه الفضيل بن عياض .. يقرأه ، وينظر فى آياته ، ويستخلص منها الأسس النظرية لحياته . أنه يجد ضرورة الإخلاص فى العمل لقوله تعالى ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾ فيفسرها بأن العمل ينبغى أن يتوافر فيه كل من الصواب والإخلاص ، فإن فقد إحدى الصفتين لم يقبل ، فالخالص هو أن يكون لله ، والصواب هو اتفاقه مع السنة[4] .

---

(١) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ١٠ ص ١٩٩ .
(٢) ن . م ص ٢١٥ .
(٣) ن . م ص ٢١٧ .
(٤) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٢١٧ .

وحرص الفضيل على متابعة الرسول صلوات الله عليه وصحابته والتابعين عندما أوضح المبادىء الأخلاقية التى يرى التمسك بها . فهى — بعد الإيمان وأداء الفرائض ( صدق الحديث ، وحفظ الأمانة ، وترك الخيانة ، ووفاء بالعهد ، وصلة الرحم ، والنصيحة لجميع المسلمين ، والرحمة للناس عامة )[1] ، ولما سئل عما إذا كان هذا من رأيه ، أجاب بأنه سمعه من السابقين أهل الفضل والفقه . وقد ظل متأثراً أشد التأثر بالسابقين لأنه أدرك — كما يخبرنا — خير الناس ، كلهم أصحاب سنة ، ولهذا فهو يرى — تعظيما لشأنهم — أن البلاد تحيا بهم ، فهم حزب الله إذ يقول ( إن لله عباداً تحيا بهم البلاد ، وهم أصحاب السنة . من كان منهم يعقل ما يدخل جوفه . ومن كان كذلك كان فى حزب الله عز وجل )[2].

وللفضيل رأى طريف فى الربط بين المعصية ، والمعاناة فى الحياة اليومية ، فيذهب إلى أنه عندما يعصى العبد الله ، يستطيع أن يرى أثر ذلك فى خلق امرأته ، وخادمه ، وحماره ، بل فأربيته أيضاً !![3].

وكأنه قبل موته ، ألهم بالأحداث التى ستهب على المسلمين بعده ، ولن يستطيع التصدى لها — كما فعل مع أهل الإرجاء — إذ ظهر بعد موته القول بخلق القرآن ، وكان يتخوف أثناء حياته من موت الرشيد ، ويلهم بما سيحدث بعده[4] ،فهو يقول ( طوبى لمن مات على الإسلام والسنة ) ، ثم بكى ( على زمان تظهر فيه البدعة ، فإذا كان ذلك كذلك ، فأكثروا من قول ماشاء الله )[5] .

وظلت شخصية الفضيل مؤثرة فى أصحابه الذين رأوا فيه ارتباط النظر بالتطبيق ، فكان عبد الله بن المبارك يقول عنه ( إذا نظرت إلى الفضيل ، جدد لى الحزن ، ومقت نفسى )[6] !!

فماذا كان يفعل ابن المبارك بدوره ؟ هذا ما سنتحدث عنه الآن ...

## ٣ — عبد الله بن المبارك ( ١٨١ هـ = ١٩٧ م )

لا يسع الباحث أمام المواهب المتعددة لشخصية ما ، إلا التردد كثيراً حتى

---

(١) ن . م ص ١٩٩ ومجموعة الرسائل الكبرى جـ ٢ ص ٤١١ .

(٢) ابن بطة / الإبانة .. ص ٢٧ . (٣) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ١٠ ص ١٩٩ .

(٤) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٢٢١ . (٥) ابن بطه / الابانة .. ص ٣٧ .

(٦) ابن حجر العسقلانى / تهذيب التهذيب جـ ٨ ص ٢٩٦ ، ٢٩٧ .

يستأثر بأحد النواحى دون الأخرى .

وأمام عبد الله بن المبارك ، نقف طويلا لنتساءل : أى هذه الجوانب تدخل فى نطاق دراستنا ؟

لقد أجمع أصحابه على أنه علم من أعلام الفقه والأدب والنحو واللغة والزهد والشجاعة والسعة والفصاحة وقيام الليل والعبادة والحج والغزو والفروسية[١] ويبدو أن الذهبي تريث طويلا قبل أن يختار أبرز صفاته وأطلق عليه ( الإمام ، شيخ الإسلام ، عالم زمانه وأمير الأتقياء فى وقته ) !![٢] .

إن ابن المبارك يعبر بحق عن الشخصية المثالية للإنسان المسلم . وسنحاول أن نكشف عن بعض الجوانب فى شخصيته :

ولد عبد الله بن المبارك عام ١١٨ هـ ، وعاصر الخلافتين الأموية فى أواخر أيامها ، والعباسية فى مقتبلها ، أى أيام الرشيد . وتمدنا النصوص بمعلومات نفهم منها أن الود كان مفتقدا بينه وبين الخليفة العباسى ، وقد يرجع السبب إلى استئثار إمامنا باهتمام الجماهير . ومما يساعدنا على استخلاص ذلك أنه عندما جمعت الصدفة بينه وبين الرشيد فى الرقة ، تزاحم عليه الناس مما أصار دهشة أم ولد للرشيد عن هذا الإمام الذى تتوافد عليه الناس واستفسرت عمن يكون . أجابوها بأنه أحد العلماء القادمين من خراسان ، فعلقت باقتضاب ( هذا هو الملك ! لا ملك هارون الرشيد الذى يجمع الناس عليه بالسوط والعصا والرغبة والرهبة )[٣] !!

أما السبب الثانى ـــ وهو الأهم ـــ فيعود إلى ما كان يفعله الإمام من دعوى عدم التعاون مع الخليفة أيا كان نوع هذا العمل ـــ أى حتى ولو كان القضاء ـــ وهنا نرى الدور الذى يكاد يؤديه علماء المسلمين فى اتباع مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

ومن المحتمل أن ابن المبارك لديه من الأسباب ما دعاه إلى مقاطعة صديقه ابن

---

(١) الذهبى / تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ٢٥١ وسير أعلام النبلاء مجلد ٦ قسم ٢ ورقة ٢٥١ .

(٢) ن . م ورقة ٢٤٥ وكتاب ( العلو للعلى الغفار ) للمؤلف ص ١١٠ .

(٣) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ١٠ ص ١٧٨ والذهبى / سير .. مجلد ٦ قسم ٢ ص ٢٤٧ .

عليه ( ١٩٣هـ ـــ ٨٠٨ م )[1] ، فلم يصله بالصرة التى كان يصله بها فى كل عام . فكتب ابن عليه للإمام مستفسراً عن السبب حتى يقدم الاعتذار فيما بدر منه ، ولم يجد ابن المبارك بدا من الكتابة له شعراً . فإذا ما تأملنا أبيات الشعر التى وجهها لصديقه الذى ولى القضاء ، نستطيع أن نعثر على ملامح نظرية ابن المبارك فى الزهد .

قال :

| | |
|---|---|
| يا جاعل الدين له بازيا | يصطاد أموال المساكين |
| احتلت للدنيا ولذاتها | بحيلة تذهب بالدين |
| فصرت مجنونا بها بعدما | كنت دواء للمجانين |
| أين رواياتك فى سردها ؟ | عن ابن عون وابن سيرين ؟ |
| أين رواياتك فى سردها ؟ | لترك أبواب السلاطين ؟ |
| إن قلت : أكرهت ، فذا باطل | زل حمار العلم فى الطين[2] |

ويلفت نظرنا جانب الإكراه الذى يشير إليه فى البيت الأخير ، لأنه هو نفسه مر بهذه التجربة . فقد طلبه الرشيد لمقابلته فاختفى ابن المبارك لمدة ثلاثة أيام حتى لا يتمثل أمام الخليفة . ثم ظهر بعدها ، فقيل له تجتنب ثم تظهر ؟ أجاب ( أردت نفسى على الموت فأبت ، فلما أجابتنى ظهرت )[3] !!

أراد إذن أن يهيء نفسه لأبعد الاحتمالات قبل مقابلته للرشيد ـــ فيما لو تمت ـــ لأنه كان يتوقع أن يعبر بآرائه الصادقة ، مهما كانت قاسية ، أى حتى لو أدت إلى حتفه ، فهو يقول ( لا تأتهم . فإن آتيتهم فاصدقهم )[4] .

والظاهر أن عبد الله بن المبارك كان سيتخذ نفس الموقف فيما لو قدر له أن يعيش فى ظل الخلافة الأموية . فإن من الشذرات التى أوردها ابن كثير فى ( البداية والنهاية ) ـــ نقلا عن كتاب الزهد لابن المبارك ـــ ما نستخلص منه اتجاه الإمام نحو معاوية . فقد سجل فيه مقابلة تمت بين عمر بن الخطاب ومعاوية أثناء الحج . وكان

(١) ابن عليه هو أحد عباد البصرة وأصله كوفى ( أبو يعلى / طبقات الحنابلة جـ ١ ص ١٩٩ ) .

(٢) أبو يعلى / طبقات الحنابلة جـ ١ ص ١٠٠ ، ويقول الذهبى ( وقيل أن ابن المبارك كتب إليه هذه الأبيات لما ولى صدقات البصرة ) ميزان الاعتدال جـ ١ ص ١٠٢ .

(٣) الذهبى / تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ٢٥٣ .

(٤) أبو يعلى / طبقات الحنابلة جـ ١ ص ١٠٦ .

الثانى أبيض الناس وأجملهم .. فكان عمر ينظر إليه فيعجب منه ، ولم يقتنع بالمبررات التى قدمها للصاحب الثانى حينما قال ( يا أمير المؤمنين .. سأحدثك أنا بأرض الحمامات والشهوات ) ، لأن عمر رأى أن معاوية لم يظهر بهذا المظهر — أى فى بهائه وثيابه المعطرة — إلا بإلطافه نفسه بأطيب الطعام ، بينما ذوى الحاجات وراء بابه[1] .

وألف ابن المبارك كتابه فى ( الزهد ) . ويبدو أنه ضمنه أخبار السابقين . وكان حريصاً . كما فعل ابن حنبل بعده ، على تقييد سلوكه بالمذهب . كما كان شديد المعارضة للكلام المبتدع فى الدين إذ يرى أن ( من تعاطى الكلام تزندق )[2] .

واقتضت طبيعة عمل هذا الإمام فى التجارة الانتقال من بلد إلى آخر . كما أفنى عمره فى الأسفار تاجراً ومجاهداً وحاجا[3] : وكان ينفق كسبه من التجارة على أهل الزهد والعبادة والعلم ، وربما دعت الحاجة إلى الإنفاق من رأس ماله أيضا . وكان دأبه إطعام أصحابه اللحم والدجاج والحلوى ، بينما هو الدهر صائم فى الحر الشديد ، فإذا أكل لا يأكل إلا البقل والخبز[4] !!

وقد فضل مرة أن ينفق ماأعده من مال للحج إلى جارية وأخيها اكتشف بمحض الصدفة أنها لم تجد ما تقتات به إلا الميتة من شدة العوز والفاقة ، فأعطاها ماكان مخصصا لرحلة الحج — أى ألف دينار — استبقى منها عشرين دينارا فقط للعودة ، وهو يرى أن هذا التصرف أفضل من الحج فى عامه ، ورجع هذا العام[5] .

ويعنينا أن نوضح بأن كثرة سفره غازيا وحاجا تشير إلى أنه فهم السياحة على أنها الجهاد — كما ينص على ذلك الحديث ، ففى السنن أن النبى ﷺ قال ( إن لكل أمة سياحة ، وسياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله )[6] . ولقد أخطأ جولد تسهير عندما فسر السياحة بأنها الرهبانية بينما الرهبانية بعيدة تماما عن نظرية الجهاد الإسلامية التى احتلت مكانتها بين المسلمين استنادا إلى فهمهم لنصوص الكتاب والسنة ( فإن نفع الجهاد عام لفاعله ولغيره فى الدين والدنيا ، ومشتمل على جميع أنواع العبادات الباطنة والظاهرة ، فإنه مشتمل على محبة الله تعالى ، والإخلاص له ،

(١) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٨ ص ١٢٥ .
(٢) ابن بطة / الديانة ص ٣٢ .
(٣) الذهبى / تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ٢٥٠ .
(٤) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ١٠ ص ١٧٨ .
(٥) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ١٠ ص ١٧٨ .
(٦) ابن تيمية / السياسة الشرعية ١٣١ .

والتوكل عليه ، وتسليم النفس والمال له ، والصبر والزهد ، وذكر الله وسائر أنواع الأعمال على مالا يشتمل علبه عمل آخر )[1] .

فهم عبد الله بن المبارك فضل الجهاد ، ومات منصرفا من الغزو[2] .

أما حياته العلمية فكانت أعجب ، فإنه كان كثير الانتقال فى طلب الحديث إلى العراق والحجاز والشام ومصر واليمن[3] . وقد أدرك جماعة من كبار الأئمة كالثورى وشعبة والأوزاعى[4] . واتصل بالفضيل بن عياض ووصفه بأنه ( مابقى على ظهر الأرض أفضل من الفضيل )[5] .

ومع هذا ، فإذا ما وجد وقتا ، مكث فى بيته قارئا لتراث السلف فإذا ما سئل : ألا تستوحش ؟ أجاب ( كيف أستوحش وأنا مع النبى ﷺ وأصحابه ؟! )[6] . ويورد ابن الجوزى إجابته بصيغة أخرى يقول فيها ( أنظر فى علمى فأدرك آثارهم وأعمالهم ، ما أصنع معكم ؟! أنتم تغتابون الناس !! )[7] وكان يحرص على طلب العلم ويعد القراءة بمثابة الجلوس مع الصحابة والتابعين مادام يقرأ عنهم[8] .

ويذكر ابن النديم أن لابن المبارك من الكتب ( السنن فى الفقه والتفسير والتاريخ والزهد والبر والصلة )[9] .

واكتشف زاهدنا أن للعلم غاية أسمى من طلب الدنيا إذ دله على تركها[10] ، ويقول أيضا ( عجبت لمن يطلب الغلم كيف تدعوه نفسه إلى مكرمة )[11] .

ألهذا السبب كان يؤرقه ضميره ، فإذا ماقرأ كتاب ( الزهد ) فكأنه ثور قد

---

(١) ن . م ص ١٣٢ .
(٢) ابن سعد / الطبقات جـ ٧ ص ٣٧٢ وابن الجوزى / صفة جـ ٤ ص ١٢٢ .
(٣) الطبقات جـ ٧ ص ٣٧٢ .
(٤) صفة جـ ٤ ص ١٢٢ .
(٥) الذهبى / تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ٢٢٣ .
(٦) الذهبى / سير .. مجلد ٦ قسم ٢ ورقة ٢٤٦ .
(٧) صفة جـ ٤ ص ١٢٢ .
(٨) ن . م والصفحة .
(٩) ابن النديم / الفهرست ص ٢٢٨ ط ليبزج ١٨٧٢ .
(١٠) ابن الجوزى / صفة جـ ٤ ص ١٢٠ .
(١١) الذهبى / سير أعلام النبلاء مجلد ٦ قسم ٢ ورقة ٢٥١ .

ذبح لا يقدر أن يتكلم ؟!!![1] .

لا نستبعد ذلك ، لأنه غاص فى أعماق النفس الإنسانية ، فعرف الكبر بأنه ازدراء الناس ، ورأى فى العجب أن « ترى أن عندك شيئا ليس عند غيرك » [2] ، كما يعدد الفضائل التى يمكن التحلى بها حسب ترتيبها ، فإن خير ما أعطى الإنسان هو العقل ، ثم تتدرج الفضائل بعد ذلك إلى حسن الأدب .. فصمت طويل . ولما سئل عمن لم تتوافر لديه إحدى هذه الخصال ، أجاب بكلمتين معبرتين « .. موت عاجل » ! ! [3] .

ولا شك أن منهجه هو الاقتداء والتمسك بالأثر . قال : « ليكن علتكم الأثر ، وخذوا من الرأى ما يفسر لكم الحديث » [4] . وعجب لأمر رجل قرأ القرآن فى ركعة ، لأنه هو نفسه ظل يكرر ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ فى إحدى الليالى حتى الصباح لم يستطع تجاوزها من فرط إمعانه فيها [5] .

وهكذا نرى أمامنا شخصية منطلقة ، تتفاعل مع الحياة والناس . فلم تلهه التجارة عن الجهاد وطلب الحديث والانكباب على القراءة والمشاركة بآرائه فى تدعيم القيم الأخلاقية . التى لم ينفرد فيها بآراء خاصة ، بل ارتبط بمذهب الأئمة السابقين والمعاصرين له . فإنه حتى عند مزاولته التجارة ، قد تحرى طريقة الاقتداء إذ يقول « لولا خمسة ما اتجرت : السفيانان وفضيل وابن السماك وابن عليه » [6] .

وكان شعار الزهد حينذاك هو العبادة والعلم والجهاد ، إلى جانب الاهتمام بالنظر إلى مصير الإنسان بعد الموت والاستعداد ليوم الميعاد .

## ٤ ــ أبو عثمان الحيرى النيسابوري : ( ٢٩٨ هـ = ٩١٠ م )

كانت مكانة أبى عثمان الحيرى النيسابورى تضارع مكانة الجنيد ببغداد [7] .

وقد احتل هذه المكانة عند شيوخ المدرسة السلفية ــ لا سيما ابن تيمية ــ

---

(١) الذهبى / تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ٥٢٣ . (٢) الذهبى / تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ٥٢٣ .

(٣) الذهبى / سير أعلام النبلاء مجلد ٦ قسم ٢ ورقة ٢٥١ .

(٤) ن . م . (٥) ن . م .

(٦) الذهبى / ميزان الاعتدال جـ ١ ص ١٠١ .

(٧) ابن الجوزى / صفة جـ ٤ ص ٨٧ وابن العماد / شذرات الذهب جـ ٢ ص ٢٣٠ .

لأنه كان من المعظمين للكتاب والسنة . فهو ينصح بالصحبة مع الله تعالى ( بحسن الأدب ، ودوام الهيبة والمراقبة . والصحبة مع الرسول ﷺ باتباع سنته ، ولزوم ظاهر العلم )[1]. ويتجلى اتجاهه للتمسك بالسنة بصفة خاصة من تفسير قوله تعالى ﴿ وإن تطيعوه تهتدوا ﴾ بأن اتباع السنة يؤدى إلى النطق بالحكمة ، وبالعكس ، من حكم الهوى على نفسه نطق بالبدعة .

أما حديثه عن النفس ـــ التى اتخذ منه الدكتور أبو العلا عفيفى ـــ دليلا على أنه اتجاه ملامتى لأن ( من المبادىء الأساسية التى صدر فيها فى مذهبه الملامتى أن العالم شر لا خير فيه )[2]، فإننا نجد فى هذا التفسير اختلافا عن مقصود أبى حفص كما سنرى ، إذ أن كل ما يهدف إليه هو محاولته تطبيق قواعد الكتاب والسنة بحذافيرها .

أما البحث فى العلاقة بين الفتوة والملامة ، والقول بأنهما ( وجهان لحقيقة واحدة ، وأن الملامتية هم على وجه التحقيق فتيان الصوفية )[3]، فإن ذلك يذكرنا بالاتجاه الموضوعى لابن تيمية فى بحثه للتصوف وكل ما يتصل به . إنه لم يعن بالأسماء والصفات بقدر عنايته بالمضمون . وفى نظرته للفتوة وصلتها بالشريعة ، استشهد برأى الإمام أحمد بن حنبل ، فالفتوة عنده ( ترك ما تهوى لما تخشى )[4]، مطابقة لقول الله تعالى ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ﴾ [ النازعات ] . ويقول ابن تيمية ( فمن دعا إلى مادعا إليه الله ورسوله ﷺ من مكارم الأخلاق كان محسنا ، سواء سمى ذلك فتوة أو لم يسمه . ومن أحدث فى دين الله ما ليس منه فهو رد )[5] .

وهذا مافعله أبو عثمان الحيرى . ونعنى بذلك دعوته إلى مادعا إليه الله ورسوله وإخلاصه لذلك قولا وفعلا . فقد ظل مخلصا للسنة حتى نهاية حياته ، إذ رأى ـــ وهو على فراش الموت ـــ ابنه يمزق قميصه حزنا . فتنبه ، وفتح عينيه لينصح ابنه ( يابنى .. خلاف السنة فى الظاهر من رياء فى باطن القلب الباطن )[6] .

---

(١) أبو نعيم / حلية الأولياء جـ ١٠ ص ٢٤٥ . (٢) د . عفيفى / الملامتية والصوفية .. ص ٤٢ .
(٣) ن . م ص ٦٨ . (٤) ابن تيمية / التصوف ص ٨٤ .
(٥) ن . م والصفحة .
(٦) ابن الجوزى / صفة جـ ٤ ص ٨٨ وأبو نعيم / حلية الأولياء جـ ١٠ ص ٢٤٥ .

وينبغى أن نتوقف قليلا عند ما جاء بذيل عبارته التى يقول فيها ناصحا ( ولزوم ظاهر العلم ) ، إذ يمكن اتخاذها كأحد الدلائل هل اتجاه بدأ يظهر للرد الحاسم على الصوفية الذين انحرفوا إلى الاتجاه الباطنى ، وتوغلوا فى التقسيم الثنائى — الشريعة والحقيقة — إذ ظلت المدرسة السلفية — فى دائرة زهادها والذين اختاروا حياة القلوب والوجدان من شيوخها وروادها — تتابع فهم النصوص بمنهج السلف وتقاوم أى انحراف عنه ، سواء كان بواسطة الصوفية أو المتكلمين أو الفلاسفة .

وليس معنى لزوم ظاهر العلم هو التعلق بالقشور دون اللباب ، فإننا نرى أبا عثمان يغوص إلى أعماق النفس ليصف لنا سعادتها وشقائها وينصح باتباع العلاج الحاسم لها ، فإن علامة السعادة هى طاعة الله تعالى ( وتخاف أن تكون مردوداً ، وعلامة الشقاوة أن تعصى الله وترجو أن تكون مقبولا )(١) .

أما عن آفات النفس من الكبر والعجب واحتقار الناس والخوف من غير الله والاستسلام للهوى والسرور بالدنيا ، فإنها كلها تؤدى إلى انقطاع العبد عن طريق الله وافتقاد السرور بالله فى القلب ، كما يصبح بمعزل عن الرجاء فى الله ، بعبارة أخرى ، يصبح العبد ذليلا ، سجين شهواته ، بينما التفويض لله يؤدى إلى راحة نفسه ( والتفويض مقدمة للرضا ، والرضا باب الله الأعظم )(٢) .

وفى نظريته عن صلاح القلوب وفسادها ، يرى أن شرط صلاحها هو جعل الهيمنة لله تعالى وحده ، تواضعا له ، وفقرا إليه ، وخوفا منه ، ورجاء فيه فإذا ما انحرفت القلوب عن الله ، كان فى ذلك فسادها ، وانتقلت من حالة الرضا إلى حالة الاضطراب والصراع مع الناس بدافع الطمع فى المال ، والطمع فى إكرام الناس وقبولهم .

ولا نظن أنه بهذا المبدأ كان يريد العزلة والانقطاع عن الحياة الاجتماعية ، لأنه فى مجال التطبيق ، يذكر الصفات التى ينبغى أن يتحلى بها العباد فى صحبتهم لله ولرسوله وأولياء الله والأهل والولد والإخوان ، محدداً أسس العلاقات التى ينبغى أن تقوم عليها هذه الصحبة ، وكلها مبادىء أخلاقية يحرص على تحديدها للجميع ، بما فى ذلك صحبه الجهال ! ، فينصح عند صحبة الأخيرين ( بالدعاء لهم ، والرحمة

---

(١) أبو نعيم الحلية جـ ١٠ ص ٢٥٤ .
(٢) ن . م ٢٤٥ / ٢٤٦ .

عليهم ، ورؤية نعمة الله عليك أن عافاك مما ابتلاهم به )[1] .

كان مقصود أبو عثمان إذن هو جعل الهيمنة الكاملة لله تعالى وحده فى كل الأفعال والتصرفات ، ويتأتى ذلك بذكره الدائم قولا وفعلا . فيقول ( أن تذكره فى ذكرك له ، أنك لم تصل إلى ذكره إلا به ، وبفضله )[2] .

(١) ابن الجوزى / صفة جـ ٤ ص ٨٧ وأبو نعيم / حلية الأولياء جـ ١٠ ص ٢٤٥ .
(٢) ابن الجوزى / صفة جـ ٤ ص ٨٧ وأبو نعيم / حلية أولياء جـ ١٠ ص ٢٤٥ .

## ثامنا : اليمن

### ١ ــ طاووس بين كيسان اليمانى ( ١٠٦ هـ ــ ٧٢٤ م)

لم تنفرد بلاد دون أخرى بالقيم الأخلاقية ، فإن طبيعة هذه القيم تتلاقى من حيث صدورها من مصدر واحد ، ولكن اختلاف البلدان قد يضفى عليها طابعا خاصا عند التطبيق والتعامل .

وقد رأينا فى طوافنا بأفكار وملامح المسلمين الأوائل أنهم يشكلون وحدة متماسكة تتفق من حيث تعمقها فى فهم النصوص وانعكاس آثار الآيات والأحاديث على وجدانهم .

لقد انتشر الصحابة والتابعون فى الأمصار المختلفة ، واختار طاووس بن كيسان اليمانى الإقامة باليمن ، وهو أول طبقة أهلها من التابعين[١] .

وفى بحثنا للأفكار التى تدور حول موضوعنا ، سنحاول أن نتبين مدى احتوائها على عناصر أخرى ، وبصفة خاصة الآثار الفارسية ، إذ يذكر ابن كثير أنه ( من أبناء الفرس الذين أرسلهم كسرى إلى اليمن )[٢] .

إن مانعرفه عن النظام الفارسى حينذاك فى الحكم هو الخضوع التام لملوكهم ، ووضعهم فى مرتبة التقديس . ولكن ، عندما جاء الإسلام بنظرية الشورى فى الحكم ، ولم يجعل للعربى فضلا على العجمى إلا بالتقوى ، كان لذلك التحول أثره العميق فى النفوس ، بحيث انحسرت العقائد السابقة . قد تبدو آثارها أحيانا ، وهذا أمر طبيعى بالنسبة للبعض الذى تحول من عقيدة إلى أخرى ، وقد تشتد هذه الآثار وتضعف لأسباب لا محل هنا لبحثها ، يبقى الضوء الساطع مؤثرا ــ أى شمس الرسالة والنبوة كما يسميها ابن تيمية ــ بحيث تحجب ما عداها . وكانت هذه الظاهرة

---

(١) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ٢٣٥ .   (٢) ن . م والصفحة .

واضحة فى الصحابة والتابعين .

وكان طاووس من التابعين كما قلنا ، وازداد تأثره بالدين الجديد ، لأنه أدرك عصرا من الصحابة ، ويعد من أكبر أصحاب ابن عباس ترجمان القرآن [1] .

فلا عجب إذن أن يتبدل من موقف الذى يقدس الملوك إلى موقف المؤمن العزيز ، الذى لا يخشى إلا الله . ويرفض طاووس السعى لمقابلة أمير المؤمنين حينما قدم مكة . وكان طاووس بها حينئذ ، لأنه ليس به إليه حاجة . ولما ألح أصحابه أن يذهب لأمير المؤمنين خشية منه عليه ، فإنه لم يأبه أيضاً ، لأنه يعمل بما يعتقده ، ويطابق النظر بالعمل . وهو نفسه ينصح عطاء ( يا عطاء .. إياك أن ترفع حوائجك إلى من أغلق دونك بابه . وجعل دونه حجابه .. وعليك بطلب من بابه لك مفتوح إلى يوم القيامة ، طلب منك أن تدعوه ووعدك الإجابة ) [2] .

ولكنه فى إحدى المرات — كما نقرأ فى ( البداية والنهاية ) — يبدو أنه أجبر على مقابلة سليمان بن عبد الملك ، لأنه هو نفسه قد طلب من حاجبه أن ينظر إليه فقيهًا يسأله عن بعض مناسك الحج .

وأدخل طاووس على سليمان عنوة بعد محاولته الرفض . ثم سرعان ما تنبه إلى أن موقفه ذاك سيسأله الله عنه ، فأفصح فى جرأة عما يجيش فى صدره . قال ( يا أمير المؤمنين .. إن صخرة كانت على شفير جهنم هوت فيها سبعين خريفا حتى استقرت فى قرارها ) . ثم سأل سليمان بن عبد الملك ( أتدرى لمن أعدها الله ؟ ) ، فلما أجاب الخليفة بالنفى ، عاد يوضح له ( إن الله أعدها لمن أشركه فى حكمه فجار ) [3] . وهكذا كان آمرا بالمعروف وناهيا عن المنكر .

وتنبثق نظرته للحياة ومنهجه فيها من نصيحته لعطاء التى أسلفناها أى الإيمان القوى بالعلاقة المتينة بينه وبين ربه عز وجل . يقصده فى كل آن ، راجيا إياه تعالى ، خائفاً منه وحده ، زاهدا فى أصحاب السلطان والجاه ، لأنه سبحانه وحده صاحب الحول والقوة . يقول طاووس « لا أعلم صاحبا شرا من ذى مال وذى شرف » [4] .

وكان حرفيا فى تطبيق هذه القاعدة ، لأن أحد أبناء سليمان بن عبد الملك

---

(١) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ٢٣٥ . (٢) ن . م ص ٢٣٦ .

(٣) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ٢٣٧ . (٤) ابن سعد / الطبقات الكبرى جـ ٥ ص ٥٤٠ .

جلس إلى جواره مرة ، فلم يلتفت إليه . ولما نبهه أصحابه إليه ، قال « أردت أن يعلم هو وأبوه أن لله عبادا يزهدون فيهم وفيما فى أيديهم » (١) .

ثم إننا نجد فى موقف طاووس أحد صور المعارضة لبنى أمية ، التى أخذ بها علماء المسلمين عملا بمبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

هذا المبدأ الفعال الذى حاولوا به أن يؤثروا فى حياة المسلمين حولهم . وقد أرسى طاووس أحد قواعد الحياة الزاهدة عند المسلمين ليفرق بينها وبين نظرية الزهد المسيحى . فحارب فكرة العزوف عن الزواج فقال « لا يتم نسك الشاب حتى يتزوج » ، ثم ازداد فى تقريعه لمن يرفض الزواج ، إذ زجر أحدهم بقوله « ما يمنعك من النكاح إلا عجز أو فجور » ! ! (٢) .

ولكنه مع هذا يحذر من النساء ويصفهن بقوله « فيهن كفر من مضى وكفر من بقى » (٣) ، مفسراً الآية ﴿ **خلق الإنسان ضعيفا** ﴾ بأن الإنسان لا يكون فى شيء أضعف منه فى النساء (٤) .

فهل كان يحض على الزواج ويدعو له ويحارب الهاربين منه بغرض دعوته لاتقاء الفتنة ؟ أم أنه خشى تأثير الرهبنة النصرانية ؟

من حديثه عن الزواج يتضح أنه وقف فى وجه التيار المتشبه بالرهبان ، الذى يبدو أن البعض حاول السير فى اتجاهه ، وأبرزه مظاهر الامتناع عن الزواج . ولكن هذا لايمنع من بثه لتعاليم الكتب السماوية مع اتفاقها فى الأصول . فقد جمع — فيما يرى — التوراة والإنجيل والقرآن فى عبارة واحدة هى « خف الله مخافة لا يكون عندك شيء أخوف منه ، وارجه رجاء هو أشد من خوفك إياه ، وأحب للناس ما تحب لنفسك » (٥) .

ثم يقدم طاووس لنا أحد عناصر نظريته ، مما يجعله فى دعائه الذى يفصل فيه بين مظاهر الحياة الزائلة وبين الأسس التى تظل باقية فيما وراءها ، فكان دعاؤه

---

(١) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ٢٣٨

(٢) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ٢٤٦ .

(٣) ن . م ص ٢٤٢ .

(٤) ن . م ص ٢٢٦ .

(٥) ن . م ص ٢٣٨ .

« اللهم احرمنى المال والولد ، وارزقنى الإيمان والعمل »(١) .

وكان يرفض أن يدعو لمن يطلب منه ذلك ، ويأمر طالب الدعاء أن يدعو لنفسه « لأن الله يجيب المضطر إذا دعاه »(٢) . وأحيانا يعتذر لسبب آخر ، وهو أنه لا يجد فى قلبه خشية فيدعو ! !(٣) .

ونراه يؤثر فى الإمام أحمد بن حنبل فيما بعد ، إذ ترك الأنين فى مرضه عندما علم بقول طاووس « ما من شىء يتكلم به ابن آدم إلا كتب عليه ، حتى أنينه فى مرضه »(٤) .

## ٢ ــ وهب بن منبه « ١١٠ هـ ــ ٧٢٨ م » :

إننا عندما نعرض لأشخاص الصحابة أو التابعين الذين أسلموا بعد اعتناقهم من قبل اليهودية أو النصرانية ، نحاول أن نستكشف امتداد العقائد السابقة بعد إسلامهم . وهل كانوا يعدون منافذ أطل منها المسلمون على الرسالتين السماويتين الأخريين ؟

قلنا بصدد حديثنا عن طاووس بن كيسان أن الإسلام كان بمثابة النور الساطع الذى حجب الرؤية عما عداه . ويرى ابن تيمية أن أصول الأديان واحد .

كذلك انتهى أستاذنا الدكتور النشار من أبحاثه التى تعقب فيها دراسات المستشرقين إلى القول بأنهم « لم يقرأوا القرآن بحق ، ولم يفحصوا الحديث بصدق ، والاثنان يعلنان أن الدين واحد ، وأن ما تعدد هو صور الأنبياء ، وأن الحقيقة واحدة ، متكررة على لسان موسى وعيسى ومحمد ﷺ »(٥) .

ومن هنا أيضا لم ير المسلمون بأسا فى الإنصات إلى هؤلاء الذين عرفوا أكثر من رسالة سماوية ، فإن آرائهم كانت وليدة العلم الذى دعموه بالنظر والمقارنة .

ويعد وهب بن منبه ــ التابعى الجليل ــ نموذج من هؤلاء الذين عرفوا كتب الأوائل « وله صلاح وعبادة ، ويروى عنه أقوال حسنة ، وحكم ومواعظ » .

---

(١) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ٢٤٦ وابن سعد / الكبرى جـ ٥ ص ٥٤٠ .
(٢) ن . م ص ٢٣٩ .
(٣) ن . م ٢٤٢ .
(٤) ن . م والصفحة .
(٥) د . النشار / نشأة الفكر جـ ٣ ص ١٨٥ .

ويحدثنا عن نفسه فيقول « قرأت اثنين وتسعين كتابا كلها أنزلت من السماء » (١) .

وقد أثر وهب بن منبه فيمن جاء بعده من العلماء والزهاد ، لهذا فإن ابن المبارك كان ينقل لنا فقرات من القصص التى قالها وهب ، وكذلك فعل سفيان بن عيينة الذى لم ير بأس من الإسناد إليه فى الحديث فى معتقده وسلوكه .

إن الجانب الأخلاقى عند وهب أكثر وضوحا من غيره من الجوانب . فكان يدعو دائما إلى الحض على التشبه بسيرة الأتقياء دون الخبثاء ، والدعوة إلى إكبار النفوس عن أخلاق السفهاء ، والاقتداء بأخلاق الأنبياء والعلماء العاملين ، ويميل فى أحاديثه إلى الأمر بالمعروف الذى يربط بينه وبين المبادىء الأخلاقية فيحض على النصح لله الذى لا يكمل إلا بطاعته ، ثم يستطرد « ثم زين طاعتك بالحلم والعقل والفقه والعمل » (٢) .

وينقل وهب للمسلمين القصص عن أخبار بنى إسرائيل الذين حادوا عن الطريق القويم : تفقهوا لغير الدين ، وتعلموا لغير العمل ، وابتاعوا الدنيا بعمل الآخرة ، ولبسوا جلود الضأن ، وحملوا نفوس الذئاب .. وذلك فى حديث عن الله تعالى ، يخاطبه فيه فى نهايته بقوله « تطيلون الصلاة ، وتبيضون الثياب تنقصون بذلك مال اليتيم والأرملة » (٣) .

وربما كان يقصد تحذير الزهاد بخاصة والمسلمين بعامة من تقليد أولئك الأحبار .

ويبدو أنه كان من أوائل الشيوخ الذين خاضوا فى مسائل الغرض من العبادة ، أهى رجاء الثواب أم خوفا من العقاب أم حبا لله ؟ يسند وهب الرأى — كما يذكر — إلى أحد الحكماء ، الذى يرى أنه يستحى أن يعبد الله رجاء دخول الجنة فقط فيصبح كالأجير ، كذلك يستحى أن يعبده خوفا من النار فحسب فيصبح كالعبد الذى يعمل بالرهبة ، ثم يفضل طريق المحبة ويعلن « وإنى ليستخرج منى حب الله مالا يستخرج منى غيره »(٤) .

---

(١) ابن سعد / الطبقات الكبرى جـ٥ ص ٥٤٣ . (٢) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ٢٧٦ /٢٧٧ .
(٣) ن . م ص ٢٧٨ . (٤) ن . م ٢٩١ .

إننا إزاء هذه العاطفة المتقدة بالمحبة ، نرى اتجاها مخالفا لمدرسة البصرة التى تميزت بالخوف ، وكان إمامها الحسن البصرى المعاصر لوهب بن منبه .

ولكننا سرعان ما نلمح رأى وهب المباشر فى الموضوع ، لأن ما سقناه آنفا قد أسنده إلى أحد الحكماء كما قلنا ، إذ نقرأ له رأيه الخاص الذى يتصل اتصالا وثيقا بدائرة الإسلام الكبرى ، حيث يرى أن للدين نواحى ثلاثة أولها ، العمل لله شكرا على النعم الكثيرة . والثانية ، الرغبة فى الجنة ، لأن الزهد فيها نوع من السفه — أما الثالثة ، فالعمل فراراً من النار الذى لا طاقة لأحد بتحملها .

ثم يدعم هذه النظرية التى نستنتج منها ارتباطه فى مذهبه بالكتاب والسنة ارتباطا وثيقا فيقسم رؤوس النعم إلى ثلاثة : العافية التى تطيب بها الحياة ، والغنى الذى يتم العيش به ، ثم يتوج بهما النعمة الكبرى : نعمة الإسلام .. التى تتم النعم به .

وفى نظرته للسنة يقول « طوبى لمن وسعته السنة يتعداها إلى البدعة »[1] .

وله نظرات ناقدة لما قد يحتمل أنه لاحظ . للمتظاهرين بالصلاح فى عصره فيحذرهم « الويل لكم إذا سماكم الناس صالحين وأكرموكم على ذلك !! »[2].

ويتلخص مذهبه الأخلاقى فى اتقاء العيوب الأربعة التى تشكل الكفر وهى « الغضب والشهوة والطمع والخوف »[3] . والعكس فإن دعائم البر هى نقاوة النفس ، والصبر على الأذى وصعب الكلام . ثم يربط بين هذه الأسس الأخلاقية والعبادة الحقيقية — العبادة الكبرى — التى يراها فى التوكل[4] .

ثم مرت القرون .. واتخذت فرق الصوفية — لاسيما « البطائحية » أتباع الشيخ أحمد بن الرفاعى من رواية نسبوها لوهب بن منبه — عادة لبس الأطواق الحديدية فى أعناقهم استناداً إلى ما رواه « إنه كان فى بنى إسرائيل عابد وأنه جعل فى عنقه طوقاً فى حكاية من حكايات بنى إسرائيل لا تثبت »[5] .

---

(١) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ٣٠٠ . (٢) ن . م والصفحة .
(٣) ن . م ص ٣٠١ . (٤) ن . م ص ٣٠١ / ٣٠٢ .
(٥) ابن تيمية / كتاب التصوف ص ٤٦٣ .

وكان هذا الدفاع ضمن ما احتج به « الرفاعية » فى مناقشتهم مع ابن تيمية ولكنه رفض قبوله محتجا بحديثين : أحدهما بمسند الإمام أحمد حين مر النبى ﷺ فرأى بيد عمر بن الخطاب ورقة من التوراة فقال « أمتهوكون يا ابن الخطاب ؟ لقد جئتكم بها بيضاء نقية لو كان موسى حيا ثم اتبعتموه وتركتمونى لضللتم » . والثانى فى مراسيل أبى داود « أن النبى ﷺ رأى مع بعض أصحابه شيئاً من كتب أهل الكتاب فقال « كفى بقوم ضلالة أن يتبعوا كتابا غير كتابهم أنزل إلى نبى غير نبيهم »[1] .

وإذا كان لا يجوز للمسلمين — كما يرى ابن تيمية من واقع النصوص — اتباع موسى ولا عيسى ، فيما علموا أنه أنزل عليهما من عند الله إذا خالف شرعهم « فكيف يجوز لنا أن نتبع عباد بنى إسرائيل فى حكاية لا تعلم صحتها ؟! »[2] .

وطالب ابن تيمية فى نهاية مناقشته المدافع عن الرفاعية بإتيان أحد الأدلة القوية . قال له « هات ما فى القرآن وما فى الأحاديث الصحاح كالبخارى ومسلم »[3] .

---

(١) ن . م والصفحة .

(٢) ن . م والصفحة .

(٣) ن . م والصفحة .

## خاتمـــــة

من هذه النظرة السريعة التى ألقيناها على زهاد السلف من أصحاب القرون الأولى ، استطعنا أن نتبين أن الزهد عندهم لا يعنى التجرد من كل شىء . ويصف الدكتور عبد الحليم محمود ثراء بعض الصحابة فيقول « لقد ملكوا المال ، ولم يملكهم المال . وكانوا متحققين بقول الله تعالى ﴿ **لكى لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم** ﴾ [ سورة الحديد / ٢٣ ] .

وقد رأينا نظريات الزهد والتصوف المبكر ترتبط أساسا بالفكر الدينى أوثق ارتباط ، وتتخذ منه أسسه ومقوماته . أما الصبغة الخاصة لكل مجموعة من الزهاد على حدة ـــ وهو ما اصطلح عليه بالمدارس ـــ فقد كان أمراً ثانويا ، إذ كانت تتلون بطابع الزهاد أنفسهم ، مع اتجاهاتهم وميولهم .

ونستطيع تقريب المعنى ، إذا قارنا الزاهد بخصائصه الفردية التى يضفيها على النصوص القرآنية ، بموقف الفيلسوف الذى يتسم بالفردية ، ولكن الفرق بينهما أن هذا يعتمد على النظر العقلى والاستدلال المنطقى ، بينما يستخدم الزاهد الوجدان والذوق . إن الزهد هنا بمثابة اجتهاد فى تفسير النصوص تفسيراً وجدانياً ، يشع بالعاطفة ، وينبض بصدق الإيمان .

كذلك من الواضح أن طابع السلوك العملى يغلب على طابع المذهب النظرى ، ولكن البحث وراء هذا السلوك يكشف عن الأسس النظرية التى يلتحم بها ، وهى لا تخرج فى إطارها العام عن الكتاب والسنة .

لقد انبثقت الحياة الروحية والمضمون الوجدانى من الإسلام نفسه لأنه يتضمن هذا الجانب بلا شك ، وانطلق أرباب القلوب على السجية : فمن النظر فى آيات الكتاب ، ومن الاقتداء بالرسول ﷺ ، عرفوا المحبة والخشية ، وتقربوا إلى الله

بالعبادات ، وترنموا بالحديث عن الجنة ونعيمها ، وأفاضوا الكلام عن النار وعذابها .

كما سيطرت عليهم فكرة الألوهية ، ووضعوا نصب أعينهم هذه الهيمنة الإلهية التى تحكم سلوكهم : فالإكثار من العبادات للتقرب ، والتقشف خشية الحساب ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لإقامة المجتمع المسلم الصحيح . والجهاد لنشر كلمة الحق والعدل والدفاع عن ديار الإسلام ، وتأكيد سلطان الله تعالى فى كافة الأمور .

ثم إنه من الصعوبة أن نجد فروقا بين صفاتهم كزهاد أو وعاظ ، أو صفاتهم كفقهاء ومحدثين ، لأن هذه الدوائر تتداخل بحيث يتعذر إقامة الفواصل بينهما ، وتتصل بالدائرة الكبرى التى تحيط بها : دائرة الإسلام العظيم .

وهكذا ، فقد حاولوا جهدهم تحقيق النموذج الإنسانى الصحيح للفكرة الإسلامية ، حيث يجعلون الله تعالى محور النظام الإسلامى فى كافة صوره وأشكاله : من النية ، والعبادة ، والصلاة ، وما له علاقة بالحياة الدنيوية . لأنه — سبحانه — هو المالك الوحيد ، وما مجهود الإنسان — باعتباره خليفة الله فى الأرض — إلا ابتغاء مرضاة سيده ومولاه عز وجل[1] . وبتعبير ابن تيمية « أن تكون كلمة الله هى العليا » .

إنهم باختصار ، خلاصة الحضارة الإسلامية ذاتها . فإن تصورهم للحياة الدنيا إنما هى مزرعة الآخرة ، ومن هنا يمكن القول بأنهم تصرفوا فى الدنيا « على وجه متوسط بين الرهبانية والنفعية » .

---

(١) أبو الأعلى المودودى .. الحضارة الإسلامية أسسها ومبادئها ص ٦٢ ، ٦٦ ، ٦٨ .

فهرس

الموضوع | الصفحة

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |

رقم الإيداع بدار الكتب ١٥٦١ ـ ٨٩

الترقيم الدولى ٨ ـ ٣٠ ـ ١٤٢٢ ـ ٩٧٧

مطابع الوفاء ـ المنصورة

شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب

ت : ٣٤٢٧٢١ - ص.ب : ٢٣٠

تلكس : ٢٤٠٠٤ DWFA UN